

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه وصية الإمام أبي حنيفة رحمه الله عليه لتلميذه يوسف بن خالد السَّمْتِي البصري.

وصى بها حين استأذنه الخروج إلى وطنه البصرة. فقال: لا، حتى أتقدم إليك بالوصية فيما تحتاج إليه في معاشره الناس، ومراتب أهل العلم، وتأديب النفس، وسياسة الرعية، ورياضة الخاصة والعامة، وتفقّد أمر العامة. حتى إذا خرجت بعلمك كان معك آلة تصلح لك وتزينك ولا تشينك.

واعلم أنك متى أسأت عشرة الناس صاروا لك أعداء، ولو كانوا أمهات وآباء، ومتى أحسنت عشرة الناس من أقوام ليسوا لك أقباء صاروا لك أقباء. ثم قال لي:

اصبر يوماً حتى أفرغ لك نفسي، وأجمع لك همتي، وأعرفك من الأمر ما تحمدي، وتجعل نفسك عليه، ولا توفيق إلا

بالله.

فلما مضى الميعاد، قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنا أكشف لك عما عزمته عليه.

كأني بك وقد دخلت بصرة، وأقبلت على المناقضة مع مخالفيك، ورفعت نفسك عليهم، وتناولت بعلمك لديهم، وانقبضت عن معاشرتهم ومخالطتهم، وهجرتهم فهجروك، وشتمتهم فشتموك، وضلللتهم فضللوك، وبدعتهم فبدعوك، واتصل ذلك الشئ بنا وبك، واحتجت إلى الهرب، والانتقال عنهم، وليس هذا برأي! فإنه ليس بعاقل من لم يدار من ليس له من مداراته بُد، حتى يجعل الله تعالى له مخرجاً، قال السمتي: ولقد كنت مُزْمِعاً على ما قال.

ثم قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا دخلت البصرة واستقبلك الناس، وزاروك وعرفوا حَقَّك، فأنزل كل رجلٍ منهم منزلة،

وأكرم أهل الشرف، وعظم أهل العلم، ووقر الشيوخ، ولاطف الأحداث، وتقرّب من العامة، ودار الفجار، واضحّب الأختيار، ولا

تتهاوَنَ بالسُّلْطَانِ، ولا تَحْرِقَنَّ أَحَدًا يَقْصِدُكَ، ولا تَقْصِرَنَّ فِي إِقَامَةِ مَوْدَّتِكَ إِيَاهُمْ، ولا تَخْرُجَنَّ سِرِّكَ إِلَى أَحَدٍ، ولا تَتَقَنَّ بِصَحْبَةِ أَحَدٍ
حَتَّى تَمْتَحِنَهُ، ولا تُخَادِمَ حَسْبِيًّا، ولا وَضِيْعًا، ولا تَقُولَنَّ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُنْكَرُ عَلَيْكَ فِي ظَاهِرِهِ.

وَإِيَّاكَ وَالْإِنْبِسَاطَ إِلَى السَّفَهَاءِ، وَلا تَجِيبَنَّ دَعْوَةَ، وَلا تَقْبَلَنَّ هَدِيَّةً، وَعَلَيْكَ بِالْمَدَارَاةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَسَعَةِ
الصَّدْرِ.

وَاسْتَجِدَّ ثِيَابَكَ، وَأَكْثِرِ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبِ، وَقَرِّبْ مَجْلِسَكَ، وَلِيَكُنْ ذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ.
وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ خُلُوعًا تَرْمُ بِهَا حَوَائِجَكَ، وَابْحَثْ عَنِ أَخْبَارِ حَشَمِكَ، وَتَقَدَّمْ فِي تَقْوِيمِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ، وَاسْتَعْمِلْ فِي ذَلِكَ
الرِّفْقَ وَلا تُكْثِرِ الْعَتَبَ فِيهِوَ الْعَدْلَ وَلا تَلِ تَأْدِيبَهُمْ بِنَفْسِكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لِمَائِكَ، وَأَهْيَبُ لَكَ.
وَحَافِظْ عَلَى صَلَوَاتِكَ، وَابْدُلْ طَعَامَكَ، فَإِنَّهُ مَا سَادَ بِخَيْلٍ قَطُّ، وَلِيَكُنْ لَكَ بِطَانَةٌ تُعْرِفُكَ أَخْبَارَ النَّاسِ، فَمَتَى عَرَفْتَ
بِفَسَادِ بَادِرَتِ إِلَى صِلَاحٍ، وَمَتَى عَرَفْتَ بِصِلَاحِ فَارْدَدْ رَغْبَةً وَعِنَايَةً فِي ذَلِكَ، وَاعْمَدْ فِي زِيَارَةِ مَنْ يَزُورُكَ وَمَنْ لَا يَزُورُكَ، وَالْإِحْسَانَ
إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، أَوْ أَسَاءَ.

وَخِذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَغَافَلْ عَمَّا لَا يَغْنِيكَ، وَأَثْرُكَ كَلٌّ مِنْ يُوْذِيكَ، وَبَادِرْ فِي إِقَامَةِ الْحَقُوقِ.
وَمِنْ مَرَضٍ مِنْ إِخْوَانِكَ فَعُدَّهُ بِنَفْسِكَ، وَتَعَاهَدُهُ بِرُسُلِكَ.
وَمِنْ غَابَ مِنْهُمْ فَتَفَقَّدْ أَحْوَالَهُ.
وَمَنْ قَعَدَ مِنْهُمْ عَنْكَ، فَلَا تَقْعُدْ أَنْتَ عَنْهُ.
وَصِلْ مَنْ جَفَاكَ، وَأَكْرِمْ مَنْ أَتَاكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ. وَمَنْ تَكَلَّمَ مِنْهُمْ بِالْقَبِيحِ فَيَكُ فِتْنَةً فِيكَ فَتَكَلَّمْ فِيهِ بِالْحَسَنِ الْجَمِيلِ.
وَمَنْ مَاتَ قَضِيَّتَ لَهُ حَقُّهُ، وَمَنْ كَانَتْ لَهُ فَرْحَةٌ هَنِيئَةً بِهَا وَمَنْ كَانَتْ لَهُ مَصِيبَةٌ عَزِيْبَةً عَنْهَا.
وَمِنْ أَصَابَهُ هُمْ فَتَوَجَّعْ لَهُ بِهِ.

وَمَنْ اسْتَنْهَضَكَ لِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ نَهَضْتَ لَهُ، وَمَنْ اسْتَغَاثَكَ فَأَعِنْتَهُ.
وَمَنْ اسْتَنْصَرَكَ فَاَنْصُرْهُ.
وَأَظْهِرِ التَّوَدُّدَ إِلَى النَّاسِ مَا اسْتَطَعْتَ.

وأفشي السلام، ولو على قومٍ لئام.

ومتى جمعك وغيرك مجلس، أو ضمك وإياهم مسجد، وجرت المسائل، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبد لهم منك خلافاً.

فإن سُئِلت عنها! أجبت بما يعرفه القوم، ثم تقول: وفيها قولٌ آخر كذا، وحجته كذا، فإذا سمعوا منك عرفوا قدرك ومقدارك، وإن قالوا: هذا قول من؟ فقل: قول بعض الفقهاء.

وإن استقروا على ذلك، وألفوه، وعرفوا مقدارك وعظموا محللك، فأعط كل من يختلف إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه، ويأخذ كل منهم بحظ شيء من ذلك. وخذهم بجلي العلم دون دقيقه.

وإنسهم ومآزجهم أحياناً، وحادثهم، فإنما تجلب المؤدة وتستديم به مواظبة العلم، وأطعمهم أحياناً، واقض حوائجهم، واعرف مقدارهم، وتغافل عن زلاتهم، وارفق بهم وسامحهم.

ولا تبد لأحدٍ منهم ضيق صدرٍ أو ضجراً، وكن كواحدٍ منهم.

وارض منهُم ما ترضى لنفسك.

وعامل الناس مُعاملتك لنفسك.

واستعن على نفسك بالصيانة لها، والمراقبة لأحوالها.

ولا تضجر لمن لا يضجر عليك.

ودع الشعب، واستمع لمن يستمع منك، ولا تكلف الناس ما لا يكلفوك، وارض لهم ما رضوا لأنفسهم، وقدم حُسن

النية، واستعمل الصدق، واطرح الكبر جانباً.

وإياك والعذر، وإن غدروا بك، وأد الأمانة، وإن خانوك.

وتمسك بالوفاء، واعتصم بالتقوى.

وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم لك، فإنك إن تمسكت بوصيتي هذه رجوت أن تسلم، وتعيش سالماً إن شاء الله

تعالى.

ثُمَّ إِنَّهُ لِيُخَزِّنِي مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، وَتَوَسَّنِي مَعْرِفَتِكَ، فَوَاصِلِي بِكُتُبِكَ، وَعَرَفَنِي بِجَوَائِحِكَ، وَكُنْ لِي كَابِنٍ فَإِنِّي لَكَ كَابٍ.

قال يوسف بن خالد السَّمِّي:

ثم أخرج إليّ دنانيرَ وكِسوةً وزادًا وخرَجَ معي، وحَمَلَ ذلكَ حَمَالًا، وجمعَ أصحابه حتى شيعوني، وركبَ معَهُم حتى بَلَّغَنَا إلى

شَطِ الفُراتِ، ثمَّ ودَّعوني وودَّعَهُم.

وكانت مِنَّةُ أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى بوصيته إليّ وبرّه أعظمَ من كلِّ مِنَّةٍ تقدَّمت عليّ.

وقدِمْتُ بالبصرةَ، فاستعلمتُ ما قالَ، فما مرَّرتُ عليّ أيَّامٌ يسيرةً حتى صاروا كلُّهم لي أصدقاءً، وانتَقَضتُ المجالسَ، وظهرَ

بالبصرةَ مذهبُ أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى، كما ظهرَ بالكوفةِ، وسقطَ⁽¹⁾ مذهبُ الحسنِ، وابنِ سيرينَ رضي الله عنهما، فما زالت

كتبُ أبي حنيفةَ تُجَيِّئني إلى أن ماتَ رحمه الله تعالى.

فهنيئًا لك من معلِّمٍ صالحٍ وأستاذٍ صالحٍ.

فمن لنا مثله رضي الله عنه.

(1) أي: انقضى.

شَرْحُ وَصِيَّةِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا دَخَلْتَ الْبَصْرَةَ وَاسْتَقْبَلَكَ النَّاسُ، وَزَاروكَ وَعَرَفُوا حَقَّكَ، فَأَنْزِلْ كُلَّ رَجُلٍ

مِنْهُمْ مَنْزِلَتَهُ».

الشرح: أوصاه رضي الله عنه بهذه الوصية لِمَا عرف من حاله أنه مسافرٌ وقادمٌ على أناسٍ غرباءٍ عنه لا يعرف عاداتهم،

فردّه إلى آداب الإسلام التي هي ساداتُ العادات وبذلك يتألّفهم ويتألّفونه.

وليس بجديدٍ على الإمام الاقتباس من الأحاديث النبوية في وصاياه، فعين هذه الوصية عند أبي داود، فقد روى في

السنن⁽¹⁾ أَنَّ عَائِشَةَ مَرَّ بِهَا سَائِلٌ فَأَعْطَتْهُ كَسْرَةً، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ عَلَيْهِ ثِيَابٌ وَهَيْئَةٌ فَأَقْعَدَتْهُ فَأَكَلَ، فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ فَقَالَتْ: قَالَ

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ».

وهذا الهدي المحمديّ جمع من قوام الأدب الشيء الكثير لا سيما أنه قد شاع اليوم بين كثير من المسلمين ما ينافي

الأدب ويخالف الاحترام في تعاملاتهم.

وهذا الحديث لا شك أنه قاعدةٌ عظيمةٌ في هذا الباب، إذ يبيّن لنا أن الكبير له معاملةٌ، والصغير له معاملةٌ، والجاهل له

معاملةٌ، والعالم له معاملةٌ، والرجل له معاملةٌ، والمرأة لها معاملةٌ، وهلمّ جرّاً.

ولذلك قال الإمام مسلم في مقدمة الصحيح⁽²⁾: «فلا يقصر بالرجل العالي القدر عن درجته، ولا يُرْفَعُ مُتَضِعُ الْقَدْرِ فِي

العلم فوق منزلته، ويُعْطَى كُلُّ ذِي حَقٍّ فِيهِ حَقُّهُ».

فلا شك أن المقربين عند الله تعالى هم الذين يحبونه ويعبدونه ويطيعون حقوقه ويراعون حدود الشرع ويؤدون العبادات

التي أمروا بها، فهؤلاء لهم مكانتهم نحبهم ونقرّبهم ونحترمهم ونعترف بفضلهم وبأعمالهم، فننزلهم منزلةً رفيعةً.

كذلك العلماء نحبهم أيضاً ونقرّبهم ونجالسهم ونؤانسهم ونطمئن إليهم ونركن إليهم ونثق بهم ونعرف لهم حقهم

ومكانتهم.

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (261/4)، حديث (4842).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (5/1).

ولا تنس أيتها المسلم في معاملة الكبير والصغير قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرًا وَيُوقِرْ كَبِيرًا»⁽¹⁾، أي: ليس على آدابنا وطريقتنا الكاملة، وقوله ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ (2) اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»⁽³⁾، أي: من تعظيم الله احترام المسلم الكبير ذي الشيبة وتوقيره لأن الله أمرنا بذلك.

قال الإمام الهرري رضي الله عنه: «من آداب الإسلام تقديم المسلم الكبير في المجلس والكلام لقوله عليه الصلاة والسلام: «كَبْرٌ كَبْرٌ»⁽⁴⁾ أي: قدم الكبير ليتكلم قبلك».

وانظر إلى فعل النبي ﷺ مع والد أبي بكر رضي الله عنه، فقد روى أحمد في المسند⁽⁵⁾ عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها قالت: لما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد، أتاه أبو بكرٍ بأبيه، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هَلَا تَرَكْتِ الشَّيْخَ فِي بَيْتِهِ حَتَّى أَكُونَ أَنَا ءَاتِيهِ فِيهِ». قال أبو بكرٍ: يا رسول الله، هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه، قال: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أَسْلَمَ»، فأسلم.

قال الغزالي في الإحياء⁽⁶⁾: «وينبغي أن يُعوَّدَ - أي: الصبي - أن لا يبصُق في مجلسه ولا يمتخط ولا يتشاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلاً على رجلٍ... ويُعوَّد أن لا يتكلم غلاً جواباً، وبقدر السؤال، وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره⁽⁷⁾ ممَّن هو أكبر منه سنًا، وأن يقوم لمن فوفقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه».

وإياك أن تفهم كلام الغزالي على غير وجهه، فالصبي إن كان ذا علمٍ قديمٍ وقُرْب، وعليه عمَلُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع ابن عباس رضي الله عنهما حيث كان يدعو للمعضلات، وحوْلُهُ أهل بدر من المهاجرين والأنصار فيتحدث ابن عباس ولا يجاوز عمر قوله. فقد روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان عمر بن الخطاب يأذن لأهل بدرٍ، ويأذن لي

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (321/4)، حديث (1919).

(2) أي: من كمال ذلك.

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (261/4)، حديث (4843).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (101/4)، حديث (3173).

(5) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (518/44)، حديث (26956).

(6) إحياء علوم الدين، الغزالي، (73/3).

(7) أي: فيما يوافق الشرع ومما فيه خيرٌ أو نفع أو إرشاد لهذا الصبي وغيره، وأمَّا إن جرى في المجلس ما هو محرمٌ مخالفٌ للدين فإنَّ الصبيَّ أم المرأة أو العبد المملوك لهم أن يبيِّنوا الصواب ويقولوا الحقَّ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «قُلِ الْحَقُّ وَإِنْ كَانَ مَرًّا»، وما رواه سعيد بن منصور والبيهقي والحافظ ابن حجر العسقلاني في ردِّ الصحابية الأنصارية على أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في مسألة مهور النساء، والحقُّ أحقُّ أن يتبع، وكائن من كان الذي قاله يُشكر عليه صغيراً كان أو كبيراً أو امرأةً أو عبداً.

معهم، فقال بعضهم: يأذن لهذا الفتى معنا، ومن أبنا من هو مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم. قال: فأذن لهم ذات يوم، وأذن لي معهم، فسألهم عن هذه السورة: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1]، فقالوا: أمر الله نبيه ﷺ إذا فتح عليه أن يستغفره ويتوب إليه. فقال لي: ما تقول يا ابن عباس؟ قال: قلت: ليست كذلك، ولكنه أخبر نبيه عليه الصلاة والسلام بحضور أجله، فقال: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} [النصر: 1] فتح مكة، {وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا} [النصر: 2]، فذلك علامة موتك، {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا} [النصر: 3]. فقال لهم: «كيف تلوموني على ما ترون».

ونحتم بما يروى في إجلال الشافعي رضي الله عنه للإمام أحمد رضي الله عنه، وهذا من توقيير الأئمة لبعضهم وأن لا يؤخذ في محبتهم العصبية المنتنة:

قَالُوا يَزُورُكَ أَحْمَدُ وَتَزُورُهُ
فَلَمَّا لَقِيَ أَهْلَ الْفَضَائِلِ لَا تُفَارِقُ مَنْزِلَهُ
إِنْ زَارَنِي فَبِقَضَائِهِ أَوْ زُرْتُهُ
فَلَقَضَائِهِ فَالْقَضِيلُ فِي الْحَالَيْنِ لَهُ

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَكْرَمُ أَهْلِ الشَّرْفِ، وَعَظَمُ أَهْلِ الْعِلْمِ».

الشرح: هذه جملة من نصائح الإمام رضي الله عنه تدور حول موضوع واحد أو تُبَوَّب تحت عنوان واحد وهو علاقة العالم بغيره، وإنما كرر وأعاد الإمام للتأكيد ولبيان أهميتها والحث على التحليق بها والتأدب بهذه الخصال الحميدة. وليتضح وينجلي معنى هذه النصيحة نذكر معنى الإكرام والشرف. فمن معاني الإكرام التعظيم، ومن معاني الشرف العلو والمجد. ولا يتشرف الإنسان إلا بالإسلام وءادابه والتقوى وسبيلها، ولهذا قال سيدنا عمر رضي الله عنه فيما رواه الحاكم⁽¹⁾: «إِنَّا كُنَّا أَدَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطَلْبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَدَلَّنَا اللَّهُ».

وقال الإمام عبد الله الهجري رحمه الله رحمة واسعة: «ليس الشرف شرف المال، الشرف شرف الدين».

وفي مُقدِّم أهل الشرف العلماء، فلا يخفى على ذي عقلٍ سليم أن للعلم والعلماء مكانة في الدين، وفضلاً كبيراً لا يُنكر. فقد جاءت نصوص الشريعة متوافرة متعاضدة تعزز من مكانتهم، قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: 18].

(1) المستدرک علی الصحیحین الحاکم، (130/1)، حدیث (207).

قال المفصّر القرطبي رحمه الله⁽¹⁾: «في هذه الآية دليلٌ على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحدٌ أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء». ومراد القرطبي أن العلماء الأتقياء أشرف وأفضل من عامة الناس. فيكفيهم شرفاً أن الله رفع من شأنهم، فهم أهل خشية من بين خلقه، قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: 28]، أي: إن العلماء الأتقياء هم أشدُّ خشيةً لله من غيرهم، وليس كما قال بعض الزنادقة من المستترين بالمشيخة والتصوف كرجب ديب السوري: «إن الله يعتذر من العلماء يوم القيامة»، والعياذ بالله من هذا الكفر الصريح.

وأبى الشرع التسوية بينهم وبين الجهلة فقال: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الزمر: 9]، ورفعهم الله درجات فقال سبحانه: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} [المجادلة: 11].

وور في السنة⁽²⁾ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكُوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى الثَّمَلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحَوْتَ لِيُصَلُّوا عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»⁽³⁾. فيا له من فضلٍ كبيرٍ وشرفٍ عظيم.

ثم اعلم أيها القارئ أن توقير العلم والعلماء من إجلال الله وتعظيمه وتعظيم شريعته، فقد قال ﷺ⁽⁴⁾: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْعَالِي فِيهِ وَالْحَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُفْسِطِ».

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (41/4).

(2) سنن أبي داود، أبو داود، (317/3)، حديث (3641).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (50/5)، حديث (2685).

(4) سنن أبي داود، أبو داود، (261/4)، حديث (4843).

وهذا الصحابي الجليل ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يأخذ بركاب أبي بن كعب، فقيل له: أنت ابن عم رسول الله ﷺ تأخذ بركاب رجل من الأنصار، فقال: إنه ينبغي للخبر أن يعظم ويشرف. ذكرها الخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي واداب السامع»⁽¹⁾.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أنهم يتقربون إلى الله بالعلماء العاملين بلا غلو ولا جفاء، قال الإمام أبو جعفر الطحاوي في عقيدته عقيدة أهل السنة قاطبة: «وعلماء السلف السابقين ومن بعدهم من التابعين أهل الخير والأثر وأهل الفقه والنظر لا يُذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

وكلامه رضي الله عنه محمولٌ على ذكرهم أو ذكر ما حصل من بعضهم لا من باب بيان الحكم الشرعي ولا من باب التحذير أو النصيحة بل من باب التشهي، وعليه نقول: إنَّ القول بأن مقاتلي الخليفة الراشد الذي انعقدت بيعته الشرعية باتفاق أهل الحل والعقد علي بن أبي طالب بغاة لا يدخل تحت قول الطحاوي، إذ هذا ما شهد به النبي ﷺ والقرآن وهل بعد شهادتهما شهادة؟ فهذا كتاب الله يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء: 59]، والنبي ﷺ يقول: «وَيْحَ عَمَارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِتْنَةُ الْبَاغِيَّةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، وَيَدْعُوْنَهُ إِلَى النَّارِ»⁽²⁾، وقال للزبير رضي الله عنه⁽³⁾: «لَتُقَاتِلَنَّ»⁽⁴⁾ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ». وقد نهي ﷺ أمته عن الخروج على الإمام العادل إلا أن يروا كفرةً بواحا⁽⁵⁾.

وبعد هذا لا عبرة بقول البعض:

وما جرى بين الصّحاب نسكثُ عنه وأجر الاجتهادِ تُبثُ
فكيف يُجتهد مع وجود النص - وهو الآيات والأحاديث المارة -، وكيف يكون في المعصية أجر؟! والعجيب أن قائل هذا البيت هو نفسه قال:

ولم يجز في غير محض الكفرِ خروجنا على وليّ الأمرِ

(1) الجامع لأخلاق الراوي واداب السامع، الخطيب البغدادي، (188/1).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (97/1)، حديث (447).

(3) المستدرک، الحاكم، (413/3)، حديث (5575).

(4) أي: عليًا.

(5) صحيح البخاري، البخاري، (47/9)، حديث (7056)، صحيح مسلم، (1470/3)، حديث (1709).

ثم انظر إلى قول الجرجاني عبد القاهر في كتاب «الإمامة»⁽¹⁾: «وأجمع فقهاء الجاز والعراق من فريقي الحديث والرأي منهم مالك والشافعي وأبو حنيفة والأوزاعي، والجمهور الأعظم من المتكلمين أن علياً مصيبٌ في قتاله لأهل صفين كما هو مصيبٌ في أهل الجمل، وأن الذين قاتلوه بغاةً ظالمون له».

وقال الإمام أبو منصور في كتابه «الفرق بين الفرق»⁽²⁾: «وَقَالُوا - أي: أهل السُّنَّة -: إِنَّ عَلِيًّا كَانَ عَلَى الْحَقِّ فِي قِتَالِهِمْ، وَأَصْحَابُ الْجَمَلِ كَانُوا عَصَاءَ مَخْطُوفِينَ فِي قِتَالِ عَلِيٍّ».

وبالعودة لموضوعنا الأول نختمه بقولنا: إن محبة علماء الشريعة الربانيين ومعرفة قدرهم وحفظ مكانتهم والذب عن أعراضهم والانتصار لهم ممن بغى عليهم منهج السلف الصالح ودليل الهدى والاتباع، وفي هذا يقول أبو حاتم الرازي: «إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة».

حفظ الله لنا علماء الأمة وأعلى ذكركم وزادهم من فضله ونفع بهم خلقه ورد عنهم قالة السوء. ونحن بتوفيق الله نحذر من الطعن فيهم، قال الحافظ ابن عساكر⁽³⁾ رحمه الله: «إِنَّ لِحُومِ الْعُلَمَاءِ رَحْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مَسْمُومَةٌ وَعَادَةَ اللَّهِ فِي هَتِكِ أَسْتَارِ مَنْتَقِصِيهِمْ مَعْلُومَةٌ» أي: ينتقم منهم، لأن الوقية فيهم بما هم منه براءٌ أمرٌ عظيمٌ، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتعٌ وخيمٌ.

وهنا يجب التحذير من الوهابية التي تعمل على تكفير علماء الأمة وأوليائها كأبي حنيفة الإمام المجتهد المطلق والتابعي الجليل، حيث قام مشايخ الوهابية بطباعة كتاب مُحَرَّفٍ سُمِّيَ بكتاب «السُّنَّة» كذبًا وزورًا، وقد ألصق بعبد الله بن أحمد بن حنبل، وفيه يقولون: إِنَّ أبا حنيفة ارتد عن الإسلام وهو زنديق، وإنَّ أبا حنيفة أضُرَّ على الإسلام من الشيطان، ضرب الله طوقًا من نار على قبره وأنه يبيع الخمر، إلى ما هنالك من صفات الدِّمِّ والقدح التي تقشعر لها جلود الذين ءامنوا، وهي عائدة على الوهابية وزعمائها لا على أبي حنيفة، فأبو حنيفة يكفيه شرفًا ومدحًا أن الأمة على مدحه من القرن الثاني الهجري إلى يومنا هذا، وقد سجَّل بعض مشايخ الوهابية بالصوت والصورة في بعض مواقع الإنترنت، فقالوا عن الإمام الجليل: «أبو حنيفة الخبيث والذين يدافعون عنه كفار» والعياذ بالله تعالى، فاعجبوا من وقاحةٍ وخبث الوهابية. وقد منَّ الله علينا ووفَّقنا إلى تأليف كتابٍ دحضنا فيه

(1) ذكره القرطبي في التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، (1089).

(2) الفرق بين الفرق، أبو منصور البغدادي، (96/1).

(3) تبين كذب المفتري، ابن عساكر، (ص 29).

شبهاتهم ومزاعمهم ودافعنا فيه عن الإمام العظيم أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي، وقد سمناه بـ«الأدلة المنيفة في نفي الكفر عن أبي حنيفة» رضي الله تعالى عنه، والله الحمد والمنّة.

فالعجب كلُّ العجب من وقاحة وخبث الوهابية، إذ لم يسلم منهم لا نبي ولا إمام عالم ولا ولي.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَوَقِّرَ الشُّيُوخَ».

الشرح: هذه النصيحة قد مرَّ الكلام عليها سابقاً لكن أردنا ظمناً أن الإمام أعادها أن نخصَّ بالشيوخ الوالدين، فنقول:

إن الإحسان يتأكد أكثر في حق الوالدين، قال تعالى: { وَوَقَّضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا } [الإسراء: 24].

فأحسن أيها الابن وأيتها البنت معاملة والديكما وخاصةً عند الكبر، فهما في حالة ضعفٍ وعجزٍ، وتذكراً أنهما عندكما في أواخر العمر كما كنتما عندهما عاجزين أول العمر، فلا تقل ولا تقولي لهما ما يكون فيه أدنى تضجر، وأحسننا إليهما بفعلكما وقولكما الكريم، وتواضعا لهما وادعوا لهما بخيري الدنيا والآخرة، فإنَّ الإنسان إذا فعل ذلك فقد نال الأجر العظيم عند الله، فهنيئاً لمن أكرمه الله بكبرٍ والديه أو أحدهما عنده وانتهر الفرصة بالخيرات، وقام بالبر والإحسان إليهما وخفض لهما جناح الذل من الرحمة.

وفي الحديث⁽¹⁾: «وَيُرُوا آبَاءَكُمْ يَبْكُكُمْ أَبْنَاءُكُمْ».

ولقد نار أويس بن عامر القريني منزلةً عظيمةً ببركة برِّه لأمه ورعايته لها، ولما لقيه سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أُمَّدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ، إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ، فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ»⁽²⁾، فقال له سيدنا عمر: استغفر لي فاستغفر له.

ملاحظة: سيدنا عمر أفضل من أويس رضي الله عنهما، إلا أنَّ هذا دليل على تواضع أمر المؤمنين رضي الله عنه.

(1) المعجم الأوسط، الطبراني، (241/6)، حديث (6295).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1969/4)، حديث (2542).

ولقد قال ابن عباس رضي الله عنهما⁽¹⁾: «لا تنفضُ ثوبك فيصيبهما العُبار». وقال عروة: «لا تمتنع عن شيء أحبَّاه»

أي: من المباحات، وبالغ في إكramهما ولو غرقت في بحر من المكروهات جبراً لحاظهما.

فدائمًا أيها الشاب اذكر الآية المارة وتأملها وتفكر فيها، فلا تنهرهما ولا تزجرهما عما يتعاطيانه مما لا يعجبك إلا إن كان

حرامًا.

{ وَقُلْ هُمَا قَوْلًا كَرِيمًا } لِنِنَّا لَطِيفًا أَحْسَنَ مَا تَجِدُ كَمَا يَقْتَضِيهِ حَسَنُ الْأَدَبِ، أَوْ هُوَ أَنْ تَقُولَ: يَا أَبَتَاهُ وَيَا أُمَّتَاهُ وَلَا

تَدْعُهُمَا بِأَسْمَائِهِمَا فَإِنَّهُ مِنَ الْجَفَاءِ وَسُوءِ الْأَدَبِ مَعَهُمَا إِنْ كَانَ عَلَى هَيْئَةٍ يَتَأَذَّيَانِ مِنْهَا أَوْ يَحْصِلُ لهُمَا انزِعَاجٌ.

وَأَلِّقْ لهُمَا جَانِبَكَ مَتَذَلِّلاً لهُمَا مِنْ فِرطِ رَحْمَتِكَ إِبَاهُمَا وَعِطْفِكَ عَلَيْهِمَا وَلِكِبْرِهِمَا وَافْتِقَارِهِمَا الْيَوْمَ إِلَى مَنْ كَانَ أَفْقَرَ خَلَقَ اللَّهُ

إِلَيْهِمَا بِالْأَمْسِ.

{ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا } أي: مِثْلَ رَحْمَتِهِمَا إِبَائِي فِي صَغُرِي حَتَّى رَبَّيْتَنِي، فَلَا تَكْتَفِ بِرَحْمَتِكَ عَلَيْهِمَا الَّتِي

لَا بَقَاءَ لَهَا وَادَعِ اللَّهَ بِأَنْ يَرْحِمَهُمَا رَحْمَتَهُ الْبَاقِيَةَ وَاجْعَلْ ذَلِكَ جَزَاءً لِرَحْمَتِهِمَا عَلَيْكَ فِي صَغُرِكَ وَتَرْبِيَّتِهِمَا لَكَ.

وهذه الوصية تشمل شيوخ العلم الأجلاء وكبار السن من المسلمين ويدخل فيهم الأمهات والآباء في الجملة. ويناسب

هنا أن نحذر من معصية عقوق الوالدين لما نرى من حال كثير من الشباب الوقوع في هذه الكسرة.

قال بعض العلماء: «بر الأمهات والآباء بركة في الدنيا والآخرة، ومن أراد أن تكون عاقبته حميدة فليبر أبويه ومن لم يبر

أبويه فعاقبته وخيمة، والعاق لأبويه الذي هذا دأبه ويموت على ذلك الله لا يبارك فيه لا في الدنيا ولا في الآخرة». وقال بعض

الشافعية: «عقوق الوالدين هو ما يتأذى به الوالدان أو أحدهما تأذياً ليس بالهين في العرف».

وقال ﷺ: «رِضَا اللَّهِ فِي رِضَا الْوَالِدَيْنِ، وَسَخَطُ اللَّهِ فِي سَخَطِ الْوَالِدَيْنِ»⁽²⁾. وقال ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ:

الْعَاقُ بَوَالِدَيْهِ، وَالذُّيُوثُ، وَرَجُلَةٌ نَسَاءً»⁽³⁾. وهذا إن لم يتوبوا وأما إن تابوا فقد قال ﷺ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ

لَهُ»⁽⁴⁾.

(1) البر والصلة، ابن الجوزي، (ص43).

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (246/10)، حديث (7449).

(3) المستدرک علی الصحیحین، الحاكم (144/1)، حديث (244).

(4) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1419/2)، حديث (4250).

اللَّهُمَّ ارحم اءاباءنا المسلمين.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «ولاطفِ الأحداث».

الشرح: ذكره رضي الله عنه بوصية عظيمة في تعامله مع غيره ينبغي التخلق بها لا سيَّما فيمن هو بصفة العالم ومن هو محل اقتداء. ومُقَدِّم هذه النصيحة الرحمة والرفق بالغير والتلطف والتودد إليهما سيما إن كان ذلك الغير حديث السن أو صغيراً، فهذا من حُلُق وهدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

ولقد ضرب لنا سيد الخلق محمد ﷺ خير أمثلة في ذلك كيف لا وقد وصفه ربه بقوله: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]. فكان الاقتداء به والتأسي بأخلاقه الكريمة المباركة شرفاً يفتخر به الإنسان.

فقد كان النبي ﷺ شديد الاهتمام بالأطفال ولذلك فقد دعاء إلى تأديبهم وعَرَسِ الأخلاق الكريمة في نفوسهم وحث على رحمتهم والشفقة عليهم فقال ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوقِرْ كَبِيرَنَا»⁽¹⁾، أي: ليس على هدينا الكامل. وكان يوصيهم بالخير ويُعلِّمهم التوحيد والدين فلم يكن رفُّهُ وشَفَقَتُهُ العظيمة عليهم بمِناعةٍ له من نُصَحِهِم وإرشادهم وإصلاحهم، فقد أوصى ابن عباس رضي الله عنهما كما أخرج الترمذي.

وإليك أيها القارئ نماذج جليَّة ومواقف شريفة وأساليب حكيمة من تعامل النبي ﷺ مع الأطفال، وكيف كان تواضعه وخبُّهُ لهم ورحمته بهم وشفقته عليهم.

فمن تلك النماذج المُشْرِقة ما يلي:

- تربيكهم وتحنيكهم:

كان ﷺ يُؤْتِي بالصَّبِيَّانِ فَيُبْرِكُ عَلَيْهِم وَيَحْنِكُهُم⁽²⁾ قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»⁽³⁾: «ومن فوائد هذا الحديث الرفق بالأطفال والصبر على ما يحدث منهم وعدم مؤاخذتهم لعدم تكليفهم».

- السلام عليهم:

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (321/4)، حديث (1919).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (237/1)، حديث (286).

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (434/10).

لقد كان ﷺ على عظيم قدره وعلو منزلته يبدأ الأطفال بالسلام حُبًا ورفقًا بهم وتلطّفًا معهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسَلَّم عليهم⁽¹⁾، وكان أنس يفعلُه ويقول: النبي كان يفعلُه.

- مسحه ﷺ رؤوس الصغار والدعاء لهم:

فن مصعب بن عبد الله قال: عبد الله بن ثعلبة ولد قبل الحجرة بأربع سنين وحمل إلى رسول الله ﷺ فمسح وجهه وبرك عليه عام الفتح⁽²⁾.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يزور الأنصار فيسلم على صبيّانهم ويمسح برؤوسهم ويدعو لهم⁽³⁾.

- ملاحظته للصغار:

وقف بين يديه ذات مرة محمود بن الربيع وهو ابن خمس سنين فمَجَّ ﷺ في وجهه مَجَّةً من ماءٍ من دلوٍ يمازحه بها⁽⁴⁾ فبعدما وضع الماء في فمه الزكي الطيب الطاهر صار مباركًا من فم وريق النبيّ مَجَّةً في وجه محمود على هيئة الملاحظة والمداعبة من غير أدنى إزاء فملاً له قلبه بالفرح والسرور بذلك مع حصول البركة. وفعله ﷺ هذا مع محمود إما مداعبةً منه أو ليبارك عليه بها. قال ابن حجر⁽⁵⁾: «وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم جواز إحضار الصبيان مجالس الحديث وزيارة الإمام أصحابه في دُورهم ومداعبته صبيّانهم»، وفي ذلك أجرٌ وثوابٌ لأنَّه بنية إدخال السرور إلى قلوبهم.

- رحمته ﷺ بهم:

عن أنس قال: «ما رأيت أحدًا كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»⁽⁶⁾.

وعن عبد الله بن مسعود قال: كان النبيّ ﷺ يصليّ فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فإذا أرادوا أن يمنعوها أشار إليهم أن دعوهما فلمّا صلّى وضعهما في حجره ثمّ قال: «مَنْ أَحَبَّنِي فَلْيُحِبِّ هَذَيْنِ»⁽⁷⁾.

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (452/4)، حديث (5202).

(2) المستدرک، الحاكم، (315/3)، حديث (5215).

(3) السنن الكبرى، النسائي، (386/7)، حديث (8291).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (26/1)، حديث (77).

(5) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (173/1).

(6) صحيح مسلم، مسلم، (1808/4)، حديث (2316).

(7) مسند أبي يعلى الموصلي، أبو يعلى، (250/9)، حديث (5368).

- تقبيل النبي ﷺ للصغار:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَبِلَ رسول الله ﷺ الحسن بن عليٍّ وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرةً من الولد ما قَبِلت منه أحدًا، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»⁽¹⁾.
يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح⁽²⁾: «وفي جواب النَّبِيِّ ﷺ للأقرع إشارةٌ إلى أنَّ تقبيل الولد وغيره من الأهل المحارم وغيرهم من الأجانب إنما يكون للشفقة والرحمة».

- حملته ﷺ الأطفال:

عن أبي قتادة الأنصاري أنَّ رسول الله ﷺ كان يصلِّي وهو حاملٌ أمامةً - بنت زينب بنت رسول الله ﷺ وأبي العاص ابن ربيعة بن عبد شمس - فإذا سجد وضعها، وإذا قام حملها⁽³⁾.

- المسابقة بينهم وإكرامهم:

عن كثير بن عبَّاسٍ قال: «كان النَّبِيُّ ﷺ يجمعنا أنا وعبد الله وعبيد الله وقتَّمَا فيفِرِّج يديه هكذا فيمدُّ باعه ويقول: «مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا»⁽⁴⁾.

- مزاحه ﷺ ولا يكون إلا حقًا:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن كان النَّبِيُّ ﷺ ليخالطنا، حتَّى يقول لأخٍ لي صغيرٍ: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النَّعِيرُ»⁽⁵⁾. والنَّعِير طيرٌ كان يلعب به ثم مات.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن في هذا الحديث من وجوه الفقه وفنون الأدب والفائدة ستين وجهًا منها:

- جواز الممازحة وتكرير المزح.

- وأن مازحة الصبي الذي لم يميِّز جائزة.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (7/8)، حديث (5997).

(2) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (430/10).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (109/1)، حديث (516).

(4) مجمع الزوائد، الهيثمي، (263/5).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (30/8)، رقم الحديث (6129).

- ترك التكبر والترفع.
 - التلطف بالصديق صغيراً كان أو كبيراً.
 - جواز تقنية من لم يولد له.
 - جواز لعب الصغير بالطير.
 - جواز ترك الأبوين ولدهما الصغير يلعب بما أتيح اللعب به.
 - معاشره الناس على قدر عقولهم.
 - جواز مواجهته أي الصغير بالخطاب⁽¹⁾.
 - مسح رأس الصغير للملاطفة.
- وقد قال ﷺ: «إِنِّي لَأَمْرُحٌ وَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا»⁽²⁾ على أن ذلك لم يكن عادةً له بل في بعض الأحوال بما فيه فائدة ومصالحة أو تخفيف عن مسلمٍ أو لإدخال السرور إلى قلبه وهو في اقل الحالات.

وفي الختام نتلو عليكم قول الله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 107]، وقوله تعالى: {وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159]، فما أعظمك يا محمد.

وقد رأيت شيخنا الإمام الهرري رضي الله عنه ونحن حوله وقد دخلت عليه ابنته - وكانت في الرابعة من عمرها - فأخذت بيده وقالت: تعال، فقام معها فأخذت بيده إلى الغرفة الثانية، وهذا من عظيم تواضعه وحسن خلقه وملاطفته لابنته الطفلة وهو شيخ الإسلام مجدد عصره إمام مجتهد، لم يتردد في الانقياد لها، وهذا من عظيم تأديبه لنفسه، وعدم الالتفات إلى حظها، فلم يكن فيه شيء من الترفع، وبهذا ترى بعينك معنى حديث رسول الله ﷺ: «فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادًا»⁽³⁾.

وقد كان من عادته رحمه الله ورضي عنه أنه يتبسّم للأطفال ويلطفهم ويوزع لهم بيده نوعاً من الحلوى يسميه السكر الأبيض، ويمسح بيده على رؤوسهم، وأحياناً يحملهم ويقبلهم ويرقيهم، وكان في بعض الأوقات عندما يُقدّم له الطعام يُطعمهم منه.

(1) إذا فهم الخطاب وكان في ذلك فائدة ولو بالتأنيس له، وكذا في تعليمه الحكم الشرعي عند قصد تمرينه عليه من الصغر.

(2) المعجم الصغير، الطبراني، (59/2)، حديث (779).

(3) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (16/1)، حديث (43).

وأذكر ليلةً من الليالي وقد نمنا في بيته وكنا صغاراً استيقظ لصلاة الفجر وصار يُمرّ يده بلطف على خدي: وهو يقول باسم الله باسم الله، فاستفتت وعرفت أنه يريدنا أن نتهيأ للصلاة. كما أنه كان يدور على الأولاد في المدارس والمساجد وقد حضرت معه مرات عديدة في هذه المجالس بعد تدريسه إياهم يلقنهم الطريقة الرفاعية.

ومن شدة اهتمامه وعنايته بالأطفال والأحداث قال له بعض مشايخ بيروت: لماذا تجلس مع هؤلاء الصغار؟ هؤلاء يتعبونك، فقال رضي الله عنه: الصغار يكبرون، وهذا الذي حصل فإن الدعوة المنتشرة اليوم في البقاع والأصقاع يديرها ذكارة ومشايخ وأساتذة ودعاة كانوا قبل ثلاثين سنة أطفالاً فكبروا وصارت الدعوة في أيديهم بعد شيخهم رضي الله عنه وأرضاه.

وهذا من ثمرات الاهتمام بالأطفال أن يحملوا الدعوة ويعملوا على خدمتها في البلاد.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَقَرَّبْ مِنَ الْعَامَّةِ».

الشرح: تواضع وانكسار، رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَتَلَطُّفٌ، هَمَّةٌ عَالِيَةٌ وَمِدَارَةٌ وَمِفْتَاحٌ دَعْوِيٌّ، كُلُّ هَذَا بَلْ وَأَزِيدُ هُوَ مَا يُوَصِّي بِهِ الْإِمَامُ. نعم، فالتقرب من العامة يحملك على هذه الصفات الكريمة، فالتعامل مع العامة يحتاج إلى كثيرٍ عنايةٍ ومراقبةٍ للنفس في أفعالها وتصرفاتها وأقوالها، ودائمًا تحتاج إلى أن تلاحظ الحكمة والحنكة في ذلك كله.

وَالْيَكُ بَعْضُ الْإِرْشَادَاتِ فِي ذَلِكَ:

- التواضع لهم ويكون معيار تقديرك لأي شخص هو دينه فلا تستصغر أحدًا تُفَكِّهُمُ فَتَهْلِكُ، فإنك لا تدري لعله خيرٌ منك وأطوع لله منك، وفي الوقت نفسه لا تنظر إليهم بعين التعظيم في دنياهم ولأجلها فإنّ الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما من فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا أو متعلمًا⁽¹⁾.

- النهي عن الطمع فيهم فتصغر في أعينهم، فلا يكن همك الانتهاال من دنياهم، ولا تطمع فيما في أيديهم من دنياهم، ففي الحديث⁽²⁾: «أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا يُحِبُّكَ اللَّهُ، وَأَزْهَدُ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ».

- النهي عن معادتهم إلا ما كان فيه معصيةٌ لله من أفعالهم ومن ذلك تنظر إليهم بعين الشفقة والرحمة وتعمل على نصحتهم ما استطعت لإخراجهم من المعصية وإرجاعهم إلى الطاعة.

(1) وقد ورد هذا في حديث، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب». سنن الترمذي، الترمذي، (561/4)، حديث (2322). وقال شيخنا الحافظ الهري: «وفي إسناده ضعف».

(2) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1373/2)، حديث (4102).

- النهي عن معاداتهم عند رفضهم مساعدتك في أغراضك الخاصة وأمورك الدنيوية، فلا تدمهم فتكتسب عداوتهم بل تَدَكِّر الإحسانَ والإكرامَ معهم.

- الوعظ: عِظْهُمْ وانصحهم إذا رأيتَ فيهم أثر القبول لئلا يعاديك بعضهم ولا يسمع منك.

يقول ابن الجوزي في «صيد الخاطر»⁽¹⁾ ملخِّصاً هذه المسألة: «ومجالسة العوام فتنة للدين»⁽²⁾ إلا أن يحترز في مجالسهم، ويمنعهم من القول⁽³⁾، فيقول هو، ويكلفهم السماع، ثم يستوفز للبعد عنهم. ولا يَمَكِّن الانقطاع الكلي إلا بقطع الطمع، ولا ينقطع الطمع إلا بالقناعة باليسير، أو يتجر بتجارة، أو أن يكون له عقار يستغله؛ فإنه متى احتاج تشتت الهم ومتى انقطع العالم عن الخُلُق، وقطع طمعه فيهم وتوفر على ذكر الآخرة فذاك الذي ينفع وينتفع به⁽⁴⁾، والله الموفق».

فينبغي للعالم أن لا ينعزل عن العامة بل يخرج إليهم ويعمل على إصلاحهم وتربيتهم وتغيير حالهم فإنه لا يدري من ينقلب عالماً منهم فإنهم مفتاحٌ دعويٌّ لمن عرف كيف يستغله. ويؤكد هذا المعنى ما جاء في قصة نبي الله نوح، فقد دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وما كَلَّ ﷺ مع ما لاقاه من الأذى، ومع ذلك لم يؤمن به إلا نحو ثمانين شخصاً.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَدَارِ الفَجَارِ».

الشرح: أمره رضي الله عنه بحسن الخُلُقِ وذكَّره حبَّ الخير للغير، وقبل البدء ببيان بعض الشرح نوَّدُ طرح بعض الأسئلة

من باب التوعية:

- كيف أتعامل مع المسلم الفاسق؟

- كيف أتعامل مع المؤمن الفاجر؟

- لو رأيتَ غريباً هل تغض الطرف عنه؟

- لو رأيتَ حريقاً هل تتركه؟

- لو شتمك إنسان بم تبادلته؟

(1) صيد الخاطر، ابن الجوزي، (ص354).

(2) أي: لمن انجرف مع من هو غارقٌ منهم في ملاذ الدنيا والعصيان.

(3) أي: القبيح.

(4) أي: الانتفاع الكامل.

- لو كنت أنت الشاتم كيف تحب أن يعاملك الناس؟

أسئلة نتخذها جسراً للخوض في شرح هذه الوصية.

فصَحَّ ورشدًا، تحذِيرٌ وتحويُفٌ، وعظٌّ وذكرٌ بها تكون مداراة الفاجر، لا تعامٍ وانجرارًا، ولا رضًى وتصفيقًا، ولا فرحًا وقبولًا.

وهاك بيانًا لكيفية مراحل التعامل مع الفاجر:

فمن وجد إنسانًا سواؤه كان صديقًا أو غيره على معصية الله فعليه أن ينصحه ويحذِّره الله وعقابه، وهذا واجبٌ حسب القدرة لأنَّه من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن كان للأمر عليه سلطانٌ فليمنعه ولو بالقوة، فإن لم يكن له عليه سلطانٌ وطَمِعَ في استجابة العاصي ورجوعه إلى الصواب فلا يهجره حينئذٍ وليداوم على تذكيره ونصحه بالتي هي أحسن وأقوم لكن بشرط ألا تظهر منه موافقةٌ على باطله ولا مجالسةٌ للإيناس له على فسقه، فإن لم يرتدع ولا تقبل النصح أعلمه أنه مفارق له ومهاجره علَّه يكف عن فسقه. قال ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»⁽¹⁾، أي: أقل ما يلزم الإنسان عند العجز.

وقال ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»⁽²⁾. فمن معاصي البدن هجر المسلم أخاه المسلم فوق ثلاث إذا كان بغير عذرٍ شرعيٍّ، وأما العذر الذي يبيح الهجر فكأن يكون هجره لفسق فيه كترك صلاة أو شرب خمر أو نحو ذلك فإنه يجوز هجره حتى يتوب ولو إلى الممات، ويعلمه سبب الهجر لأجل أن يعود إلى الطاعة. قال الحافظ ابن حجر في الفتح⁽³⁾: «لأن عموم النهي مخصوص بمن لم يكن لهجره سبب مشروع فتبين هنا السبب المسوغ للهجر وهو لمن صدرت منه معصيةٌ فيسوغ لمن اطَّلَعَ عليها منه هجره عليها ليكف عنها».

فاللطف اللطف في التعامل مع الفجار، أخي لو كنت أنت على الفسق وغارقًا في أمواج وظلمات العصيان، ألا تحب أن تبقى يد العون ممدودة لك دائمًا وصدور إخوانك مفتوحةً لك؟ فاعمل بهذا.

اللَّهُمَّ يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللَّهُمَّ يا مصرف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك.

فائدة في الحذر من أهل البدع والأهواء:

(1) صحيح مسلم، مسلم، (69/1)، حديث (78).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (21/8)، حديث (6077).

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (497/10).

إن تنفير الناس من أهل البدع والأهواء واجب. وهنا يناسب أن نبين للناس فنقول: قد ظهر أناس عبر التاريخ ضالون مُضِلُّون شغلوا ليلهم ونهارهم في الرد على كتاب الله تعالى وسُنَّة رسوله ﷺ والطعن بهما أو بالمخاصمة بالتأويلات البعيدة فيهما أو بتسليط رأيهم على ما لا يوافق مذهبهم بالشبهات المخترعة الركيكة حتى يتفق بزعمهم الكتاب والسُنَّة مع مذهبهم وهيئات أن يتم لهم ذلك. قومٌ محرومون مخذولون وعن الخير مصروفون، فهذه حالتهم إذا نشطوا للمحاورة في الكتاب والسُنَّة. قومٌ لم يتدينوا بمعرفة آية من كتاب الله في تلاوةٍ أو درايةٍ ولم يتفكروا في معنى آية، فيعدُّ هؤلاء الجهلة كتاب الله وسُنَّة رسوله حشواً وتقليداً كأمثال المجسمة والمشبهة والوهابية والقدرية والمرجئة والحشوية وغيرهم.

فحث العلماء وأمروا المسلمين بمجانبتهم وهُوَّهم عن مكالمتهم والاستماع إليهم والاختلاط بهم لسلامة دينهم، وشهروا بهم لأجل ما انتحلوه من آرائهم الحديثة ومذاهبهم الخبيثة خوفاً على العامة من مكرهم لئلا يُضِلُّوا مسلماً عن دينه بشبهةٍ وامتحنانٍ أو بزخرفٍ قولٍ من لسان.

فاقتضى ذلك منا التحذير والتنفير من هؤلاء وليس هذا بغيبيةٍ محرمة.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَأَصْحَابِ الْأَخْيَارِ».

الشرح: نصيحةٌ تحوي في طياتها الكثير من المعاني والجليل من أبنكار الفوائد وفي معناها نخوض في شرحها نقول:

إن التشبه بأهل الخير والتقوى والإيمان والطاعة أمرٌ حسنٌ ولهذا يُشرعُ الاقتداء بالنبي ﷺ في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وءادابه وأخلاقه وذلك مقتضى المحبة الصحيحة فإن المرء مع من أحب.

فمما يُراد من صحبة الأخيار إصلاح الأعمال والأحوال والاقتداء بهم في ذلك، والانتقال من الغفلة إلى اليقظة ومن البطالة إلى العمل ومن الشبهات إلى الورع ومعرفة النفس وءافاتها؛ فالجليس الصالح يأمر بالخير وينهاك عن الشرِّ ويسمعك العلم النافع والقول الصادق والحكمة البليغة ويذكرك نَعَمَ الله عليك وءالءه ويعرِّقك عيوبَ نفسك ويشغلك عما لا يعينك. وإن كان قادراً سدَّ خَلَّتَكَ⁽¹⁾ وقضى حاجتك، إن ذكَّرتَه بالله رجا ثوابه وإن خوَّفْتَه من عذابه ترك الإساءة. يجهد نفسه في تعليمك وإصلاحك إذا غفلت عن ذكر الله وإذا أهملت أنذك.

(1) أي: حاجتك.

فالجلس الصالح لا تملُّ قُرْبُهُ، تُسرُّ بحديثه إذا حضر، يشهد معك مجالس العلم وحلق الذكر وبيوت العبادة، ويشجِّعك على الطاعة ويُثبِّرك من المعصية، ولا يزال ينفعك حتى يكون كبايع المسك وأنت المجلس أو المشتري.

المجلس الصالح إذا صحبته زانك، وإذا خدمته صانك، وإذا أصابتك فاقَّة أعانك إن قدر، وإذا رأى منك حسنةً عدَّها وإذا رأى سبئةً كتمها وسترها ونصحك.

المجلس الصالح هو من خير مكاسب الدنيا، زينة في الرِّخاء، وعُدَّة في الشدة، ومعوذة على المعاش والمعاد، فلا تصحب من إذا حدَّثك كذَّب، وإذا ائتمنته خانك، وإذا ائتمنتك أهَمَّك.

أخي الحبيب، إن في مصاحبة الصالحين ثمراتٍ منها:

- أنت مع من أحببت: فقد أخرج البخاري⁽¹⁾ عن أنسٍ أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن الساعة قال: «وَمَاذَا أَعَدَدْتَ لَهَا»، قال: لا شيء إلا أني أحبُّ الله ورسوله، فقال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ». قال أنس: فأنا أحب النبي وأبا بكرٍ وعمر، وأرجو أن أكون معهم بخيِّ إياهم.

- الانتفاع بدعائهم بظهر الغيب: فشتان بين من يقول: ربنا اغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غملاً للذين ءامنوا ربنا إنك رؤوف رحيم، وبين من يتخاصمون في الدنيا ثم في نار جهنم، قال تعالى حكايةً عن الكفار الأعداء: {كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا} [الأعراف: 38].

- محبة الله: ففي الحديث القدسي⁽²⁾: «وَجِبَتْ⁽³⁾ لِمَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيِّ وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيِّ وَالْمُتَبَادِلِينَ فِيِّ وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيِّ».

وفي الحديث الشريف⁽⁴⁾: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَالَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ»، الحديث. وهذه المحبة الصادقة الصافية في الله سببٌ لعلو المنزلة ورفعة الدرجة يوم القيامة،

(1) صحيح البخاري، البخاري، (12/5)، حديث (3688).

(2) المستدرک علی الصحیحین، الحاکم، (186/4)، حديث (7314).

(3) أي: ثبتت، وليس معناه الوجوب الذي تقول به المعتزلة خذلهم الله، فقولهم باطل، إذ لا يجب على الله شيء ألبتة.

(4) صحيح البخاري، البخاري، (12/1)، حديث (16).

ففي حديث⁽¹⁾ السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله: «وَرَجُلَانِ تَحَابَّتَا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ».

- بركة المجالس والخير الذي يعم: فقد جاء في الحديث⁽²⁾ الطويل في فضل مجالس الذكر: «فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: يَا رَبِّ، إِنَّ فِيهِمْ فَلَانًا لَيْسَ مِنْهُمْ، إِذَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، يَقُولُ اللَّهُ لِلْمَلَائِكَةِ: هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى جَلِيسُهُمْ».

- التأثير بهم: ففي الحديث⁽³⁾: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ⁽⁴⁾، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُحَالِلُ». فالصداقة المتينة والصحة الصالحة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة، فإذا كان الأمر كذلك فحري باللبيب أن يبحث عن إخوانٍ ثقاتٍ حتى يُعينوه على كل خيرٍ، ويقصروه عن كل شرٍّ.

وقد صدق الناس في قولهم: «الصاحب صاحب إما إلى الرقي وإما إلى الحضيض»، وقولهم: «الصاحب صاحبٌ إما إلى الجنة وإما إلى النار»، فهو من الكلام الحسن الذي تقوله العامة وليس حديثًا مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

فهنيئًا لمن وجد جليسًا وصديقًا صالحًا، فإنه في هذه الأزمنة من أندر النادر، فيا فوز ويا سعد من حصّله فلزمه وانتفع به وعمل بهديه.

فابحث عن الجليس الصالح، واهجر الفاسق فإنه خرابٌ وقد يودي بك إلى الضلال والمهلك والعواقب الوخيمة. وفي الختام نذكركم بقوله تعالى: {الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} * يَا عِبَادِ لَا حَوفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ { [الزخرف: 67، 68]، فماذا بعد قول الله ورسوله ﷺ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَتَهَاوَنُ بِالسُّلْطَانِ».

الشرح: إن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه صاحبٌ ذهنٍ متقدّم، ورؤيةً حكيميةً فبعد أن دلّه على كيفية التعامل مع العلماء والعامة والفجار انتقل إلى نصيحة ذات أهمية كبيرة محورها التعامل مع السلطان، وهو أمرٌ يحتاج إلى عنايةٍ شديدة.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (133/1)، حديث (660).
(2) صحيح البخاري، البخاري، (86/8)، حديث (6408).
(3) سنن الترمذي، الترمذي، (589/4)، حديث (2378).
(4) أي: على سيرته وعاداته أي غالبًا ما يتأثر به.

فالبداية مع ما رواه مسلم في الصحيح⁽¹⁾ عن تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم».

وقد قال بعض الشراح في قول النبي ﷺ: «ولأئمة المسلمين وعامتهم»: «هم الخلفاء ونوابهم بطاعتهم فيما يوافق الحق كالصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم إن طلبوها أو كانوا عادلين، وترك الخروج عليهم وإن جاروا، والدعاء بالصلاح لهم، ومعاونتهم على ترك الظلم، وتنبههم وتذكيرهم بالله وأحكامه وحكمه ومواعظه لكن برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه أو لم يبلغهم من حقوق المسلمين وتأليف قلوب الناس لطاعتهم وعدم إغرائهم بالثناء الكاذب عليهم».

وعن عياض بن غنم الأشري قال: قال رسول الله ﷺ⁽²⁾: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُكَلِّمُهُ بِهَا عَلَانِيَةً، وَلِيَأْخُذَ بِيَدِهِ، وَلِيُخَلِّ بِهٖ، فَإِنْ قَبَلَهَا قَبَلَهَا، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ وَالَّذِي لَهُ».

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما: قال: قيل له: ألا تدخل على عثمان فتكلمه؟ فقال: أترون أي لا أكلمه إلا أُسْمِعُكُمْ؟ والله لقد كلمته فيما بيني وبينه ما دون أن أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من فتّحه⁽³⁾.

قال النووي رحمه الله موضحًا قصد أسامة رضي الله عنه قوله: «أفتتح أمرًا لا أحب أن أكون أول من افتتحه» ما نصه⁽⁴⁾: «يعني المجاهرة بالإنكار على الأمراء في الملأ كما جرى لقتلة عثمان رضي الله عنه، وفيه الأدب مع الأمراء واللطف بهم، ووعظهم سرًا».

وقال القاض عياض في «الإكمال»⁽⁵⁾ ما نصه: «يعني في المجاهرة بالنكير والقيام بذلك على الأمراء، وما يُخشى من سوء عقابه»، ثم قال: «وفيه التلطف مع الأمراء، وعرض ما ينكر عليهم سرًا».

فيختار الكلام مع السلطان في الخلوة على الكلام معه على رؤوس الأشهاد وذلك عند التماس أثر القبول منه والمصلحة في ذلك ولم تدع الحاجة إلى الجهر.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (74/1)، حديث (95).

(2) المستدرک، الحاكم، (329/3)، حديث (5269).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (2290/4)، حديث (2989).

(4) شرح صحيح مسلم، النووي، (118/18).

(5) إكمال المعلم، القاضي عياض، (538/8).

ويناسب هنا ذكر مسألة الخروج على الإمام ومبايعته، فنقول وبالله العصمة: يحرم الخروج على الخليفة ومن يقوم مقامه، فقتاله حرام وإن كان جائراً لما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء، وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقاءه، ولأننا تحت طاعته في أمره ونهيهِ ما لم يخالف حكم الشرع. أما لو طرأ على وليّ الأمر كفر فإنه يخرج عن حكم الولاية وتسقط طاعته ويجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمامٍ عادلٍ إن أمكنهم ذلك⁽¹⁾.

تنبيه: الطاعة التي أمر الله بها المؤمنين لأولي الأمر هي الطاعة في طاعة الله ليس في معصية الله. فقد روى مسلم في صحيحه⁽²⁾

أن عبد الرحمن ابن عبد الكعبة قال لعبد الله بن عمرو بن العاص: إن ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ونقتل أنفسنا وقال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا } [النساء: 29]. فسكت عبد الله بن عمرو ساعة ثم قال: أطيعه في طاعة الله واعصه في معصية الله.

تحذير مهم: إن مما ابْتُلِيَ به الأمة المحمدية على رسولها أفضل الصلاة والسلام جماعة سمو أنفسهم حزب التحرير⁽³⁾، فمن جملة تحريفاتهم أنهم يقولون: إن الذي يكون في زمن ليس فيه خليفة كهذا الزمن إذا مات تكون ميتهته ميتة جاهلية، مع إيهامهم أن ذلك لمن لم يتكلم معهم في أمر الخليفة كما هم يتكلمون بألسنتهم.

يقال لهم: إنَّ هذا الحديث الذي تحتجون به - وهو حديث مسلم⁽⁴⁾ والذي فيه: «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنْ طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حُجَّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» - قد حرّفتموه، حيث إنكم تذكرون للناس الجملة الأخيرة منه فقط وتكرّرونها، ومعنى الحديث ليس كما يزعمون، وإنما معناه أن الذي يتمرد على الخليفة ويتركه بالخروج عن طاعته ويستتر على ذلك إلى الممات تكون ميتهته ميتة جاهلية، وليس معناه أنه يموت على الكفر بل هذا تشبيه بميتهته عبّاد الأوثان، فلعظم ذنبه شُبّه بميتهته أولئك.

(1) شرح صحيح مسلم، النووي، (229/12).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1472/3)، حديث (1844).

(3) أسسه تقي الدين النبهاني، ادعى الاجتهاد وخاض في الدين بجهل فخرق الإجماع في مسائل في أصول الدين وفروعه. يدّعي أنّ أفعال الإنسان الاختيارية لا دخل لقضاء الله بها، ويوجب على المسلمين مع عجزهم إقامة خليفة وغير ذلك من الضلالات.

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1478/3)، حديث (1851).

ويدل على ذلك حديث البخاري⁽¹⁾ عن ابن عباس عن النبي ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِرًّا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً».

فلنتظر التحريرية إلى قوله ﷺ: «فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِرًّا فَمَاتَ»، فإنه صريح في أن الذي يموت ميتة جاهلية هو الذي يأتيه الموت وهو متمرّد على السلطان. ويدل عليه أيضًا حديث⁽²⁾ أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ عَنِ الطَّاعَةِ، وَفَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ، مَاتَ مَيِّتَةً جَاهِلِيَّةً»، وخير ما يفسر به الحديث الحديث، فهذه الأحاديث الثلاثة كلها تعني أن الذي يموت متمرّدًا على طاعة الخليفة مع قيام الخليفة هو الذي يموت ميتة جاهلية، وليس الذي يموت ميتة جاهلية المسلم الذي يموت في زمنٍ ليس فيه جماعة ولا إمام للمسلمين كما زعمت جماعة حز التحرير بدليل حديث حذيفة بن اليمان الذي رواه البخاري⁽³⁾ ومسلم⁽⁴⁾ أن حذيفة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام، قال: «فَاعْتَرَلْ تِلْكَ الْفِرْقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعْضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

ثم إن محاولتكم أيها التحريرية تطبيق حديث ابن عمر على المسلمين في هذا الوقت محاولة صعبة، فاتقوا الله، فما ذنب المسلمين في هذا الزمن الذي لا يستطيعون فيه أن ينصبوا خليفة والله تعالى يقول: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 286]. فكلامكم هذا مؤداه أن الأمة الإسلامية اليوم ءاثمون ويستثنى منهم جماعتكم فقط والعياذ بالله تعالى.

ولهذه الفرقة ضلالات أخرى منها أنهم يزعمون أنه يجوز عزل خليفة المسلمين بالفسق، حيث قالوا: إن مجلس الشورى له حق أن يعزل الخليفة بسببٍ أو بدون سبب⁽⁵⁾.

الرد: هذا الكلام مخالف لأحاديث تؤكد أمر الخليفة، فهو يخالف الحديث المار: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ»، والحديث، والحديث المار: «وَأَنْ لَا تُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ، إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا».

قال النووي في شرح الحديث⁽⁶⁾: «ومعنى الحديث: لا تنازعوا ولاية الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرًا محققًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيث ما كنتم. وأما الخروج عليهم وقتالهم

(1) صحيح البخاري، البخاري، (47/9)، حديث (7054).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1476/3)، حديث (1848).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (51/9)، حديث (7084).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1475/3)، حديث (1847).

(5) دستور حزب التحرير، (ص66).

(6) شرح صحيح مسلم، النووي، (229/12).

فحرام بإجماع المسلمين⁽¹⁾ وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته وأجمع أهل السُّنَّة أنه لا ينزول السلطان بالفسق».

وهؤلاء التحيرية جعلوا الخليفة ملعبة كالكرة بين أيدي اللاعبين، فالخليفة لا يُقلع بالمعصية لكن لا يطاع فيها، وإن كان يأمر بالخير والشر مهما فسق لا يرفع عليه سلاح لأن الفتنة التي تتسبب عن خلعه أعظم من المعصية.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَلَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا يَقْصِدُكَ».

الشرح: الكلام في هذه النصيحة من جانبين:

- إغاثة الملهوف، وقد أشار إليها الإمام رضي الله عنه بقوله: «يقصدك».
 - عدم التكبر على عباد الله المعبر عنها في كلام الإمام رضي الله عنه بقوله: «لا تحقرنَّ أحدًا».
- أما الأولى فستكلم عليها ههنا باختصار لنبسط الأمر إن شاء الله فيما بعد عند قول الإمام رضي الله عنه: «وأكرم من أتاك».

يقول النبي ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ (2) إِلَى اللَّهِ سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تُطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا»⁽³⁾.

إن إغاثة الملهوف ومساعدة المكروب وإعانة أهل الحاجات عمل إسلامي رفيع وخُلُق نبوي قديم تقتضيه الأخوة الصادقة وتدفع إليه المروءة ومكارم الأخلاق. فهذا الملهوف لم قصدك وطرق بابك دون غيرك؟ أليس لأنه يرجو الخير منك ويحسن ظنه بك فتجيبه، فينبغي أن لا تحببه ولا ترده صفر اليدين، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أكرم الناس عليّ جليسي الذي يتخطى الناس حتى يجلس إليّ، ولو استطعت أن لا يقع الذباب على وجهه لفعلت⁽⁴⁾.

وقد كانت حياة نبيِّنا محمد ﷺ خير مثال يحتذى به في كل شيء ولا سيما إغاثة الملهوف وتقديم العون لكل من يحتاج إليه.

(1) وهذا الموافق لظاهر النصوص الواردة في هذه القضية، وأما من خالف في ذلك كبعض الحنفية أو بعض الشافعية فقال: «إنه قول الجمهور» فهذا على حسب رأيهم، ولم يفهموا أنه معارضٌ للنصوص الواردة في هذه القضية. والمسألة فيها تفصيل واسع يطلب من مصادره.

(2) أي: من أحبها إلى الله عزَّ وجلَّ.

(3) المعجم الصغير، الطبراني، (106/2)، حديث (861).

(4) مختصر تاريخ دمشق، ابن منظور، (327/12).

فما أغلاها من فرصةٍ وما أعلاها من درجةٍ وما أسعد من اصطفاه الله لمنفعة الناس ببشارة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام حيث قال: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»⁽¹⁾. وفي الحديث دليل على جواز الاستعانة بغير الله.

وما أهنأهم من بين أهل المواقف وما أريح سعيهم في ذلك اليوم، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُظِلَّهُ اللَّهُ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»⁽²⁾ فَأَلْبَسَ عَلَى مُعْسِرٍ أَوْ لَبِضَعَ عَنْهُ»⁽³⁾.

وأما النصيحة الثانية فنقول:

من معاصي القلب - التي هي من الكبائر - التكبر على عباد الله، وهو رد الحق على قائله مع العلم بأن الصواب مع القائل لنحو كون القائل صغير السن فيستعظم أن يرجع إلى الحق من أجل أن قائله صغير السن، أو لأنه من الخاملين - أي: غير المشهورين - والمرود عليه من المشهورين البارزين ونحو ذلك.

واستحقاق الناس أي الازدراء بهم كان يتكبر على الفقير وينظر إليه نظر احتقار، أو يعرض عنه، أو يترفع عليه في الخطاب. وقد نهي الله عباده عن التكبر، قال الله تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} [لقمان: 18]، أي: ولا تعرض عنهم متكبراً، والمعنى أقبل على الناس بوجهك متواضعاً ولا تولهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبرون. {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} [لقمان: 18] أي: ولا تمش لأجل المرح والأشر، أي: لا تمش مشية الكبر والفخر.

وروى مسلم⁽⁴⁾ من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ».

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْبِبْنِي مِسْكِينًا⁽⁵⁾ وَأَمْتِنِي مِسْكِينًا وَأَحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽⁶⁾.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (2074/4)، حديث (2699).

(2) أي: ظلُّ عرشه، وليس معناه أن الله له ظلٌّ، تعالى الله عن ذلك.

(3) المعجم الكبير، الطبراني، (304/1)، حديث (899).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (2198/4)، حديث (2865).

وروى مسلم⁽¹⁾ أن رسول الله ﷺ قال: «وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ».

وقال بعض الأكابر: «كن أرضاً تكن لله أرضى».

وقد ورد في الحديث الذي رواه البخاري في «الأدب المفرد»⁽²⁾ بأن المتكبرين يُحْشَرُونَ يوم القيامة كأمثال الذر أي النمل

الأحمر الصغير، يطوهم الناس بأقدامهم.

وقال سيدنا علي رضي الله عنه: «ما لابن آدم والفخر أوله نطفة وءاخره جيفة». والجيفة هي الجسم الذي لا روح فيه.

إِنَّ التَّوَاضَعَ مِنْ خِصَالِ الْمُتَّقِي

وَبِهِ التَّقِيُّ إِلَى الْمَعَالِي يَرْتَقِي

وقد روى الحافظ ابن حجر في الأمالي بإسناد حسن أن رسول الله ﷺ قال⁽³⁾: «إِنَّكُمْ لَتَغْفُلُونَ عَنْ أَفْضَلِ الْعِبَادَةِ

التَّوَاضُعُ». ومعنى الحديث أن التواضع من أعظم العبادات عند الله، فالتواضع مطلوب مع الكبار والصغار والأغنياء والفقراء لوجه

الله، وهو يدعو للتألف.

وأما التكبر فهو مذموم في وجه المؤمن وغير المؤمن لأن الأنبياء لما دعوا الكفار إلى الدين ما كانوا متكبرين عليهم، لأنهم

لو كانوا متكبرين في وجوه الكفار لنفروا منهم، فطوبى لمن اعتبر.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَقْصِرَنَّ فِي إِقَامَةِ مَوَدَّتِكَ إِيَّاهُمْ».

الشرح: قد شمل كلام الإمام ضمن طيَّاته هذه النصيحة، فهي تُفهم من عدة نصائح تقدمت وقد بسطنا الكلام قبل

وشرحناه، ولكن لما كانت لهذه النصيحة مزية أكَّده الإمام وحرص على الالتزام والتخلُّق بها، فمن الآداب التي تتقوى بها أواصل

الألفة والمحبة والأخوة في الله:

(5) أي: متواضعاً.

(6) سنن الترمذي، الترمذي، (577/4)، حديث (2352).

(1) صحيح مسلم، مسلم، (2001/4)، حديث (2588).

(2) الأدب المفرد، البخاري، (ص196)، حديث (557).

(3) الأمالي، ابن حجر العسقلاني، (ص96).

- أن يتجنب الشخصُ الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة، وأن يراعي حقوق الأخوة، فعن أبي هريرة⁽¹⁾ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قبي: ما هُنَّ يا رسول الله؟، قَالَ: «إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّنْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

- أن يتلطف بالنصح له، قال الله تعالى: {وَالْعَصْرُ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 - 3].

وروي عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال⁽²⁾: «مَنْ وَعَظَ أَخَاهُ سِرًّا فَقَدْ زَانَهُ، وَمَنْ وَعَظَهُ عَلَانِيَةً فَقَدْ شَانَهُ». وذلك إذا كانت المصلحة تتحقق بالسر وكانت النصيحة في العلن تؤدي إلى مفسدة.

- المشاركة الوجدانية: وذلك بالتواصل والتزاور في الله ومشاركته أفراحه وأتراحه وإظهار الحرص عليه فيفرح لفرح ويحزن لحزنه، يسأل عنه إن غاب ويتفقد أحواله، فإن كان مريضاً عاداه أو كان ناسياً ذكَّره، يرحب به إذا دنا ويوسع له إذا جلس، ويصغي إليه إذا تحدث، ويواسيه بماله إذا احتاج إليه، ويعينه على قضاء حاجته، ويؤثره على نفسه ولو كان به خصاصة.

- أن يسمعه من الكلام الطيب ما يحب، فلا يؤذيه بكلامٍ قبيحٍ وإن كان مازحاً بل يثني عليه ويدعوه بأحب أسمائه إليه، ويخبره أنه يحبه في الله وذلك من أسباب تقوية العلاقة بينهما وتمكين هذه المحبة وزيادتها، فعن أنس رضي الله عنه قال: مرَّ بالنبي ﷺ رجلٌ، فقال رجلٌ: إني لأحبه في الله عز وجل. فقال النبي ﷺ: «أَأَعْلَمْتَهُ؟» قال: لا. قال: «فَأَعْلَمْتَهُ». قال: فلقيت الرجلَ فأعلمته. فقال: أحبك الله الذي أحببتي له⁽³⁾.

- ويستقبله بالبشاشة والابتسامة الحنون التي تترك أثرها الطيب في القلب مع احتساب الأجر، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ».

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1705/4)، حديث (2162).

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (104/10)، حديث (7235).

(3) المستدرک، الحاكم، (189/4)، حديث (7321).

وَأَرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ⁽¹⁾، وَبَصْرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصِيرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشُّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلُوكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ⁽²⁾.

- أن لا يحاول التطلع إلى خباياه وأموره الخاصة ليستكشف أسراره، فلا ينبغي للمؤمن أن يتحسس أو يتحسس ولا يجادل في باطل ولا يسيء الظن ولا يفتاب ولا يكثر العتاب فيمله ولا يلح عليه في السؤال فيحرجه. فعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قَبْلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِصَاعَةَ الْمَالِ»⁽³⁾.

- أن لا يحقر ولا يهزا ولا يطعن ولا يلعن فإن هذا ليس من صفات المؤمن الكامل وذلك إن فعل هذه الأشياء لغير سبب شرعي. فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِالطَّعَّانِ وَلَا اللَّعَّانِ وَلَا الْفَاحِشِ وَلَا الْبَدِيءِ»⁽⁴⁾. فيكف عنه لسانه فلا يذكر له عيباً في غيبته أو حضوره، ويشكره إن أحسن، ويكظم غيظه إن أساء. وأن يتعد عن الغيبة والنميمة والقذف، وعن النفاق والرياء والحقد والحسد، وأن يحسن الظن، ويستتر العيوب، ويعفو عن الزلات، ويتغاضى عن المفوات مع النصيح. فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «إِنَّ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَوْلَاءَ بَوَجْهِ، وَهَوْلَاءَ بَوَجْهِ»⁽⁵⁾.

- الهدية مع عدم التكلف، فقد قال الصادق المصدوق ﷺ: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا»⁽⁶⁾.
 - حفظ وقت الأخ في الله والحرص على عدم إضاعته، وذلك بمراعاة أوقات الزيارة والاتصال لِيُعِينَهُ عَلَى قَضَاءِ حَاجَاتِهِ الْخَاصَّةِ، فلا يخرجه مع أهل بيته أو يشغله بغير ضرورة، وخاصةً إذا كان عالماً أو طالباً للعلم.
 - الوفاء وحسن العهد، وإظهار الحرص عليه، والدفاع عنه إذا اقتضت الضرورة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الْمُؤْمِنُ مِرْءَاةُ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ».

(1) أي: إن كان ضائعاً في الطرقات.

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (339/4)، حديث (1956)، صحيح ابن حبان، ابن حبان، (287/2)، حديث (529).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (120/3)، حديث (2408).

(4) سنن الترمذي، الترمذي، (350/4)، حديث (1977).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (71/9)، حديث (7179).

(6) شعب الإيمان، البيهقي، (301/11)، حديث (8568).

- التروي والنظر في عواقب الأمور، والحذر من الشهوات والشبهات والفتن والمعاصي وتقلب القلوب، فقد كان من دعاء رسول الله ﷺ: «يَا مُثَبِّتِ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ»⁽¹⁾. وعن أنس⁽²⁾ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جمعت به فهل تخاف علينا؟ قال: «نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». والحديث لا بد له من تأويل إذ حمله على الظاهر يُضَادُّ الدِّينَ فَإِنَّ الْجَارِحَةَ فِي حَقِّهِ تَعَالَى مُسْتَحِيلَةٌ. والمعنى: إِنَّ الْقُلُوبَ مِلْكُهُ وَتَحْتَ مَشِيئَتِهِ، يَقَلِّبُ الْقُلُوبَ كَيْفَ يَشَاءُ، هُوَ مُتَصَرِّفٌ بِهَا، وَلَيْسَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَهُ أَصَابِعُ الَّتِي هِيَ جَوَارِحُ.

- الدعاء له بخير ولمن يحب حيًّا أو ميتًّا، قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10]. وقال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلِ»⁽³⁾.

أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَنَا عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَعَ الْمُتَحَابِّينَ بِجَلَالِهِ إِنَّهُ عَلَى مَا نَسَأَلُهُ قَدِيرٌ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَخْرُجَنَّ سِرِّكَ إِلَى أَحَدٍ».

الشرح: قال أبو حاتم بن حبان⁽⁴⁾: من حصَّن بالكتمان سره تم له تدبيره وكان له الظفر بما يريد والسلامة من العيب والضرر، والحازم يجعل سره في وعاء ويكتمه عن كل مستودع، فإن اضطره الأمر وغلبه أودعه العاقل الناصح له، لأن السر أمانة وإفشاءه خيانة. والقلب له وعاءه، فمن الأوعية ما يضيق بما يودع ومنها ما يتسع لما استودع. وقال بعضهم: «كتمانك سرّك يعقبك السلامة، وإفشاءك سرّك يعقبك الندامة، والصبر على كتمان السرّ أيسر من الندم على إفشاءه».

وروي عن الراغب الأصفهاني: «إذاعة السر من قلة الصبر وضيق الصدر وتوصف به ضعفة الرجال والصبيان والنساء».

وعن المدائني قال: «كان يقال: أصبر الناس⁽⁵⁾ الذي لا يُفشي سرّه إلى صديقه مخافة أن يقع بينهما شيء فيفشي».

(1) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (72/1)، حديث (199).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (448/4)، حديث (2140).

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (89/2)، حديث (1534).

(4) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، (ص189).

وقال بعضهم: «ما أقبح الإنسان أن يخاف على ما في يده من اللصوص فيخفيه ويُكِنِّ عدوه من نفسه بإظهار ما في قلبه من سر نفسه وسر أخيه ومن عجز عن تقويم أمره، فلا يلومن إلا نفسه عن لم يستقم له».

وقيل في ما مضى: «كان يقال أملك الناس لنفسه⁽¹⁾ من كتم سره من صديقه وخليله». قال أبو عبيدة معلماً على هذا القول: «أحسب ذلك للنظر في العاقبة ألا يتغير الذي بينهما يوماً ما فيفشي سره».

وينسب للماوردي أنه قال: «وكم من إظهار سرِّ أراق دم صاحبه ومنع من نيل مطالبه، ولو كتمه كان من سطوته ءامناً وفي عواقبه سالمًا ولنجاح حوائجه راجياً».

وروي عن أكنم بن صيفي قال: «إن سرك من دمك فانظر أين تريقه».

وعن الأعمش: «يضيق صدر أحدهم بسرّه حتى يحدث به ثم يقول: أكنمه علي».

وقال الإمام الهري: «وقد صدق من قال: صدور الأحرار قبور الأسرار».

ونختم بقول الشاعر:

لا تفش سرًّا إلا عدو ذي ثقة

أو لا فأفضل ما استودعت أسراراً

صدرًا رحيبًا وقلبًا واسعًا صمتا

لم تخش منه ما استودعت إظهاراً

تحذير: إن الإنسان الذي اطلع على سر مسلم وكان في إفشائه لحوق ضررٍ فأفشاه حرّم ذلك لإلحاقه الضرر بالمسلم ولما قد يجر من الفساد والإيذاء، وربما أدى إلى إراقة الدماء وحصول المفسدة بين الناس وما يتبع ذلك من الخراب. فليثق الله امرؤ عرف سرَّ أخيه من صديقٍ وصاحبٍ، وليكتمه عليه، ولا يعمل على إشاعته وإذاعته لئلا يكون سببًا في هلاكه.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تثقن بصحبة أحدٍ حتى تمتحنه».

(5) أي: من أصبرهم.

(1) أي: من أملكهم.

الشرح: إن أبا حنيفة رضي الله عنه رأس أئمة أهل الرأي في زمانه وعالمٌ كبيرٌ بالأصول وبمناسبة هذا نقول إن هذه

النصيحة هي من المطلق المقيد وبيان ذلك سيأتي.

ففي شرح هذه النصيحة لنا وجهان:

أما الأول: فإن الإنسان قد يصحب في حياته من عرف منه الخير ومن لم يخبره بعد. وكلام الإمام رضي الله عنه لا يُحمل

على الأول أي: من قد سبق لك معرفة به وخبرت حاله من تقوى وصلاح والتزام؛ بل يُنزّل على الثاني وهو من لم تخبره بعد، ولهذا

النصيحة حكم وفوائد منها:

- أنه سيصير هذا الإنسان مستودع أسرارك.

- أنه ستدخله بيتك.

- أنه سيجالس أهلك.

- أنه سيصير خليلك.

فتخيل معي لو ظهر لك منه فيما بعد خبث، أو بعد ذلك تبينت فسقه ومكره وخداعه فلات ساعة مندم، فلا سرُّك

يبقى سرًّا ولا عوراتك تبقى محفوظة في الغالب. هذا إن لم تتغير أنت بصحبة هذا الإنسان، فالمرء على دين خليله، أي: سيرته

وعادته.

وهنا تنبيه: احذر أيها المطالع من أن تفهم كلام الإمام على غير وجهه، فليس المراد أن تسيء الظن بالمسلمين وتضمّر

العداوة لمن لا تعرف منهم، فديننا الإسلام يدعو إلى تحسين الظن والابتعاد كل البعد عن سوء الظن بهم، فسرائر الناس ودواخلهم

لا يعلمها إلا الله فهي غيب عنا، قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ } [الحجرات:

12].

فسوء الظن يؤدي إلى الخصومات والعداوات وقطع الصلات. قال الله تعالى: { وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ

وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا } [النجم: 28]. وفي الحديث⁽¹⁾: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ».

فكم أوقع سوء الظن السيئ من فراق بين المتحابين وقطيعة بين المتواصلين.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (4/4).

ومما يؤكد أن الإمام لم يرد بذلك إساءة الظن بالمسلمين أنه سيقول فيما بعد: «وأظهر التودُّد إلى الناس ما استطعت، وأفشِ السلام، ولو على قومٍ لئامٍ». وقال في نصيحته ليعقوب تلميذه: «ولا تستخف بالناس ووقر نفسك ووقرهم».

والوجه الثاني: أن كلام الإمام محمولٌ على الأكمل والأحسن لا الحُرمة وعدم الجواز، فيكون حينئذٍ هذا الكلام كما ورد في الحديث: «لَا تُصَاحِبِ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا»⁽¹⁾.

فكما لا يُفهم من الحديث تحريم صحبة غير المؤمن وإنما الأحسن والأولى والأكمل أن تصاحب المؤمن الصالح كذلك يحمل كلام الإمام على الاختيار قبل الاختيار.

فاختبر وتحقق وسل قبل الإقدام على اختيار الصديق فإنك إن أجدت في اختيارك تكون اتخذت لنفسك كنزًا وإلا فقد تكون عاقبتك وخيمة، فاختيار الصحبة سيف ذو حدين.

فكم من إنسانٍ كان على الخير والصدق والأمانة وحسن الخلق وملازمة الشريعة ثم تغيَّر حاله من الحسن إلى السيئ، من الطيب إلى الخبيث، ومن الصالح إلى الطالح بسبب جليس السوء والصاحب الخبيث والصديق الفاجر والخليل الجهول، فبدل أن يجرهم إلى الخير جزَّوه إلى الشر، فابحث عن صديق يدلك على ما ينفعك ويرفعك في الدنيا والآخرة، وحافظ على صحبته لو بذلت في ذلك كل أموالك، واحذر من أكثر الناس اليوم إذ مصاحبتهم في الغالب خسارة وندامة.

ولقد قيل:

إِذَا الْمَرءُ لَا يَرَعَاكَ إِلَّا تَكَلَّفَا
فَدَعَاهُ وَلَا تُكْثِرْ عَلَيْهِ التَّاسُّفَا
فَفِي النَّاسِ أَبْدَالٌ وَفِي النَّزْكِ رَاحَةٌ
وَفِي الْقَلْبِ صَبْرٌ لِلْحَبِيبِ وَلَوْ جَفَا
فَمَا كُلُّ مَنْ تَمَّوَاهُ يَهْوَاكَ قَلْبُهُ
وَلَا كُلُّ مَنْ صَافَيْتَهُ لَكَ قَدْ صَافَا
إِذَا لَمْ يَكُنْ صَفْوُ الْوُدَادِ طَبِيعَةً
فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَجِيءُ تَكَلُّفَا

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (600/4)، حديث (2395).

ولا خير في خـلٍ يـخـلـون خـلـيـهـ

ويلقاه من بعد المودة بالجفا

ويُنكر عيْشًا قد تقادم عهده

ويُظهِرُ سِرًّا كان بالأُمسِ قد خفا

سَلامٌ على الدُّنيا إذا لم يكن بها

صديقٌ صادقٌ صادقٌ الوعدِ مُنصفا

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تُخادِمَ خَسيسًا، ولا ضيعًا».

الشرح: يدخل هذا في علاقة العالم بغيره واتصاله مع الناس والخلطة بهم، فبعد أن أجمل الإمام كلامه في معاونة الغير، والإحسان إليهم، وتفريج كربهم، وتفريج قلبهم، والتلطف بهم، وإغاثتهم، ومتابعة أخبارهم وأحوالهم، بدأ الإمام بالتفصيل في كيفية التعامل مع أصناف الناس لما في ذلك من المحافظة على هدف تلميذه يوسف وهو نشر الدين وجمع الناس على الطاعة والخير، والكلام في هذه النصيحة هو على الخدم.

فقسم الإمام الخدم قسمين: خدم خسيس وضيع، وخدم متواضع مترفع عن الخسة والوضاعة.

وحذر رضي الله عنه من الخادم الخسيس فقال: «ولا تخادِم» أي: لا تتخذ خادِمًا. وليس مراد الإمام بذلك التكبر عليهم، وعدم الإحسان إليهم، وترك الشفقة في التعامل معهم، وأن ينظر إليهم نظرة نقص وازدراء وفوقية، وأن لا يحفظ لهم حقًا، وأن يضرهم، ويشدد عليهم ظلمًا، كيف والإمام قد أمر بالإحسان إلى الغير وإن كان ظالماً.

وما كلام الإمام رضي الله عنه إلا من باب درء المفاسد وتوقي المهالك والبعد عن المتاعب، فإن الخادم الخسيس الشأن الوضيع القدر الذي عن التقي بعيد، ومن الفسق قريب، وللفسق مديم، لا يؤمن جانبهن ولا يؤتمن على بيت ولا منزل ولا مال ولا أهل ولا عورات ولا نفس، فكيف ستطمئن على أهلك إن خلا بهم، وكيف ستأمن على نفسك من غدرة؛ بل قد يقتلك، فالذي لا يخاف الله خف منه واحذره، فقد تُسَوَّل له نفسه مكرًا، وقد يضمرك لك عداوة وبمكر بك غدراً، والقصاص والأمثلة على هذا محشوة بها بطون كتب التاريخ، فكم سمعنا من عبد قتل سيده.

وكم نرى ونسمع في هذه الأيام مما يعمله بعض الخدم ويقومون به من المفاسد والمضار، فلقد حصل من بعضهم أن قتلوا أولاد مستخدميهم بل وقتلوا مستخدميهم أيضاً، وحصل من بعض الخادومات أن فضت بيدها بكارة طفلة انتقاماً من أهلها، ومن بعضهم السرقة أو الخيانة، فلذلك يتأكد على من يريد أن يستخدم إنساناً أن يبحث عن الدّين الأمين الذي يخاف الله.

وهاك يا من أراد استقدام عامل لخدمته بعض الأحكام والآداب العامة:

- **حسن المعاملة:** وذلك من خلال التعامل بأدبٍ ولطفٍ والتزام الأخلاق الحسنة التي يأمر بها الشرع، وتجنب ذميم الأخلاق من سبٍ وشتمٍ وسخريةٍ وغيرها. والقُدوة التامة في كل ذلك برسول الله ﷺ، فإن أنسا رضي الله عنه يقول: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي: أْفٍ، وَلَا: لَمْ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَا (1) صَنَعْتَ» (2).
- **إعطاؤه أجرته كاملة:** أي حسب ما تم الاتفاق عليه، فيجري معهم عقد إجارة صحيحاً على ما يوافق الشرع ولا يكتفي بعبارة «لا نختلف»، فإن الشرع أصّل لنا أصولاً، وأسس لنا قوعد ما إن التزمنا بها درأنا عن أنفسنا المفاسد. قال ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أَعْطَى بِي (3) ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَحِيرًا فَاسْتَوَفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ» (4).
- **رحمتهم والشفقة عليهم:** فمهمّ التجاوز عن زلاتهم والعمو عن هفواتهم وترك تحقيرهم وإذلالهم أو الاعتداء عليهم بالضرب ونحوه، فقد قال تعالى: {وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [آل عمران: 134].
- **الحرص على تعليمهم أحكام دينهم وءاداب الشريعة:** خاصةً أمر العقيدة والتوحيد، وبيان الشرك وخطره، ومن ذلك الحرص على تعويدهم التزام الأحكام الشرعية كالصلاة والصيام والتزام الخادمة بالحجاب الشرعي.
- **عدم تكليفهم ما لا يطيقون:** قال ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ خَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ» (5).

(1) بفتح الهمزة والتشديد بمعنى هالاً.

(2) صحيح البخاري، البخاري، (14/8)، حديث (6038).

(3) وفي رواية: «أَعْطَى بِي الْعَهْدَ».

(4) صحيح البخاري، البخاري، (82/3)، حديث (2227).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (15/1)، حديث (30).

ولا يجوز إيذاؤهم بالضرب والسب والإهانة أو بالتجويب بغير سبب شرعي، وإن مرضوا يُعْتَنَى بهم ويُخدمون ويقدم لهم الطعام والشراب، ولا يمنعون من الراحة كالنوم وقت الحاجة أو الاستراحة بل ينبغي أن يبالي الإنسان في الإحسان إليهم وبرحمتهم، فلا يتركهم قيامًا وقت جلوس أهل البيت للطعام بلا حاجة؛ بل ربما فعله بعض الناس تكبرًا فهذا من الكبائر، والأمر مع الخدم مبني على الرحمة والإحسان والصبر عليهم وعدم التقصير في إعطائهم حقوقهم وفي إرشادهم ونصحهم.

وقد حصل مع شيخنا الهرري رضي الله عنه أن دعي إلى وليمة كبيرة، وبعد أن استقر الناس المدعوون على المائدة لتناول الطعام رفع شيخنا رضي الله عنه وعاء مليئًا بالطعام، وقال لأحد إخواننا: قل لهذا الخادم ليقعد ويأكل هذا الطعام. فانظروا إلى رحمة شيخنا واستحضار قلبه وأخلاقه العظيمة الراقية حيث انتبه لهذا الخادم وأحسن إليه في الوقت الذي لم يلتفت إليه أحد في ذلك الوقت، وكان شيخنا الهرري رضي الله عنه عارفًا برضا صاحب الدعوة.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَلَا تَقُولَنَّ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُنْكَرُ عَلَيْكَ فِي ظَاهِرِهِ».

الشرح: نصيحة تُنبئُ عن فَهْمٍ عميقٍ ودراسةٍ كبيرةٍ من إمامٍ جليلٍ قد خَبَرَ النَّاسَ والتعاملَ معهم، ودرى مفاتيح الدخول إلى قلوبهم ووعى كلام الأكارب في هذا المقام.

فليعلم أَنَّ الدعوة إلى الله من قوامها الحكمة والموعظة الحسنة، ومن الحكمة معرفة ما يُلقى على من يُلقى، والداعية الحكيم لا يقول كل ما يعرف لكل من يعرف، وهو يتعامل مع العقول بحسب مقدرتها لا بحسب مقدرته، ولا يحملها فوق طاقتها. وقد فهم ابن عباس رضي الله عنهما قول الله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران: 79]، فقال: كونوا حلما وفقهاء. وقال البخاري: «ويقال الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كبارها»⁽¹⁾.

والبدء بصغار العلم مرجعه مراعاة العقول لئلا ينفر البعض. قال الحافظ ابن حجر⁽²⁾: «والمراد بصغار العلم ما وضع من مسأله وبكباره ما دق منها».

وقد بَوَّبَ البخاري لذلك في صحيحه⁽³⁾ فقال في كتاب العلم: «باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه». وكذا في موضعٍ آخر⁽⁴⁾ فقال: «باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا».

(1) صحيح البخاري، البخاري، (24/1).

(2) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (162/1).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (37/1).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (37/1).

وقال علي رضي الله عنه⁽¹⁾: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يَكْذِبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري⁽²⁾: «ويستفاد من بعض الأحاديث ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة».

وقال أيضاً⁽³⁾: «المتشابه لا ينبغي أن يذكر عند العامة. ومثله قول ابن مسعود: ما أنت محدثاً قومًا حديثاً لا تبلغه

عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة». رواه مسلم. وممن كره التحديث ببعض دون بعض أحمد في الأحاديث التي ظاهرها الخروج على السلطان، ومالك في أحاديث الصفات⁽⁴⁾، وأبو يوسف في الغرائب».

وأخرج مسلم عن ابن مسعود أنه قال: «مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ، إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ»⁽⁵⁾.

وأخرج البخاري⁽⁶⁾ عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ ومعاً رديفه على الرحل، قال: «يَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ»، قال: لبيك يا

رسول الله وسعديك، قال: «يَا مُعَاذُ»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثاً، قال: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ

مُحَمَّدًا رَسُولَ اللَّهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَمَهُ اللَّهُ عَلَى النَّارِ»، قال يا رسول الله: أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «إِذَا يَتَكَلَّمُوا».

فليس كل الناس تحمل عقولهم القدرة على الفهم الصحيح والاستيعاب وتقدير المراد من الخطاب؛ بل قد يقعد بعضهم

عن العمل بفهم خاطئٍ لمعنى كلام رسول الله ﷺ.

وللفقيه الغزالي كلامٌ نفيسٌ في بعض كتبه⁽⁷⁾، جوهره وفحواه مراعاة الناس وفهمهم لئلا ينفضوا من حولك أيها الداعي،

فقد قال رحمه الله: «كَيْلُ لِكُلِّ عَبْدٍ مَعْيَارَ عَقْلِهِ، وَزَنْ لِهَ بِمِيزَانِ فَهْمِهِ حَتَّى تَسْلَمَ مِنْهُ وَيَنْتَفِعَ بِكَ، وَإِلَّا وَقَعَ الْإِنْكَارُ لِتَفَاوُتِ الْمَعْيَارِ».

(1) صحيح البخاري، البخاري، (37/1)، حديث (127).

(2) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (37/1).

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (225/1).

(4) هذا ليس معناه في القدر الذي يجب على كل مكلف من علم العقيدة والتوحيد والتنزيه والأحكام، وإنما فيما زاد عن ذلك بحيث إن السامع قد يتشوش فينزلق إلى المهالك أو يفتن. وقد قال رسول الله عيسى عليه الصلاة والسلام: «واضع العلم عند غير أهله كمثل الخنازير اللؤلؤ والجوهر والذهب».

(5) صحيح مسلم، مسلم، (11/1).

(6) صحيح البخاري، البخاري، (37/1)، حديث (128).

(7) إحياء علوم الدين، الغزالي، (57/1).

وقال شيخنا الحافظ الهري في تفسير قوله تعالى: {وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ} [آل عمران: 79]: «هم الذين يبدؤون بطلب العلم بصغار المتون قبل كبارها»، وهذه عادة الفقهاء والعلماء الذين يتدرجون بالطلبة على قدر استيعابهم وتحملهم وفهمهم.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِيَّاكَ وَالْإِنْسَاطَ إِلَى السُّفَهَاءِ».

الشرح: لفهم هذه الوصية على وجهها نقدّم أوّلاً تعريف السفاهة.

فالسّفه والسّفاهة: الاضطراب في الرأي والفكر أو الأخلاق، فاضطراب الرأي جهلٌ وطيشٌ، واضطراب الأخلاق فسادٌ فيها لعدم رسوخ ملكة الأخلاق.

وإن الإمام أبا حنيفة رضي الله عنه يربي مريده ويحذره من أن يفسد خُلُقَه ويتغير حاله بالقرب والانسباط والإكثار من تتبع ومجالسة أهل الأخلاق الرديئة. ولا يريد بهذا القول أن يُخافِيَهُمْ، ولا أن تترك مجالستهم لتترك فيهم الأثر الطيب، أو أن لا تنصحهم إن وجدت قبولاً، فهو نفسه قد قال قبل ذلك: «وَدَارِ الْفُجَارِ»، وقد تقدم الكلام على ذلك.

نعم، هي فائدة عظيمة من الإمام، فلنتصور معاً إنساناً اتخذ سفيهاً صديقاً فكيف سيكون حاله؟ وعلى أيّش ستكون أخلاقه؟ ولقد قيل قديماً: صاحب صاحب، إما إلى جنة أو إلى نار. وقيل: صاحب صاحب، إما إلى الرقي وإما إلى الحضيض. وهما من أقوال الناس وليس من حديث رسول الله ﷺ، ومعناها صحيح.

فيوم القيامة يعرض من اختار صاحب السوء أصابع الندم ويتحسّر على ما فاته في دنياه. يقول تعالى: {وَيَوْمَ يَعَضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا} [الفرقان: 27 – 29].

فصاحب السوء كثيراً ما تعلق أحد صفاته بجليسه كما جاء في الصحيح⁽¹⁾ أن رسول الله ﷺ قال: «مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمَسْكِ وَكَبِيرِ الْحَدَادِ، لَا يَعْدَمُكَ مِنْ صَاحِبِ الْمَسْكِ إِمَّا تَشْتَرِيهِ، أَوْ تَجِدُ رِيحَهُ، وَكَبِيرِ الْحَدَادِ يُحْرِقُ بَدَنَكَ، أَوْ تَوْبَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا حَبِيئَةً»، وقد أشار ابن مفلح إلى خطر هذه المجالس للسفهاء.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (63/3)، حديث (2101).

وعن أبي جعفر الخطمي عن جده عمرو بن حبيب وكانت له صحبة أنه أوصى بنيه فقال: إياكم ومجالسة السفهاء، فإن مجالستهم داءٌ وإن من لم يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير. ونقل ابن مفلح عن ابن عبد البر⁽¹⁾ في باب منشور الحكم والأمثال قوله: «صحبة الفاسق شين وصحبة الفاضل زين».

ولكن ليس المراد مما سبق أن نعتزل مجالس الفساق والسفهاء فلا نغشاها لتعليمهم، أليس النبي كان يدعو الكفار وهم في مجالسهم إلى الله تعالى؟! ولكن المقصود ألا تكون هي مجالس المتعلم التي يحرص على المكث فيها غالب وقته، وربما هدمت على صاحبها قواعد دينه وهذا مما ينبغي الحذر منه والتأكيد عليه، فافهم الأمر رحمك الله.

وأخطر ما في ذلك أن يصاحب الإنسان سفيهاً مع عقيدة فاسدة كالمشبهة أو المجسمة أو الحلولية الاتحادية أو من كان من أهل البدع والأهواء كوهايية زماننا أتباع ابن تيمية ومحم بن عبد الوهاب وحزب الإخوان⁽²⁾ أتباع سيد قطب والتحريرية⁽³⁾ أتباع تقي الدين التنبهاني الذين لهم حزب يسمى بحزب التحرير والرجبية⁽⁴⁾ أتباع رجب ديب السوري والسحريات⁽⁵⁾ أتباع سحر حلبي، فكل هؤلاء ومن شابههم في أيامنا هذه هم من أهل البدع في العقائد فلهم من الأقوال والاعتقادات ما كذبوا بها القرآن والحديث والإجماع، وذلك لئلا يتأثر بهم، فإنه لا يأمن على دينه من صحبتهم ومخالطتهم والانسياط إليهم والاستئناس بهم، فيجب التحذير من هؤلاء تحذيراً بالغاً لأنهم يجرون أبناء المسلمين إليهم. وكمن شباب وشابات فسدوا في هذه الأزمنة، فتحولوا من السنة إلى البدعة بسبب أصحاب العقائد الفاسدة، فليتنبه لذلك وليحذر الأبناء والشباب من قرناء السوء، وان لا يصاحبوا إلا من كان يفهم في دينهم أو دنياهم ممن يوثق بدينه وأخلاقه.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَجِبَنَّ دَعْوَةً، وَلَا تُقْبَلَنَّ هَدِيَّةً».

(1) مُجْتَمِعٌ.

(2) أتباع سيد قطب، يعتبرون أنفسهم هم فقط المسلمون وكل من سواهم كفاراً، ولا همَّ لهم إلا الحكم على الناس بالكفر فيعتبرون المجتمعات الإسلامية جاهلية كافرة. اختارت هذه الفئة لنفسها أسماء عدة منها: «الجماعة الإسلامية»، و«الإخوان المسلمين» وغيرها.

(3) سبقت ترجمتهم.

(4) أتباع رجب ديب، وهو رجل عامي لا يعرف العقيدة ولا الفقه ولا الحديث، كان يعمل كَيَّاسًا في دمشق فلبس العمامة فجاءه ونصَّب نفسه للتوجيه والإرشاد. يزعم أنَّ من نادى زوجته باسمها فقد كفر، وعنده الفقر كفر والفقر مرتد، وغير ذلك من الضلال المبين.

(5) أساس هذه الجماعة يرجع لامرأة تسمى منيرة قبيسي. يجعل البنات ضائعات تائهات يعتقدن عقائد شتى ضد الإسلام، ويعتقدن أنهن أفضل الناس. يقلن بأنَّ الله كتلة نورانية ومحمدًا جزء منها، وغير ذلك من الضلال.

الشرح: أرشد الإمام رضي الله عنه تلميذه إلى بعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالقضاة والولاة ليستفيد منها إذا صار

قاضياً ويعمل بما ولا يغفل عنها.

فإن مما يذكر في كتب الفقه في أحكام القضاة أن دعوة القاضي على قسمين: دعوة عامة وأخرى خاصة.

فالقاضي يجب الدعوة إذا كانت عامة للجماعة، فإن النبي ﷺ كان يقضي بين الناس ويجب الدعوة كما تشهد لذلك

عدة أحاديث؟ فعند ابن ماجه⁽¹⁾ عن أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ يجب دعوة المملوك.

وعند البخاري⁽²⁾ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَوْ دُعِمْتُ إِلَى كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ

لَقَبِلْتُ».

فالدعوة إن كانت عامة لا يكون المقصود منها القاضي.

وإن كانت الدعوة خاصة - وهي التي لا يتخذها صاحبها لولا حضور القاضي - فلا يجب لأن المقصود هو القاضي.

وبالنسبة لقبوله الهدية حال كونه قاضياً تفصيل يذكره الفقهاء في باب الأقضية نذكر بعضه اختصاراً: إن كان المُهدي

له خصومة عند القاضي فلا يقبل القاضي هديته، وإن لم يكن كذلك فإما أن لا يكون له عادةٌ بالإهداء قبل أن يصير المُهدى

إليه قاضياً وإما أن يكون له عادةً بذلك. فإن لم يكن له عادةٌ فلا يقبلها. وإن كان له عادةٌ فإما أن يهديه على عادته أو أزيد، فإن

كان أزيد من عادته فلا يقبلها وإن كان على عادته له أن يقبلها.

وليس كلام الإمام على إطلاقه لكل أحد، كيف هذا وقد حث النبي ﷺ على الهدية، ففي الحديث⁽³⁾: «تَهَادَوْا

تَحَابُّوا». وكان رسول الله ﷺ إذا أتى بطعام سأل عنه: «أَهْدِيَّةٌ أَمْ صَدَقَةٌ؟» فإن قيل: صدقة، قال لأصحابه: «كُلُوا» ولم يأكل،

وإن قيل هدية ضربَ بيده ﷺ فأكل معهم⁽⁴⁾.

(1) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (770/2)، حديث (2296).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (25/7)، حديث (5178).

(3) شعب الإيمان، البيهقي، (301/11)، حديث (8568).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (155/3)، حديث (2576).

وفي سنن أبي داود⁽¹⁾ وابن ماجه⁽²⁾ عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قدمت على النبي ﷺ حلية من عند النجاشي أهداها له فيها خاتم من ذهب فيه فص حبشي، قالت: فأخذه رسول الله ﷺ بعُودٍ مُعْرَضًا عنه، ثم دعا أمانة بنت بنته زينب فقال: «تَحَلِّي بِهَذَا يَا بِنْتِيَّةُ».

وفي صحيح البخاري⁽³⁾ من حديث أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان لا يُرْدُ الطيب.

وصح⁽⁴⁾ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَرِضَ عَلَيْهِ رِيحَانٌ فَلَا يَرُدُّهُ، فَإِنَّهُ خَفِيفُ الْمَحْمِلِ طَيْبُ الرِّيحِ».

فكم من ضعيفة ذهبت بسبب هدية، وكم من مشكلة دُفعت بسبب هدية، وكم من صداقةٍ ومحبةٍ جُلبت بسبب هدية.

وإن كانت الهدية بشيء خفيف كسواك بنية حسنة فتوابه عظيم وما كان أكبر فتوابه أكبر، ولا يقتصر في إهدائه على الأغنياء بل يُهدي الفقير والأرملة واليتيم والضعفاء، ولا يكون بنية أن يُهدى إليه مقابل ذلك.

وأما ما ينسب للنبي ﷺ: «إنا نقبل الهدية ولو كانت تمرة ولا نقبل الصدقة ولو كانت جبلًا من ذهب» فهو مكذوب على رسول الله ﷺ يجب التحذير من نسبته إلى الرسول على أن المعنى صحيح فالرسول يقبل الهدية ولا يقبل الصدقة.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَعَلَيْكَ بِالْمَدَارَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ».

الشرح: أوصاه رضي الله عنه بخمس خصال محمودة، وكان يكفيه أن يأمره بحسن الخلق، إذ لو اقتصر عليها لدخلت الخصال الأربع فيها، فالمداراة والصبر والاحتمال وسعة الصدر من حسن الخلق. زد على ذلك أن الصبر والاحتمال متقاربان، وسعة الصدر ملزوم الصبر، إلا أنه لم رأى أهميتها فصلها وعددها.

أخي المسلم، إن مكارم الأخلاق صفة من صفات الأنبياء والصديقين والصالحين بما تال الدرجات وترفع المقامات، وقد مدح الله نبيه محمدًا ﷺ في القرآن بآياتٍ عديدةٍ منها هذه الآية التي جمعت فيها من محامد الأخلاق ومحاسن الآداب الشيء العظيم فقال أصدق القائلين: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4].

فحسن الخلق جالبٌ للتحاب والتألف، وسوء الخلق ينتج في العادة التباغض والتحاسد والتدابير.

(1) سنن أبي داود، أبو داود (92/4)، حديث (4235).

(2) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1202/2)، حديث (3644).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (164/7)، حديث (5929).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1766/4)، حديث (2253).

وقد حث النبي ﷺ على حسن الخلق والتمسك به، وجمع بين التقوى وحسن الخلق فقال عليه الصلاة والسلام عندما سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»⁽¹⁾. وليس المعنى أن من لم يكن تقياً أو حسن الخلق كافراً، فالإنسان ما دام مات على الإيمان لا بد أن يدخل الجنة مهما كان غارقاً في المعاصي.

ومن معاني حسن الخلق: طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى عن الناس، هذا مع ما يلزم المسلم من كلام حسن، ومداراة للغضب، واحتمال الأذى.

وقد أوصى النبي ﷺ أبا ذرٍّ بوصية عظيمة فقال⁽²⁾: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى خَصَلَتَيْنِ هُمَا أَخْفُ عَلَى الظَّهِيرِ، وَأَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ غَيْرِهِمَا؟»، قال: بلى يا رسول الله، قَالَ: «عَلَيْكَ بِحُسْنِ الْخُلُقِ، وَطُولِ الصَّمْتِ».

وتأمل يا أخي الكريم الأثر العظيم والثواب الجزير لهذه المنقبة المحمودة والخصلة الطيبة، فقد قال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»⁽³⁾. وقد قال شيخنا الإمام الهرري رضي الله عنه في الحديث الذي رواه الطبراني والبيهقي عن رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَبْلُغُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»: «معناه حقيقة قد يبلغ درجته، ليس معناه يشبهه».

وعدَّ النبي ﷺ حُسن الخلق من كمال الإيمان فقال عليه الصلاة والسلام: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»⁽⁴⁾.

وقد ضمن وكفل النبي ﷺ لمن حسن خلقه بيتاً في أعلى الجنة فقال: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذْبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا، وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ»⁽⁵⁾.

والمسلم مطلوب منه الكلمة الهينة لتكون في ميزان حسناته، قال عليه الصلاة والسلام: «وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»⁽⁶⁾؛

بل حتى التبسم الذي هو سهل على المسلم له بذلك أجر إن أخلص نيته ففي الحديث: «وَتَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَحَبِّكَ صَدَقَةٌ»⁽⁷⁾.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (363/4)، حديث (2004).

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (20/7)، حديث (4591).

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (252/4)، حديث (4798).

(4) سنن الترمذي، الترمذي، (458/3)، حديث (1162).

(5) سنن أبي داود، أبو داود، (253/4)، حديث (4800).

(6) صحيح البخاري، البخاري، (56/4)، حديث (2989).

(7) شعب الإيمان، البيهقي، (66/5)، حديث (3105).

والتوجيهات النبوية في الحثِّ على حسن الخلق واحتمال الأذى كثيرةٌ معروفةٌ، وسيرته ﷺ مثالٌ يُحتَدَى به في الخلق مع زوجاته وجيرانه ومع ضعفاء المسلمين ومع جهلتهم؛ بل وحتى مع الكفار.

وقد جُمِعَت علامات حسن الخلق في صفات عدَّة فاعرفها أخي المسلم وتمسك بها وهي إجمالاً: أن يكون المسلم كثير الحياء، متجنب الأذى، كثير الصلاح، صدوق اللسان، قليل الكلام إلا من خير، كثير العمل بما يرضي الله، تاركاً للزلل، مبتعداً عن الفضول، برّاً، وصولاً، وقوراً، صبوراً، شكوراً، راضياً، حليماً، رقيقاً، عفيفاً، لا لعاناً⁽¹⁾، ولا نمأماً، ولا مغتاباً، ولا شتأماً، ولا حقوداً، ولا بخيلاً، ولا حسوداً، ولا أشراً، ولا بطراً، ولا مُتَكَبِّراً، ولا باغيّاً ظالماً، ولا قاسياً جافياً، ولا ماكرّاً خداعاً؛ بل يكون بشوشاً، يحب في الله، ويرضى في الله، ويغضب في الله.

أخي المسلم إنها مناسبةٌ كريمةٌ أن تحتسب أجر التحلي بالصفات الحسنة، وتقود نفسك إلى الأخذ بها، وتجاهد في ذلك، واحذر أن تدعها على الحقد والكراهية للمسلمين وبذاءة اللسان وعدم العدل والغيبة والنميمة والشح وقطع الأرحام، واغسل قلبك ممّا علق به من أدران الدنيا وسواد القلب ومنكر الأخلاق.

واحرص على تعويد النفس كتّم الغضب، وليهنأ من حولك من والدين وزوجة وأبناء وأصدقاء بطيب معشرك وحلو حديثك وبشاشة وجهك، واحتسب الأجر في كل ذلك.

وعليك بوصية النبي ﷺ الجامعة فقد قال عليه الصلاة والسلام: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»⁽²⁾.

جعلنا الله وإياكم ممن قال فيهم الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنَكُمْ أَخْلَاقًا»⁽³⁾.

تنبيه: ليس مراد الإمام بقوله: «وعليك بالمدارة» المداينة والسكوت لأهل الأهواء والتعامي عن ضلالتهم وكف اللسان عن التحذير منهم، بل ذلك واجبٌ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما تقدم سابقاً، فافهم مقالتي رحمك الله.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاسْتَجِدَّ ثِيَابَكَ».

الشرح: أي اطلب جيد الثياب لكسوتك لأن جمال الثياب يزيد في الهيبة، وهذا من آداب العالم في درسه.

(1) أي: بغير حقّ.

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (355/4)، حديث (1987).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (28/5)، حديث (3759).

قال صاحب «المعيد في أدب المفيد والمستفيد»⁽¹⁾ في آداب العالم في درسه: «وأن ينظف ويطيب بدنه ووثوبه، ويختار له لبس البياض، ولا يعتني بفاخر الثياب، ولا يقتصر على خلق ينسب صاحبه إلى قلة مروءة». وهذا ليس بغريبٍ عن العلماء، فقد مرَّ عبر التاريخ أئمة قدوة لنا ينبغي التأسي بهم، فهذا الحسن البصري كان بعيداً من التصنع، لا يظهر التقشف وإن كان بادياً عليه ولا يدع التجمل ولا يمتنع من لبس جيد الثياب⁽²⁾.

وهذا الإمام النجم العلم مالك بن أنس كان إذا جاءه الناس لطلب الحديث اغتسل وتطيب ولبس ثياباً جددًا، وقال: «أجِبُّ أن أعظِّم حديث رسول الله ﷺ».

وهذا سحنون⁽³⁾ يقول: «كنا نختلف عند البهلول نتعلم منه السمات».

ولا غرورٍ فقد استقوا ذلك من معين النبي ﷺ ومن التعاليم المحمدية، وأيُّ هدي أفضل من هديه ﷺ.

فإن سألت عن دليلٍ، قلت لك: حديث جبريل أليس فيه: شديد بياض الثياب⁽⁴⁾.

قال الدمياطي في شرحه على الأربعين⁽⁵⁾: «وجيئه في تلك الهيئة الحسنة يدل على استحباب التجمل للقادم على الكبراء ولطالب العلم ومعلمه لأنه سيد الكبراء من الإنس والجن والملائكة معلمًا للصحابة في صورة متعلم. وقال الحافظ ابن دقيق العيد⁽⁶⁾: «وفيه دليلٌ على تحسين الثياب والهيئة والنظافة عند الدخول على العلماء والفضلاء والملوك فإن جبريل أتى معلمًا للناس بحاله ومقاله».

قال ابن حجر في شرح الأربعين⁽⁷⁾: «ففيه نذب تنظيف الثياب، وتحسين الهيئة بإزالة ما يؤخذ للفترة⁽⁸⁾، وتطيب الرائحة عند الدخول للمسجد، وعلى نحو العلماء، ونذب ذلك للعلماء والمتعلمين؛ لأنه معلّمٌ بدليل: «يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»، ومتعلّمٌ بمقاله وحاله، ومن ثمَّ استحبَّ عمر رضي الله عنه البياض للقارئ، واستحبه بعض أئمتنا لدخول المسجد».

(1) المعيد، العموي، (ص123).

(2) آداب الحسن البصري، ابن الجوزي، (ص24).

(3) وهو من أئمة المالكية.

(4) صحيح مسلم، مسلم (36/1)، حديث (8).

(5) الجواهر اللؤلؤية، الدمياطي، (ص43).

(6) شرح الأربعين النووية، ابن دقيق العيد، (ص29).

(7) الفتح المبين، ابن حجر الهيتمي، (ص142).

(8) أي: الحلقة.

هذا وقد كان ﷺ أحسن الناس وجهًا وأطيب الناس ريحًا كأن ثيابه لا يمسها دنس.

فهاتان فائدتان عظيمتان الأولى في لباس العالم والثانية في لباس المتعلم، وهاك أيها القارئ فائدة ثالثة تشتمل على

نصيحة جليلة، فنقول: ما يُراعى في الثياب عمومًا:

1- ستر العورة، وهي بالنسبة للرجل ما بين السرة والركبة، وللأنثى الحرة أمام الأجنب جميع البدن إلا الوجه والكفين.

2- أن لا يكون الثوب شفافًا يصف لون البدن.

3- أن لا يكون ضيقًا بحيث يصف أعضاء البدن. والضيق للمرأة مكروه.

4- أن لا يكون ثوبه فيه تشبه بثوب النساء ولا ثوبها بثوبه، فذلك يكون حرامًا.

5- أن لا يكون فيه تشبه بغير المسلمين، فيكون حرامًا.

6- أن لا يكون حريرًا أو أكثره بالنسبة للرجل.

7- وأن يكون ثوبه إلى نصف الساق، وهذا مسنون.

ونختتم هذا المبحث بالفائدة الرابعة وهي أن صدّر جميع أمورك الحسنة باسم الله، واجتهد أن لا تدخل في شيء من العادات الحسنة إلى بنية صالحة، فإذا لبست ثيابك فانو بما ستر عورتك التي أمرك الله بسترها، وابتدئ باليمنى في نحو القميص وأخرها في النزاع. وليكن همك إذا لبست ثوبًا جديدًا إظهار نعمة الله عليك وكرمه وفضله، وإياك وحال أهل الكبر والبطر، واحذر مشية الخيلاء مشية المتكبرين. وإذا لبست فاعمل بحديث⁽¹⁾ رسول الله ﷺ: «وَمَنْ لَبَسَ ثَوْبًا فَقَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ»، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَكْثَرَ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبِ».

الشرح: أوصاه رضي الله عنه بذلك لما أودعته هذه الخصلة من الأمور الحسنة، فالرائحة الطيبة غذاء الروح، والرائحة

الطيبة تفرح القلب وتُسِرُّ النفس وتقوي الدماغ والعقل. قال الشافعي: أربعة تقوي البدن، وعدٌّ منها شَمُّ الطيب.

فلما كانت هذه مما تساعد على إقبال الناس عليه وطول صحبتهم له وعشرتهم له وهو مدعاة إلى تلقي العلم منه

واتنشار الخير وكثرة مجالس العلم حتّهُ أبو حنيفة على ذلك.

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (42/4)، حديث (4023).

فما أعظمها من وصية، كيف لا وهي مأخوذة من فعله ﷺ، فقد كان عليه الصلاة والسلام يحب الطيب ويكثر من التطيب، فقد روى أنس ابن مالك أن النبي ﷺ قال: «حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»، أي: جُعِلَ فِيَّ المِيلُ الطَّبِيعِي لذلك من غير تعلق قلب وانشغال وتَتَبُّع لذلك، والرواية التي فيها: «حُبب إلي من دنياكم ثلاث وعد فيها الصلاة» فهي غير صحيحة ولا يستقيم بها المعنى لأنه عليه الصلاة والسلام لا يدخل الصلاة في أمور الدنيا.

وكان ﷺ يأخذ من قارورة المسك فيمسح على لحيته ورأسه، وكان إذا أهدي طيباً قَبَلَهُ ولم يَرُدَّهُ فعن أنس أن النبي ﷺ كان لا يرد طيباً⁽¹⁾.

قال ابن العربي: «إنما كان لا يرد الطيب لمحبهته فيه ولحاجته إليه أكثر⁽²⁾ من غيره لأنه يناجي من لا يناجي»، يريد الملائكة كما أوضحه ابن بطال.

وأزبدك وصفًا لهذا النبي العظيم فأقول: لقد كان النبي ﷺ أطيب الناس ريحًا من غير تطيب، وإن تطيب شَمَّ طيبه من بُعد، ويلمس أثره من قرب، وكان طيبه يفوح شذاه وينتشر عقبه، فكان من يجالسه ينشرح له وكأنه في روضة فيحاء، وإذا مس أحدهم ثوبه أو جسده فإنه ليجد ليد ريحًا طيبًا من أثر اللبس، قال أنس رضي الله عنه: ما شممت شيئًا قط مسكًا ولا عنبرًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ⁽³⁾.

وقال جابر بن سمرة: «فأما أنا فمسح خدي»، قال: «فوجدت ليدته بردًا أو ريحًا كأنما أخرجها من جؤنة عطار»⁽⁴⁾.

ونختم بهذه الفائدة فنقول: ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «طِيبُ الرِّجَالِ مَا ظَهَرَ رِيحُهُ وَخَفِيَ لَوْنُهُ، وَطِيبُ النِّسَاءِ مَا ظَهَرَ لَوْنُهُ وَخَفِيَ رِيحُهُ»⁽⁵⁾.

فعملاً بهذا الحديث الشريف نوجه نصيحة إلى الأخوات المسلمات فنقول لهن: تطيبن لأزواجكن في بيوتكن ولا تتعطرن وتخرجن فإن ذلك قد يكون سببًا للفتنة وفرصة ينتهزها الشيطان، فقد جاء في الحديث⁽⁶⁾: اهتم الشيطان لخروجها ليفتن بها

(1) صحيح البخاري، البخاري، (157/3)، حديث (2582).

(2) مع أنه ﷺ كان طيب الرائحة من غير أن يتطيب، ورائحة أطيب من كل طيب.

(3) مسند الإمام أحمد، أحمد بن حنبل، (360/20)، حديث (13074).

(4) أي: السقط الذي فيه متاع العطار.

(5) سنن الترمذي، الترمذي، (107/5)، حديث (2787).

(6) سنن الترمذي، الترمذي، (468/3)، حديث (1173).

الرجال. وأما الوجه فليس بعورة كما نقل الإجماع على ذلك إمام الحرمين والقاضي عياض وابن حجر الهيثمي، وكذلك استدلل العلماء على جواز كشفها لكفيتها بقول الله تعالى: {وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} [النور: 31] قالت عائشة وابن عباس: إلا الوجه والكفين، والجمهور على أنهما - أي: الكفين - ليسا بعورة، وهو المعول عليه والمعتمد.

وفي الحديث: «إِذَا شَهِدْتَ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلَا تَمَسَّ طَيْبًا»⁽¹⁾، أي: يكره لها ذلك.

وفي الحديث: «لَا تَمْتَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلِيُخْرِجَنَّ تَفَالَتٍ»⁽²⁾، أي: غر متطيبات، وثياب بذلة وهي الثياب

الغير فاخرة كالتى تلبس في البيت أي من غير زينة.

تنبيه: لا نقول إن مجرد خروج المرأة متعطرة حرام ومعصية؛ بل الحق أن الذي عدّه الفقهاء من معاصي البدن عليها هو خروجها بقصد التعرض للرجال أي لأن تستميلهم للمعصية سواء كانت متعطرة أو غير متعطرة، متزينة أو غير متزينة. وأما إذا خرجت متعطرة أو متزينة ساترة ما يجب عليها ستره من بدنها ولم يكن قصدتها ذلك فليس في ذلك أكثر من الكراهة التنزيهية، أي: أنها لا تكون عاصية بذلك، والدليل على ذلك أن الشافعية وكذا غيرهم ذكروا في مناسك الحج أنه يسن التطيب للذكر والأنثى للإحرام أي قبل الإحرام للحج أو العمرة، بدليل ما ثبت عن أبي داود⁽³⁾ من حديث عائشة: قالت: «كنا نضمخ جباهنا بالمسك المطيب قبل أن نحرم، ثم نحرم ونحن مع رسول الله ﷺ فنعرق فيسيل على وجوهنا فلا ينهانا عنه النبي ﷺ».

وبدليل حديث ابن حبان⁽⁴⁾ عن أبي موسى الأشعري: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ اسْتَعَطَّرَتْ، فَمَرَّتْ عَلَى قَوْمٍ لِيَجِدُوا رِيحًا فِيهَا

زَانِيَةٌ». معناه: أن المرأة التي تقصد بخروجها متطيبية استمالة الرجال إليها أي للفاحشة أو لما دون ذلك من الاستمتاع المحرم فهي زانية أي تشبه الزانية لأن فعلها هذا مقدمة للزنى وليس المعنى أن إثمها كإثم الزانية الزنى الحقيقي الموجب للحد، فإن ذلك من أكبر الكبائر.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَرَّبَ مَجْلِسَكَ، وَلِيَكُنْ ذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ».

(1) صحيح مسلم، مسلم، (328/1)، حديث (443).

(2) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (589/5)، حديث (2211).

(3) سنن أبي داود، أبو داود (166/2)، حديث (1830).

(4) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (270/10)، حديث (4424).

الشرح: قد جمع الإمام رضي الله عنه في هذه العبارة بين نصيحتين تكادان لا تنفصلان ولا تكفان عن بعضهما، وبيان

الحضّ على ذلك سيأتي.

أما النصيحة الأولى والتي عبّر عنها بقوله: «قَرَّبَ مَجْلِسَكَ»، فإنما نبه على هذا الأمر لأجل قطف الثمرة، أي لما كان من المرادات التي يريد الأستاذ والشيخ والعالم حصولها وتحقيقها الفهم السليم والإدراك الصحيح، والدراية التامة والوعي الآمن، والمعرفة المتقنة، والفقه الصائب والاستيعاب المأمون، حثّ وَشَجَّعَ وحض على تبكير وقت إعطاء الدرس وذلك لكون الأفهام لا زالت في اتقاد، والأذهان قوية في صفاء، والقلوب في استعداد تام، والنفوس في تَهَيُّؤٍ، فيسهل حينئذٍ على الطالب الفهم والوعي والحفظ، ولا سيّما إن كان الدرس فيه تشعبات وذلك عملاً بقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا»⁽¹⁾.

قال النووي في التبيان: وينبغي أن يبكر بقراءته على الشيخ أول النهار لحديث النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا».

وقال ابن جماعة في «تذكرة السامع والمتكلم»: «وينبغي مراعاة مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور وتأخيره إذا لم يكن عليه ضرورة».

وبعد هذا نقول: لما أكّد الإمام مسألة التبكير نَبّهَ لمسألة ثانية ذات صلة بالأولى كما بينّا، وهي أن يكون تدريسه في أوقات يعلمها الناس بأن يحافظ على الوقت الذي عهدته الناس منه مثلاً، فإن كثرة تغيير أوقات الدرس قد يجعل الناس في خُلَيْطِي⁽²⁾ فيضيع المجلس وحينئذٍ لن تتحقق النصيحة الأولى، وذلك إذا لم يحضر الناس فما المعنى حينئذٍ من تربيته.

قَالَ الإمام أَبُو حَنِيفَةَ رضي الله عنه: «واجعل لنفسك خَلْوَةً تَرْمُ بِهَا حَوَائِجَكَ».

الشرح: نصيحةٌ جديدةٌ جليئةٌ من الإمام فحواها الخلوّة ومحاسبة النفس. وقبل ذلك نقدم بعض الأدلة على ذلك فنقول: اذكر وتذكر أيها القارئ وانظر إلى قول الله تعالى: {وَاذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَتَبَّيلاً} [المزمل: 8]، أي: انقطع إليه بالعبادة.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (509/3)، حديث (1212).

(2) قال ابن منظور: «ووقع القومُ في خُلَيْطِي وخُلَيْطِي أي اختلاط فاختلط عليهم أمرهم» (لسان العرب، 292/7).

وانظر إلى قصة بدء الوحي مع النبي ﷺ التي جاء فيها: فكان ﷺ يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه⁽¹⁾ وكان يتزود لمثل هذه

الليالي⁽²⁾.

قال أبو جمرة في شرحه على مختصر البخاري: «في الحديث دليل على أن الخلوة عون للإنسان على تعبدته وصلاح

دينه».

وقد ذكر بعض المفسرين أن في صحف إبراهيم هذه الحكمة، وهو ثابت عند ابن حبان⁽³⁾، وعلى العاقل أن يكون له

ثلاث ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه يفكر في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيها لحاجاته من

المطعم والمشرب.

واعلم أيها القارئ أن الوحدة خير من جليس السوء، والجلس الصالح خير من الوحدة، والعزلة لمن شغل وقته بالخير

عبادة، والتفكير في المخلوق والتدبير في المخلوقات للاستدلال به على ملكوت الله طاعة. وقد أوصى الإمام تلميذه الآخر أبا

يوسف القاضي بقوله: «وداوم على التلاوة».

فاجعل لنفسك خلوة، وقتاً تتقرب فيه بالطاعة والتدبر في قراءة آيات كتابه الكريم، ووقتاً تتقوى فيه على الدنيا وهمومها،

ووقتاً في التفكير في أحوالك وحال قلبك.

فاجعل وقتاً خاصاً في يومك تعمره بصلاة وقيام بخشوع ورجاء، ووقتاً تكسب لنفسك سكوناً وهدوءاً.

وهنا ملاحظة مهمة يحسن الإشارة إليها، وهي أن شرط الخلوة أن لا يترك المختلي واجباً بسببها، وأن لا يضيع مصلحة

على الدعوة والمسلمين، فيقدم مصلحة الدعوة ونشر العلم والعقيدة ومكافحة الضلالات وأهلها كالمشبهة والمجسمة والحلولية

الاتحادية على الخلوة، وكذا قضاء حوائج المسلمين ومصالح أهل الضرورات، ثم أليس ورد في الحديث: «الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُحَالِطُ

النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُحَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ»⁽⁴⁾.

(1) أي: يتعبد الليالي ذوات العدد.

(2) فائدة: وهذا دليل على أن الأنبياء يكونون على التوحيد ومعرفة الله منذ الصغر فلا تمر عليهم لحظة يكونون شاكين بمخالقهم وبوجوده، لأنهم عُصَمَا

من ذلك، فالله حفظهم من الكفر وعبادة غيره قبل النبوة وبعدها.

(3) صحيح ابن حبان، انظر الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (78/2).

(4) سنن الترمذي، الترمذي، (662/4)، حديث (2507).

وعليه تحمل هذه القصة وهي أن واحداً من الدعاة استأذن شيخنا رضي الله عنه في الخلوة ليشغل بالأذكار والأوراد والعبادة فقال له رضي الله عنه: «أنت خلوتك بين الناس».

فسبحان من جعل التذلل له عزة والافتقار إليه غنى والخضوع له رفعة والتوكل عليه كفاية ومسألته⁽¹⁾ تعالى شرفاً.

قَالَ الإمام أَبُو حَنِيفَةَ رضي الله عنه: «وَابْحَثْ عَنْ أَخْبَارِ حَشَمِكَ، وَتَقَدَّمْ فِي تَقْوِيمِهِمْ وَتَأْدِيبِهِمْ».

الشرح: فهم عميق من إمامٍ عظيم، وهذا شيء مما تدل عليه هذه الوصية. فبينما أوصاه بإكرام أهل الشرف وتعظيم أهل العلم وتوقير الشيوخ وملاطفة الأحداث ومداراة الفجار نبهه إلى أمر خَوْفًا من الغفلة عنه، فذكره أن لا ينسى أهله وحشمه. والحشم في اللغة: هم خاصة الرجل الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه. وإن كثيراً من الناس يملؤون وقتهم بالاهتمام بالبعيد وينسون القريب فإن للأهل على الإنسان حقاً.

أخي المسلم، صِلْ رَحِمَكَ وَأَوْصِلْ مَا أَمَكَّنَكَ مِنَ الْخَيْرِ إِلَيْهِمْ، وادفع ما أمكنك من الشر عنهم، وزرهم، وسل عنهم، وأهدهم، وتصدق على فقيرهم، وعد مرضاهم، واتبع جنائزهم، واستضفهم، واشركهم في أفراحهم وأتراحهم، وارحم صغيرهم، ووفر كبيرهم، واعرف الحق لعلمائهم وشيوخهم، وغير ذلك مما من شأنه أن يزيد ويقوي من أوصل العلاقات بينك وبينهم.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36].

ثم إن البحث عن أخبار الأهل يشمل السؤال عنهم ومعرفة سبب غيابهم ومل حالهم وتقديم يد العون لهم إذا احتاجوا، وهو خلقٌ كريمٌ يدعو إليه الإسلام وتحمله النفوس الطيبة.

وكان من شمائله ﷺ أَنَّهُ يَتَفَقَدُ أَصْحَابَهُ وَيَسْأَلُ النَّاسَ عَمَّا فِي النَّاسِ⁽²⁾.

وجميلٌ تفقد المؤمنين بعضهم بعضاً، الأمر الذي يجعلهم جميعاً كالجسد الواحد كما ورد في الحديث⁽³⁾: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ

فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَىٰ».

(1) أي: سؤاله تعالى.

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (24/3)، حديث (1362).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (1999/4)، حديث (2586).

فمن يتفقد أحوال الناس يزداد في الغالب في قلوبهم محبةً وتوقيراً ويكون لغيره أسوةً حسنةً، ثم يتفقد الناس أحواله إذا غاب عنهم أو ألم به شيء، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «من يتفقد يُفقد»، رواه ابن أبي شيبه⁽¹⁾.

وتفقد أحوال الحشم والأقارب يفتح باباً واسعاً لجمع الحسنات، فإنه يعني عيادة المريض، والإحسان إلى المحتاج، والتفريح عن المكروب، وغير ذلك من أعمال البر والفلاح.

وقد كان من هديه ﷺ السؤال عما غاب من أصحابه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس.

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه: كان رسول الله ﷺ يتعهد الأنصار ويعودهم ويسأل عنهم فبلغه عن امرأة مات ابنها وليس لها غيره وأنها جزعت عليه جزعاً شديداً فأتاها النبي ﷺ فأمرها بتقوى الله والصبر.

ومن هذا أيضاً تفقده ﷺ للمرأة التي كانت تقم المسجد أي كانت تجمع قمامته، فعن أبي هريرة أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد - أو شاباً - ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها - أو عنه - فقالوا: مات، قال: «أَفَلَا كُنْتُمْ ءَاذَنْتُمْوِي»، قال: فكأنهم صغروا أمرها - أو أمره - فقال: «ذُلُّوِي عَلَى قَبْرِهَا» فدلّوه، فصلّى عليها⁽²⁾.

وهنا فائدة وتذكير: ينبغي للمسلم أن يستحضر الإخلاص في عمله هذا وأن لا يحسن إلى الناس بقصد أن يحسنوا إليه بل هو يعمل لله، أحسنوا إليه أم أسأؤوا، ولا ينتظر منهم معروفاً، فهذه أخلاق الكاملين.

وغيباب هذا الخلق عن كثير من الناس يُشعر الواحد منهم غالباً بالغرابة بين أقرب الناس إليه ومن هم من أحبهم عنده.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاسْتَعْمِلْ فِي ذَلِكَ الرَّفْقَ».

الشرح: أمر رضي الله عنه بالرفق ووصى به، فما هو الرفق ولم قد يوصي الإمام في المعاملة؟ وما هي ثمرته؟ وإلام يوصل؟

أسئلة قد تقع لبعض القارئ، وفيما يلي شفاء إن شاء الله من العي والجهل بملازمة الرفق.

أولاً: الرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل والدفع بالأخف. وقيل هو اللطف والدراية وحسن التصرف

والسياسة. وقيل: الرفق ضد العنف وهو اللطف وأخذ الأمر بأحسن الوجوه وأيسرها.

(1) المصنف، ابن أبي شيبه، (112/7)، حديث (34596).

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل (14/15)، حديث (9037).

وإن رُمت معرفة فوائده وثمراته وما الحامل عليه فاسمع معي لقول الغزالي في بيان الرفق. قال الغزالي: الرفق محمود وضده العنف والحدة، والعنف ينتجه الغضب والفظاظة. والرفق واللين ينتجهما حسن الخلق والسلامة. والرفق ثمرة لا ينمرها إلا حسن الخلق، ولا يحسن الخلق إلا بضبط قوة الغضب وقوة الشهوة، وحفظهما على حد الاعتدال، ولذلك أثنى المصطفى ﷺ على الرفق وبالغ فيه. وفيما يأتي بعض الأحاديث عنه ﷺ.

يقول النبي ﷺ: «فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ»⁽¹⁾.

وفي الصحيحين⁽²⁾ أن رسول الله ﷺ قال: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ». ومعنى الحديث أن الله لطيفٌ بعباده، عالمٌ بمواضع حاجاتهم، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، ينعم عليهم بالنعم مع تماذي بعضهم في المعاصي عسى أن يتوبوا، لم يكلفهم ما ليس في وسعهم ولو شاء لفعل، وهو الذي يحكم بما يريد، وقادرٌ على كل شيء. قال تعالى: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 286]، وقال تعالى: {وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ} [الحج: 78].

وحاطب مرةً سفيان الثوري أصحابه قائلاً: أتدرون ما الرفق؟ هو أن تضع الأمور مواضعها، الشدة في موضعها واللين في موضعه.

فالرفق خير في أمر الدين وأمر الدنيا حتى في معاملة المرء نفسه ويتأكد ذلك في معاشرته من لا بد للإنسان من معاشرته كزوجته وخادمه وولده، فالرفق محبوب مطلوب مرغوب.

يقول المناوي: إذا أراد الله بأحد خيرًا رزقه ما يستعين به مدة حياته ووقفه في الأمور وليّنه في تصرفه مع الناس وألهمه القناعة والمداراة التي هي رأس العقل وملاك الأمر، وإذا أراد به سوءًا ابتلاه بضد ذلك، والأول علامة حسن الخاتمة والثاني بضده. نسأل الله السلامة.

فالرفق صفةٌ كريمةٌ وحُلُقٌ جميل، فيه سلامة العرض وراحة الجسد واجتلاب المحامد، حُلُقٌ من أشهر ثمار حسن الخلق وأشهاها، ومن أظهر مظاهر جميل التعاملات وأبهاها، حُلُقٌ يقول فيه نبينا ﷺ: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنَزَعُ

(1) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (16/1).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (16/9)، حديث (6927)، صحيح مسلم، مسلم، (1706/4)، حديث (2165).

مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»⁽¹⁾. فما أخرجنا إلى الرفق واللين في زمنٍ كَثُرَتْ فيه مظاهر العنف والقسوة والغلظة والجفاء في البيوت والشوارع والأسواق والمؤسسات.

ومن كان الرفق حُلُقَةً فإنه يتوصل به إلى كثير من الخيرات والفوائد وتحقيق المصالح الدينية والدنيوية، ويدخل بذلك إلى قلوب الناس فيتوصل إلى تعليمهم الخير وإبعادهم عن الشر والفساد، ويستميلهم إلى حضور مجالس العلم لأنهم أحبه بملاطفته لهم، فيدخل عليهم النفع والعلم والخير بسبب هذا الخلق الكريم، وبذلك يكون قد نفعهم ودلهم على طريق الجنة وأبعدهم عن طريق النار، وباللطف والملاطفة يسلم، ويحفظ من كثير من الفتن والمفاسد والبلايا والمصائب والتباغض والابتعاد عن القلاقل ومصادمة الناس، وهذا لا يعني الخنوع والجبن والتخاذل وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فما أعظمك أيها الإمام، وما أعظمها من وصية.

جعلنا الله من المتخلفين بما على ما ينبغي، من المقتدين برسول الله ﷺ قولاً وفعلاً وعقدًا وخلقًا وعشرةً ومعاملَةً، إنه على ما يشاء قديرٌ، وبعاده لطيفٌ خبير.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تُكْثِرِ الْعَتَبَ فِيهِوَ الْعَدْلُ».

الشرح: هذا من علاقة العالم بغيره. وفهمُ جملة هذه الوصية يكون بعد فهم مفرداتها حتى يون الفهم على التمام وتحصل الفائدة بأبلغ وجه إن شاء الله.

أولاً: العتاب هو المؤاخذة.

ثانياً: العدل هو اللوم.

قال المناوي: العتاب هو مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة. وقال أبو منصور الأزهري: التعتب والمعاتبة والعتاب، كل ذلك مخاطبة للأخلاء طالبين حسن مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم الموجدة.

فالمعاتبة مصدرٌ قولهم: عاتب يعاتب، وهو مأخوذٌ من مادة (ع ت ب) التي تدل على الأمر الذي فيه صعوبة من كلام أو غيره من ذلك العتبة، وإنما سميت بذلك لارتفاعها عن المكان المطمئن السهل. ومن الباب: العتّب بمعنى الموجدة، ومنه ما ذكر في هذه الوصية.

(1) صحيح مسلم، (2004/4)، حديث (2594).

وإن المعاتبة من أنواع الحوار بين الأخلاء، هذا إن وقع الموقع وكان بالزمان والمكان المناسبين، وإلا فقد ينشأ من ذلك أمور لا تحمد عقبها.

لذلك ندعو إلى التوسط في العتاب. قال الماوردي: إن كثرة العتاب تكون سبباً للقطيعة، وإطْرَاح⁽¹⁾ جميعه دليل على قِلَّة الاكتراث بأمر الصديق، وقد قيل: علة المعادة قلة المبالاة، والمطلوب أن تتوسط الحال بين العتاب وتركه فيسامح بالمشاركة ويستصلح بالمعاتبة لأن المسامحة والاستصلاح إذا اجتمعا لم يلبث معها نفورٌ ولم يبق معهما وجد، وقد قال بعضهم: لا تكثرن معاتبة إخوانك فيهن عليهم سخطك.

وقيل قديماً: العتاب حدائق المتحابين وثمار الأوداء - أي: المتوادين - ودليل الظن وحركات التشوق وراحة الواجد ولسان المشفق.

ويروى عن سيدنا علي موقوفاً عليه: «لا تكثر العتاب فإن العتاب يورث الضغينة والبغضة».

ومن فوائد المعاتبة:

- تُزِيل صدأ البغض والكراهية من القلوب.

- تزيد المحبة والألفة.

- تذهب نزع الشيطان ووساوسه.

- تنقي النفوس وتطهرها من ظنون الإثم.

- تقوي أواصر الود والتفاهم في المجتمع.

وهنا نكتة لطيفة: ليس من شرط العتاب وقوع معصية من زميل أو صديق أو أخ أو أهل، بل قد تكون لأنهم تركوا الأحسن والأفضل والأولى به، وفرق بين التأنيب والعتاب، فيقال عتابٌ لطيفٌ كما في قصة نزول: {عَبَسَ وَتَوَلَّى} ولا يقال أنب الله رسوله ﷺ؛ بل كل ذلك منه ﷺ ترك للأولى.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تلِ تَأديبِهِمْ بِنَفْسِكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لِمَاتِكَ، وَأَهْيَبُ لَكَ».

(1) أي: ترك.

الشرح: تحمل هذه الوصية ضمن طياتها كلامًا جليلاً عن الهيبة والوقار، إذ في هذه الوصية العظيمة لتلميذه لم يقتصر الإمام فقط على الفتاوى بل فيها ما فيها من تذهيب النفس وتهذيب الغير. ولما كان لذلك آداب بيّنها الإمام جملة وهذه منها.

ليعلم أن هناك وسائل تحمل على التحلي بالهبة والوقار، منها:

- السكينة: فإنها تتمم الخشوع وتجلب الطمأنينة وتلبس صاحبها ثوب الوقار.
- اتباع آثار الأنبياء والصالحين الذين تحلوا بالوقار: فعن عبد الله بن عباس أن النبي ﷺ قال⁽¹⁾: «إِنَّ الْهُدَى الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالْإِقْتِصَادَ جُزْءٌ مِنْ حَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ التُّبُوءِ»، أي: هذه من الصفات والخصال الحسنة التي يتصف بها النبي، وليس المعنى أنه يكون مكتسبًا لبعض أجزاء النبوة، فالنبوة اصطفاء من الله وليست مكتسبة بالعبادات والطاعات.
- الخشوع في الطاعات والإكثار من الصالحات.
- طلب العلم: يروى عن الحسن أنه قال: «قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تحشعه وهديه ولسانه وبصره ويده».
- البعد عن الغضب: فالغضب لا في محله ينافي الوقار والهيبة، فقد ذكر الطبري في تاريخه⁽²⁾ عن طاهر بن حسين أنه أوصى ابنه عبد الله فقال: واملك نفسك عن الغضب وأكثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغرور.
- التزام الصمت وقلة الكلام إلا فيما يعني: فكل ذلك من سمات الوقار وعلاماته، فالصمت في محله زين الحلم يلزمك السلامة ويصحبك الكرامة ويلبسك ثوب الوقار.
- الحياء الممدوح: قال القرطبي: «إن من الحياء ما يحمل صاحبه على الوقار بأن يوقر غيره ويتوقر هو في نفسه».
- الحلم: فإن من نُسب إلى الحلم ألبس ثوب الوقار والهيبة وأُمَّجَّة الجلالة.
- الصدق: فإن من عُرف بالصدق صار الناس له أتباعًا، فصدق اللهجة عنوان الوقار.
- تعظيم الحرمات.

(1) سنن أبي داود، أبو داود (247/4)، حديث (4776).

(2) تاريخ الرسل والملوك، الطبري، (585/8).

وبالنسبة للمفتي والعالم المريني ينصح الإمام أبو حنيفة أن لا يباشر المريني دائمًا في كل الأحوال وفي جميع الأوقات وعند كل الزلات والأخطاء التربية بنفسه بل قد يترك في المريرين رقيبًا فهِمًا يخاف الله، داريًا وعارفًا ينوب عنه، وليس المراد أن لا يباشر تأديبهم ألبتة، كيف هذا المرير يتعلم من حال الشيخ ومن فعله ومن مقاله.

بل يكون كما قال الشاعر:

ليس الغيُّ بسيدٍ في قومِهِ

لكنَّ سيدَ قومِهِ المُتَعَايِ (1)

فحيث يحصل التأديب بغيره لا يتولاه بنفسه، وحيث لا تتحقق المصلحة ولا تحصل الفائدة المرجوة إلا بأن يصرح هو أو يتكلم أو يؤنب أو يصرخ بقدر الحاجة أو يعرض عن الذي يريد أن يؤديه فإنه يفعل ذلك بنفسه، وهذا له تأثيرٌ بالغٌ في نفوس الطلاب ومن يريد تأديبهم، لأنه إن حصل ممن هو كبير في نظرهم أو قدوة أو أستاذ أو مرب أو أب فإنهم يحفظون ذلك ولا ينسونه بسرعة، وربما انتفعوا بذلك إلى آخر عمرهم.

وكما قال الشاعر:

اصبرِ علىٰ مُرِّ الحَقِّ من عليمٍ

فإنَّ رُسوخَ العلمِ في نبراتِهِ
وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة والسيرة النبوية أنه ﷺ كان يكتفي بالتلميح أو بالإشارة لمن يريد نصحهم، أو يرسل لمن يريد نصحه من يكلمه، وحيث يتعين التصريح فإنه كان يصرح بنفسه.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وحافظ على صلواتك».

الشرح: أمره رضي الله عنه ناصحًا له بإقام الصلاة والمحافظة والمداومة عليها فإنها عمود الدين وعماد الشريعة، وإنما يحافظ عليها من يعرف قدرها ويرجو أجرها ويخاف العقاب على تركها.

قال تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُصَلُّونَ} [البقرة: 38].

وقد وصف الله المؤمنين في سورة المعارج بأوصافٍ عظيمةٍ، منها ما جاء في قوله تعالى: {إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ} [المعارج: 22، 23]، وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ} [المعارج: 34]، وفي سورة المؤمنون

(1) هنا المراد به الذي يتظاهر وكأنه لم يطلع على زلاتهم ليشجعهم على صلاح أحوالهم حيث نُصِحوا من طريق غيره.

بقوله: { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ } [المؤمنون: 1، 2]، ويقوله في سورة المؤمنون أيضاً: { وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ } [المؤمنون: 9].

واسمع يا أخي إلى بعض ما ورد في عظيم شأن الصلاة، فقد روى مسلم في صحيحه⁽¹⁾ أن النبي ﷺ قال: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللَّهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةٌ».

ويكفيك قول النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»⁽²⁾.

قال الحافظ الهريزي: «غاية أنسي ولذتي وسروري في صلاتي لربي»، وقال رضي الله عنه: «الصلاة لذة المتقين».

فالصلاة أمرها عظيم في الدين ولها فضائل عظيمة منها:

- أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: { وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ } [العنكبوت: 45].
- أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ورسوله لحديث عبد الله بن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضل؟ قال: «الصَّلَاةُ لَوْ قَبِيهَا»⁽³⁾. وأما أفضل الأعمال على الإطلاق وأعلاها وأجلها فهو الإيمان بالله ورسوله ولا صلاة لمن لم يكن مسلماً.

- تغسل الخطايا لحديث جابر رضي الله عنه: «مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخُمْسِ كَمَثَلِ مَهْرٍ جَارٍ، غَمْرٌ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ، يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ»⁽⁴⁾. وعند الشيخين: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ هَرًا بِيَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ، ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ؟» قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا. قَالَ: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَاةِ الْخُمْسِ، يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا»⁽⁵⁾.

- تكفر السيئات لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصَّلَاةُ الْخُمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، وَرَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ، مُكْفِرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ»⁽⁶⁾.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (353/1)، حديث (488).

(2) المستدرک، الحاكم، (174/2)، حديث (2676).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (89/1)، حديث (137).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (463/1)، حديث (668).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (112/1)، حديث (528)، صحيح مسلم، مسلم، (462/1)، حديث (667).

(6) صحيح مسلم، مسلم، (209/1)، حديث (233).

- أنما نور لصاحبها ففي مسلم⁽¹⁾: «وَالصَّلَاةُ نُورٌ». قال الحافظ ابن دقيق العيد وقيل معناه: أن يكون أجرها نوراً لصاحبها يوم القيامة، وقيل: إنها تكون نوراً ظاهراً على وجهه يوم القيامة ويكون في الدنيا أيضاً على وجهه البهاء بخلاف مَنْ لَمْ يُصَلِّ وَاللهَ أَعْلَمُ، وفي الحديث: «بَشِّرِ الْمَشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ النَّامِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽²⁾.

- يرفع الله بها الدرجات ويحط الخطايا كما مر في حديث: «عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ لِلَّهِ»⁽³⁾.

- النزول الكريم في جنات عدن، قال ﷺ: «مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الْجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ»⁽⁴⁾.

- انتظارها رباطاً في سبيل الله لحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إِسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكَ الرِّبَاطُ»⁽⁵⁾.

وأزيدك أيها القارئ الناظر بعين قلبه حديثاً أعظم به، وانظر بم ترجع بعد سماعه: قال ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه: كنت أبيتُ مع رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: «سَلْ»، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ»، قلتُ: هو ذاك. قال: «فَاعْبِي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»⁽⁶⁾.

فالحذر الحذر من تركها مطلقاً أو التكاثر في أدائها فإن هذه ليست صفة المؤمن الكامل التقى.

واسمع لبعض ما ورد في وعيد تاركها: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكَفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»⁽⁷⁾، معناه هو مُسَلِّمٌ ملعونٌ

فاسقٌ مجرمٌ عَرَضَ نفسه لسخط الله، ويخشى عليه من سوء الخاتمة، لا أنه كافر مجرد تركها وهو يعتقد وجوبها.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (203/1)، حديث (223).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (435/1)، حديث (223).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (353/1)، حديث (488).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (133/1)، حديث (662).

(5) صحيح مسلم، مسلم، (219/1)، حديث (251).

(6) صحيح مسلم، مسلم، (353/1)، حديث (489).

(7) صحيح مسلم، مسلم، (88/1)، حديث (134).

وقال ﷺ⁽¹⁾: «مَنْ حَافِظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا

بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَأَبِي بَنِي خَلْفٍ».

فلك أيها الشاب ولك أيها الشابة، ولك أيها الشيخ ولك أيها الشيخة، ولك أيها المراق ولك أيها المراهقة نقول:

أقيموا الصلاة، واحرصوا على مراعاة طهارتها، ومراقبة أوقاتها، وإتمام قراءتها، وإكمال ركوعها وسجودها، واستدامة الخشوع فيها، والإقبال عليها، وغير ذلك من أحكامها وأدائها في الجماعات والمساجد، فإن ذلك شعار المؤمنين وسنن الصالحين وسبيل المتقين.

فائدة مهمة: ليحذر من قول الوهابي: إن طلب ما لم تجر به العادة بين الناس بعضهم لبعض كفر، ويكفرون لأجل ذلك

أهل السنة والجماعة.

ونحن لضيق المقام نذكر ثلاثة أدلة على جواز ذلك:

الأول: حديث ربيعة بن كعب الأسلمي حيث طلب من النبي مرافقته في الجنة، فهل جرت العادة بذلك؟

الثاني: ما جاء في القراءان من طلب سيدنا سليمان عرش بلقيس ممن كان عنده، وعرشها على قول بعض المفسرين كان

طوله ثمانين ذراعًا في عرض ستين ذراعًا، وهو من الذهب الخالص، فقد قال سيدنا سليمان لمن كان عنده: أيكم يأتي به في لحظة،

وأي عادة جرت بطلب إحضار كل هذا الوزن الثقيل مع هذه المسافة البعيدة؟ فعرش بلقيس كان في سبأ، وسيدنا سليمان على

قول كان في فلسطين، وعلى قول كان في تدمر.

قال الله تعالى: { قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِبِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ

أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه

مُستَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي } [النمل: 38 - 40].

ثالثًا: في قصة عجوز بني إسرائيل مع نبي الله موسى حين سأل سيدنا موسى من كان معه عن مكان قبر نبي الله

يوسف، فقالوا: لا أحد منا يعرف مكان القبر إلا امرأة عجوز، فأتاها فسألها عن مكانه، فقالت: لن أدلك على مكانه حتى

تعطيني حكمي، أي سألته مرافقته في الجنة.

فليُجب البدعي الوهابي، هل هذا مما جرت به العادة؟

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (141/11، 142)، حديث (6576).

وعلى قولهم هذا، فإنهم يُكفِّرون محمداً وموسى وسليمان عليهم الصلاة والسلام، والعياذ بالله من مسخ القلوب.

قَالَ الإمام أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَابْدُلْ طَعَامَكَ، فَإِنَّهُ مَا سَادَ بِخَيْلٍ قَطُّ».

الشرح: لما كان إطعام الطعام من الصفات الكريمة التي ندب إليها ديننا الحنيف، أحب الإمام جزاه الله عن الإسلام والمسلمين كل خير أن يلفت انتباه تلميذه يوسف إلى هذه المكرمة فنصحها قائلاً: «وَابْدُلْ طَعَامَكَ فَإِنَّهُ مَا سَادَ بِخَيْلٍ قَطُّ». فأمر بالجد الذي هو كثرة العطاء من غير سؤال للناس والتعفف عما لديهم.

والأمر بإطعام الطعام أمر الله تعالى بذلك في آيات منها قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: 27، 28].

وقوله في السورة نفسها: {وَالْبُدْنَ جَعَلْنَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الحج: 36].

ومن هدي نبي الله ﷺ أنه كان يأمر أصحابه بذلك لا سيما إذا رأى أهل الفاقة، فقد ورد عند مسلم: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاءَ عُرَاةٍ مُّجْتَابِي النَّمَارِ أَوْ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، بَلَّ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرٍّ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِمَا رَأَى مِنْهُمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ تَمَّ حَرْجٌ، فَأَمَرَ بِالْأَلَا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى تَمَّ حَطَبٌ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: 1] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1] وَالْآيَةُ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: {اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشر: 18]، «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ تَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بَرِّهِ، مِنْ صَاعِ قَمَرِهِ» حَتَّى قَالَ: «وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»⁽¹⁾.

وانظر أيها القارئ بإمعانٍ إلى قصة⁽²⁾ ضيف رسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا»، فقال رجلٌ من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلا قوت صبياني، فقال: هيبي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيات طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأثما تصلح سراجها فأطفأهن فجعلنا

(1) صحيح مسلم، مسلم، (704/2)، حديث (1017).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (34/5)، حديث (3798).

يربانه أهما يأكلان، فباتا طويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «صَحِكَ اللهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجِبَ، مِنْ فَعَالِكَمَا»،
فأنزل الله: {وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: 9].

تنبيه: قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على البخاري⁽¹⁾: «ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية والمراد منها الرضا بصنيعهما»، أي: لا يجوز نسبة الضحك والتعجب على الحقيقة لله.

وهذا دليل على جواز التأويل تفصيلاً كان أو إجمالاً، وأن تأويل المتشابه من الدين ليس تعطيلاً. كيف لا يكون من الدين والنبى أول تفصيلاً، ففي الحديث القدسي⁽²⁾: قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟» أي لوجدت الثواب، فأفهمنا الرسول بهذا أن الله منزه عن المرض، وهو الرسول بنفسه قد أوله.

كيف يكون التأويل تعطيلاً والنبى دعا لابن عباس بأن يعلمه الله الحكمة وتأويل الكتاب كما في سنن ابن ماجه⁽³⁾، فلو كان كما قالت المشبهة لكان هذا من النبى دعاء عليه لا له، وهل يدعو النبى على مسلم بلا حق؟

فلو سألتني ما هي فضائل إطعام الطعام؟ أقول لك: هو من خير الأعمال، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي⁽⁴⁾ الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ»⁽⁵⁾.

وقال ﷺ⁽⁶⁾: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى سُورُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُهُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا».

وفي ذلك الخير الجزيل ففي الحديث الذي مرَّ في مشروعية التأويل⁽⁷⁾: «يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي»⁽⁸⁾، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أَطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَهُ دَلِكَ عِنْدِي».

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (120/7).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1990/4)، حديث (2569).

(3) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (58/1)، حديث (166).

(4) أي: خصائل الإسلام، أي هذا من أفضل وخير خصائل الإسلام، وإلا فالإسلام كله خير.

(5) صحيح البخاري، البخاري، (12/1)، حديث (12).

(6) المعجم الكبير، الطبراني، (453/12)، حديث (13646).

وفي سنن الترمذي⁽¹⁾ عن عائشة رضي الله عنها أهم ذبحوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»، قالت: ما بقي منها إلا كتفها، قال: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا».

ولا تدري بأيِّ عملٍ قد يُدخلكَ الله الجنةَ بلا عذاب، فاسمع إلى قول سيد الخلق: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ قَمْرَةٍ»⁽²⁾. وإلى قول الله أصدق القائلين: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِمَّا تُطْعَمُونَ لُوجِهَ اللَّهِ لَا تُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا* فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا} [الإنسان: 8 - 11].

وعلى قاعدة الشيء بالشيء يذكر يحضرنى أمر يتعلق بالاستعانة بغير الله، فكما تعرف أيها القارئ أن الاستعانة بغير الله جائزة، كيف لا والله يقول: {وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ} [البقرة: 45]، وهل الصبر والصلاة هما الله؟! وشدَّ المشبهة فكفروا من استعان بغير الله مستدلين بزعمهم بحديث الترمذي: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ»⁽³⁾.

فقال لهم أهل السنة كثرة الله:

أولاً: ليس لفظ الحديث: لا تستعن بغير الله.

ثانياً: هذا الحديث ليس فيه إلا الأولوية، وأما معنى التحريم الذي يدعونه فليس فيه ذلك.

نظير ذلك قوله⁽⁴⁾ ﷺ: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي»، فكما لا يفهم من الحديث حرمة إطعام غير التقي لا يفهم من الحديث الأول حرمة الاستعانة بغير الله، فهذا سيدنا علي والسيدة فاطمة رضي الله عنهما كانا يطعمان الكفار ونزلت بذلك آية في مدحهما، قال تعالى: {وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} [الإنسان: 8]، والأسير هنا هو الكافر.

(7) صحيح مسلم، مسلم، (1990/4)، حديث (2569).

(8) ملاحظة: الله منزه عن الأكل والشرب إذ إن الأكل والشرب إما أن يكونا حاجة أو للذة، والله لا يحتاج إلى شيء من العالمين، ولا يجوز عليه اللذة إذ هي عرض حادث.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (644/4)، حديث (2470).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (109/2)، حديث (1417).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (667/4)، حديث (2516).

(4) سنن أبي داود، أبو داود، (259/4)، حديث (4832).

وفي سنن الترمذي⁽¹⁾ قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّبَا، وَصَلَّى لِيهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال ﷺ: «اعْبُدُوا الرَّحْمَنَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»⁽²⁾.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ، فقال⁽³⁾:

«أَعْتَقِ النَّسَمَةَ، وَفُكِّ الرِّقَبَةَ»، ثم قال: «فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ، فَاطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الطَّمَانَ».

وفي صحيح مسلم⁽⁴⁾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟»، قال أبو

بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ

مَرِيضًا؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَنَ فِي أَمْرِي، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

وإطعام الطعام كان معروفًا في الجاهلية، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن

جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافع؟ فقال ﷺ: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي

خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ»⁽⁵⁾.

فائدة: قد اعتبر رسول الله ﷺ عمل ابن جدعان من التصدق على المحتاجين وصلة الرحم وغير ذلك غير نافع له لأنه لم

يكن يؤمن بالله، إذ شرط قبول الأعمال الصالحة الإيمان بالله ورسوله.

ولقد قالوا قديمًا:

لا يَسْتَوِي الْبَخْلُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْجُودُ

الْجُودُ مَكْرَمَةٌ وَالْبَخْلُ مَبْغُضَةٌ

فيا باغِي الْخَيْرِ أَقْبِلْ.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (673/4)، حديث (2527).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (287/4)، حديث (1855).

(3) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (600/30)، حديث (18647).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (713/2)، حديث (1028).

(5) صحيح مسلم، مسلم، (196/1)، حديث (365).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَيْكُنْ لَكَ بَطَانَةٌ تُعْرِفُكَ أَخْبَارَ النَّاسِ، فَمَتَى عَرَفْتَ بِفَسَادٍ بَادَرْتَ إِلَى صِلَاحٍ، وَمَتَى عَرَفْتَ بِصِلَاحٍ فَازْدَادَ رَغْبَةً وَعِنَايَةً فِي ذَلِكَ».

الشرح: يجدد الإمام الكلام في علاقة العالم بغيره، فيرشده إلى اتخاذ البطانة الصالحة، ومعنى بطانة الرجل: أهله وأقرباؤه

أي خاصته وأصحاب سره ومشورته، قال الحميدي في «تفسير غريب ما في الصحيحين»: «بطانة أي: أولياء وخاصة»⁽¹⁾.

وقال في موضع آخر⁽²⁾: «بطانة الملك: خواصه وأولياؤه الذين يشاورهم ويأخذ بأرائهم ويشاركونهم في سره».

وقال ابن الأثير في النهاية⁽³⁾: «بطانة الرجل: صاحب سره وداخلة أمره الذي يشاوره في أحواله».

وهذه البطانة تكون سالحة إذا حَضَّتْ على الخير وأعانت عليه، وأما إذا أمرت بِشَرٍّ وأعانت عليه فهي بطانة سوء، وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً وهو بطانة الإمام وأهل مشورته، أسند فيه حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَا اسْتُخْلِفَ خَلِيفَةٌ إِلَّا لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَالْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ»⁽⁴⁾.

قال العيني في عمدة القاري⁽⁵⁾: «البطانة الصاحب الوليعة والدخيل والمطلع على السريرة، وفسره البخاري بقوله:

«الدخلاء» وهو جمع دخيل وهو الذي يدخل على الرئيس في كان خلوته ويفضي إليه بسره ويصدقه فيما يخبر به مما يخفى عليه من أمر رعيته ويعمل بمقتضاه».

وقد نعى الله تعالى المؤمنين عن موالة بطانة السوء قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا

يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ } [آل

عمران: 118].

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ⁽⁶⁾: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ، إِنْ نَسِيَ ذِكْرَهُ، وَإِنْ

ذَكَرَ أَعَانَهُ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يَذْكُرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يَعْنَهُ».

(1) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، (ص104).

(2) تفسير غريب ما في الصحيحين، الحميدي، (ص235).

(3) النهاية، ابن الأثير، (1/136).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (8/125)، حديث (6611)

(5) عمدة القاري، بدر الدين العيني الحنفي، (24/269).

فالبطانة الصالحة تعرفك أخطاءك وأخطاء الرعية ولا تجامل في الحق، فعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ (1):

«إِذَا رَأَيْتُمْ أُمَّتِي لَا تَقُولُ لِلظَّالِمِ: أَنْتَ ظَالِمٌ، فَقَدْ تُدَوِّعَ مِنْهُمْ»، أي رفع الله معونته عنهم وتركهم بلا نصر.

وعن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ

أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَّوْا جَمِيعًا» (2).

ونقل الحافظ ابن حجر في الفتح (3) عن ابن التين قوله: «ينبغي للحاكم أن يتخذ من يستكشف له أحوال الناس في

السر وليكن ثقة مأموناً فطناً عاقلاً».

وهنا ننتهز الفرصة لحث القارئ اقتداءً بالإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أن يتخير ويختار البطانة الصالحة، فنحنه على

البحث عن الزوجة الصالحة والأصدقاء ورفاء الخير، فهم السُّور والعين التي تُبَصِّرُ أخطاء الشخص إن شاء الله، ولا يعني الإمام

بالبطانة التي تكشف لك من فساد البعض التجسس وتتبع عورات الناس، فشتان بين الموضوعين، فتفطن رحمك الله.

ثم إن من فائدة البطانة الصالحة أنهم إن اطلعوا على فسادٍ يعملون على تغييره، وبهذا لا يستشري الفساد ولا يستمر،

وإن رأوا ما لا بُدَّ من إنكاره أنكروا ولم يداهنوا، وبهذا تستقيم الأمور وترفع المنكرات ويقبل الشر.

فهنيئاً لمن وجد لنفسه بطانةً صالحةً تُخَوِّفُه من الله، وتذكِّره الآخرة، وتحثه على الخير، ولا تساعد على تنفيذ رغبات

نفسه مما يخالف الحق.

وهؤلاء تشتد الحاجة إليهم عند اشتداد الفاسد وانتشار الباطل وقلة القائلين بالحق والمدافعين عنه كرمنا هذا. ووجود

البطانة الصالحة اليوم أندر من الكبريت الأحمر، لأنَّ الكثير من الناس يزينون لأمرائهم وكبرائهم وساداتهم ومشائخهم الباطل.

فيا سعد من وُفِّقَ لهذا الخير العظيم بأن يكون محفوظاً محاطاً ببطانة الخير والصلاح.

(6) سنن أبي داود، أبو داود، (131/3)، حديث (2923).

(1) السنن الكبرى، البيهقي، (158/6)، (11516).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (139/3)، حديث (2493).

(3) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (190/13).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاعْتَمِدْ فِي زِيَارَةِ مَنْ يَزُورُكَ وَمَنْ لَا يَزُورُكَ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ، أَوْ أَسَاءَ».

الشرح: أمر الله سبحانه وتعالى بالإحسان لذوي القربى وهم الأرحام الذين يجب وصلهم، قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ} [البقرة: 83].

وقال تعالى: {لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ} [البقرة: 177].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} [الأنفال: 75].

وقال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ} [النساء: 36].

وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].

كما أنه سبحانه عظم قدر ذلك فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1].

وقال تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} [محمد: 22، 23].

وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَمُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد: 25].

ووردت أحاديث كثيرة فيها الأمر بصلة الرحم، فعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: أخبرني بعمل

يدخلني الجنة، فقال النبي ﷺ: «تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»⁽¹⁾.

وعن أبي ذر⁽²⁾ رضي الله عنه قال: «أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بِحِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ، أَوْصَانِي بِأَنْ لَا أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَنْ

أَنْظُرَ إِلَى مَنْ هُوَ دُونِي، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالِدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرْتُ، وَأَوْصَانِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأَنِّي، وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَوْصَانِي أَنْ أَكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كُنْتُ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ،

فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»⁽³⁾.

وصلة الرحم في سنة النبي ﷺ أمر واجب، وقاطعها عاثم، فعن عائشة⁽⁴⁾ رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ⁽⁵⁾، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ⁽⁶⁾»، وما أسوأ حال من قطعه الله فمن ذا يصله.

وعن أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعْجَلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا مَعَ

مَا يَدْخُرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»⁽⁷⁾.

وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ»⁽⁸⁾ أي: مع الأولين.

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال لها: «إِنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ، فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَحُسْنُ الْجَوَارِ يَعْمُرُنَ الدِّيَارَ، وَيَزِدْنَ فِي الْأَعْمَارِ»، أي بمشيئة الله وتقديره، وهذا في

القضاء المعلق وليس المبرم، وكل ذلك سبق في علم الله تعالى، وعلم الله لا يتبدل ولا يزيد ولا يتغير، وكذلك مشيئته وتقديره.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (104/2)، حديث (1396).

(2) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (194/2)، حديث (449).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (56/3)، حديث (2067).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1981/4)، حديث (2555).

(5) أي: بإعطائه الثواب والأجر.

(6) أي: حرم الأجر واستحق الوزر، والله منزه عن الاتصال والانفصال لأن المماساة والاتصال بالأجسام والانفصال عنها مستحيل على الله، ليس

كمثله شيء.

(7) سنن الترمذي، الترمذي، (664/4)، حديث (2511).

(8) صحيح البخاري، البخاري، (5/8)، حديث (5984).

ومن أفضل الصدقات الصدقة على ذي رحمٍ وهم أولى الناس بالصدقة، فعن سلمان بن عامر الضبي قال: قال رسول

الله ﷺ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحْمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ»⁽¹⁾.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أَبْدَأُ بِنَفْسِكَ فَتَصَدَّقْ عَلَيْهَا، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلِأَهْلِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ

أَهْلِكَ شَيْءٌ فَلِذِي قَرَابَتِكَ، فَإِنْ فَضَلَ عَنْ ذِي قَرَابَتِكَ شَيْءٌ فَهَكَذَا وَهَكَذَا»⁽²⁾.

وقد عُرفَ النبي ﷺ بصلة رحمه من قبل بعثته ما جاء في صحيح البخاري⁽³⁾ من قول أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها

في قصة بدء الوحي: «كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُغْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ».

وقد كان ﷺ يدعو أهله إلى الله، قال تعالى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: 214].

وكان يدعو لهم ويثني عليهم ويوصي بهم خيراً ويتألم لإيذاء أحد منهم، قال ﷺ: «أَذْكُرْكُمْ اللَّهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي»⁽⁴⁾.

فبعد هذا يتبين أن قول البعض: نحن نزور من يزورنا ونقطع من يقطعنا مفهوم خاطئ مخالفٌ لهدي النبي، فقد قال ﷺ

لعقبة رضي الله عنه: «يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»⁽⁵⁾.

وكأن لسان حال الذي يتصف بهذه الصفة الذميمة يقول:

ولستُ بِهَيِّابٍ لِمَنْ لَا يَهَابُنِي ولستُ أَرَى مَا لَا يَرَى لِيَا
فَإِنْ تَدُنْ مِنِّي تَدُنْ مِنْكَ مَوَدَّتِي وَإِنْ تَنَأَ عَنِّي تَلَقَّنِي نَائِيَا

ومما ينبغي التنبيه له زيارة الأحبة والإخوة في الله من غير الأرحام أيضاً، فهذه الزيارات بنية حسنة تقوي الألفة بين

المسلمين، واجتماع الأحبة وتراورهم غنيمة عظيمة، فلا ينبغي ترك هذه الزيارة لما فيها من النفع العظيم والخير العميم، فيذكر

بعضهم بعضاً بالعلم للآخرة، ويحث بعضهم بعضاً على تحصيل العلم والعمل به.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (38/3)، حديث (658).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (692/2)، حديث (997).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (7/1)، حديث (3).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1873/4)، حديث (2408).

(5) شعب الإيمان، البيهقي، (417/10)، حديث (7723).

ولا تقتصر في زيارتك على زيارة الأغنياء فقط؛ بل قدّم الفقراء على الأغنياء، فإنهم أحوج إلى المواساة وجبر الخواطر، وتردّد إلى بيوتهم، وادعهم إلى بيتك، وأجلسهم على مائدتك وأطعمهم، وكُل معهم، وهذا من شأن وسيرة رسول الله ﷺ، فإنه كان يتفقد الغرباء الذين يدخلون المدينة، ويزور الفقراء والأرقاء ويجالسهم، ويسأل عنهم ويشهد جنازتهم ويعود مرضاهم.

ولا تقتصر في زيارتك أيضاً على من يزورك فقط؛ بل زُر الكلّ، وأخلص لله في عملك، ولا تنتظر أن يردوا لك الزيارة، فأحسن على الناس وابدل لهم المعروف من الزيارة وغير ذلك، ولا تنتظر أن يردوا لك ذلك المعروف بل اعمل لله.

ولا تنتظر مكافأةً من الناس، فإنك أحوج إلى ثواب هذا العمل في الآخرة من أن يكافئك الناس عليه في الدنيا، وربما بهذا العمل إن قبِل منك أعتقك الله من النار وأدخلك الجنة بلا سابق عذاب، ويا سعدك إن نلت ذلك وحصلته.

عن معاذ بن جبل قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن ربه يقول: «حَقَّتْ (1) مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَادِلِينَ فِيّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاوِرِينَ فِيّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ» (2) أي: ظلُّ عرشه.

ولا تنس أن تعمل في هذه الزيارات على جمع المسلمين والتأليف بين قلوبهم، وإياك أن تعقد مجالس الغيبة والنميمة أو المسامرة في ذكر عورات وعيوب وزلات المسلمين.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَحَدِّ الْعَفْوِ وَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ».

الشرح: قال الله تعالى: { حُذِّ الْعَفْوِ وَأْمُرُ بِالْعُرْفِ } [الأعراف: 199]. ذكّره الإمام رضي الله عنه بهذه الفضيلة لما

حَوَّنُهُ مِنْ حَسَنِ الْخَلْقِ فِي التَّعَامُلِ مَعَ النَّاسِ، وَقَدْ بَيَّنَّتِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ أَنَّهُ يَنْبَغِي فِي مَعَامِلَتِهِمْ مِرَاعَاةَ مَا يَلِي:

- أخذ العفو، وهو ما سمحت به أنفسهم من الأخلاق، فيشكر من قابله من المسلمين من قولٍ وفعلٍ جميلٍ، ويتجاوز عن تقصيرهم، ويغضّ طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على صغيرٍ ولا على ناقص العقل ولا الفقير؛ بل يعامل الجميع باللطف وما فيه المصلحة.

(1) أي: ثبتت.

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (384/36)، حديث (22064).

- الأمر بالمعروف، أي: بكل قولٍ حسنٍ وفعلٍ جميلٍ وخلقٍ كاملٍ للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك إما تعليم علم، أو حث على خير من صلة رحم، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على برٍّ وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد وتحصيل مصلحة دينية.

ولقد كانت حياة الرسول ﷺ مليئةً بالعفو والصفح، ومن الأمثلة على ذلك أنه عفا عن كفار قريش يوم فتح مكة مع قدرته على الانتقام وقد آذوه.

وكذا يوسف الصديق عفا عن ظلمه من إخوته وقال: { لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ } [يوسف: 92].

وعن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُردٌ نجرانيٌّ غليظ الحاشية، فأدركه أعرابيٌّ فجذبته بردائه جبدةً شديدةً، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ قد أثرت بما حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء⁽¹⁾.

وكان من خلقه ﷺ مقابلة الإساءة بالإحسان، قال تعالى: { وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ } [فصلت: 34].

ومشى على خطاه ﷺ الصحابة الأعلام، فعن الزهري قال: سمعت عروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، كلٌّ حدّثني طائفةً من الحديث فأنزل الله: { إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ } [النور: 11] العشر الآيات كلّها في براتي، فقال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح لقرابته منه: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله: { وَلَا يَأْتِلْ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } الآية [النور: 22]، قال أبو بكر: بلى والله إنّي لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح التّفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبداً.

فإذا التزم الإنسان بهذه النصيحة كسب مودة الناس وحبهم فأقبلوا عليه متعلمين من حاله وقاله، فكان في ذلك نشر

لعلم الدين.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (146/7)، حديث (5809).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَعَاوَلْ عَمَّا لَا يَعْينِكَ».

الشرح: قوام هذه النصيحة وعمادها قوله ﷺ: «مَنْ حُسِنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَزَكُّهُ مَا لَا يَعْينُهُ»⁽¹⁾، فهذا الحديث من

الكلام الجامع لمعانٍ كثيرة جليلة بألفاظٍ قليلة.

فقد أرشدنا النبي ﷺ إلى الطريق الذي يبلغ به العبد كمال دينه وحسن إسلامه وصلاح عمله، فبين ﷺ أن مما يزيد المرء

حسنًا في دينه أن يدع ما لا يعنيه ولا يفيد في أمر دنياه وءآخرتة، وأن لا يتدخل في شؤون غيره على نحو يُفضي إلى التطفل. ففي

قوله ﷺ: «مَنْ حُسِنَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ تَزَكُّهُ مَا لَا يَعْينُهُ» توجيهٌ للأمة بالاشتغال بما ينفعها ويقربها من طاعة ربها كما جاء في الحديث

الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وَفِي كُلِّ خَيْرٍ أَحْرَصٌ عَلَيَّ مَا يَنْفَعُكَ»⁽²⁾ فأرشد ﷺ إلى اغتنام

الأوقات بالخيرات، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، وعمر الدنيا قصير، فهو كظل شجرة يوشك أن يذهب سريعًا، لذا فالإنسان العاقل

الذي جعل الآخرة هم والجنة ماره يغتنم أوقاته كلها.

وإن اهتمام المرء وانشغاله بما يعنيه فيه فوائد عظيمة، فالنفس إن لم تشغلها بالطاعة قد تشغلك بالمعصية، فمن اشتغل

بالناس نسي أمر نفسه وأوشك انشغاله بالناس أن يوقعه في أعراضهم بالقليل والقال، كما أن انشغال المرء بنفسه وبما يعنيه فيه

حفظ للوقت ومسارة في الخير.

ومن الأمور التي يشملها الترك في الحديث: ترك فضول الكلام ولغو الحديث. وقد امتدح الله عباده المؤمنين بقوله:

{وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ} [المؤمنون: 3] فمن صان لسانه عن فضول القول سلّم من انزلاقه فيما لا يحبه الله ويرضاه،

وحمي منطقته من الغيبة والنميمة، لذلك حث الشرع في مواطن كثيرة على لزوم الصمت إلا بما فيه ذكر الله تعالى والأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر وما أشبه ذلك، قال الله عزّ وجلّ: {لَا حَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نُّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ

النَّاسِ} [النساء: 114].

(1) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1315/2)، حديث (3976).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (2052/4)، حديث (2664).

قال ابن حجر في شرحه على الأربعين: ومن حسَب كلامه من عمله قلَّ كلامه إلا فيما يعنيه لأن من لم يعد كلامه من عمله جازف فيه ولا يتحرى، وعن معاذ قال: يا نبيَّ الله، وإنا لَمُؤاخَذون بما نتكلم به؟ فقال: «تَكَلَّمْتُكَ أُمَّكَ (1) يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَيَّ وَجُوهَهُمْ أَوْ عَلَيَّ مَنَاحِرَهُمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ» (2).

وروى ابن ماجه (3) عن النبي ﷺ أنه قال: «كَلَامُ ابْنِ آدَمَ عَلَيْهِ لَآ لَه، إِلَّا الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَذِكْرُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وليعلم الإنسان أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقدم أجلاً ولا يؤخر رزقاً؛ بل يكسبك الرتب والمعالي.

وهاك أيها القارئ بعض الأقاويل عن السلف:

فغن مالك (4) بلغه أنه قيل للقمان الحكيم: ما بلغ بك ما نرى؟ قال مالك: «يريدون الفضل»، قال: «صدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعينني».

وعن الحسن قال: «من علامة إعراض الله عن العبد (5) أن يجعل شغله فيما لا يعنيه».

وهنا مناسبةٌ للتحذير من قول بعض الجهال إذا رأوا إنساناً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر: «عليك بنفسك»، وبعضهم يقول: «كل واحد عليه بنفسه» على معنى عدم إنكار المنكر، وهذا مخالف لما مر من تأكيد إنكار المنكرات وأنه عمل عظيم يحبه الله ويرضاه، ولا عبرة بقول الجهال الذين يسكتون عن إنكار المنكرات، إذ هذا خلاف الوصية.

وفي تفسير البغوي (6) في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ } [المائدة:

105]: روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها في غير موضعها ولا

تدرون ما هي وإني سمعت رسول الله ﷺ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ يُوشِكُ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابِهِ».

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاتْرَكَ كُلَّ مَن يُوْذِيكَ».

(1) هذا للتنبيه لا للدعاء عليه.

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (12/5)، حديث (2616).

(3) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1315/2)، حديث (3974).

(4) شعب الإيمان، البيهقي، (512/6)، حديث (4546).

(5) أي: حرمانه الخير ومنعه الثواب، فلا يوصف الله بصفة من صفات خلقه.

(6) تفسير البغوي، البغوي، (95/2).

الشرح: هذه النصيحة هي لازم نصيحة مرّت قبل ألا وهي: «وخذ العفو وأمر بالمعروف» وسنبين معنى حقيقة هذه

النصيحة لئلا تُفهم على غير وجهها.

ويحسن هنا أن نعيد الحديث الذي فيه: «الْمُسْلِمَ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا

يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ»⁽¹⁾، وعلى هذا يحمل كلام الإمام، فليس مراده رضي الله عنه أن انقطع عن الناس ولا

تعاشروهم واعتزلهم ولا تكلم أحدًا منهم، إذ الحال أنك إن خالطتهم وصبرت على أذاهم تنفعهم بقولك ومقالك وفعلك وحالك،

فهو رضي الله عنه أراد بـ«اترك من يؤذيك» أي: بالصفح، والعفو، والمساحة مع الإرشاد، والتنبيه، والتوعية، والإفهام، والتربية،

والنصيحة، والصبر، والتحمل، ومبادلة الإساءة بالإحسان، والحكمة، والرزانة، والرشد، والسداد، والهدى، فهو نفسه سيقول له

فيما بعد: «وتقرب من العامة ودارِ الفجار».

زد على ذلك أن في محنته رضي الله عنه درسًا كبيرًا، ففي قصته مع المنصور يتجلى لك معنى: «واترك من يؤذيك»، فقد

دعا المنصور أبا حنيفة ليتولى القضاء فامتنع رضي الله عنه لعلمه بأن هناك من أهل عصره من هو أهل لذلك المنصب، وأنه لم

يتعين عليه تولي القضاء، فأنزل به العذاب بالضرب والحبس. وهذا درس كبير في الصبر.

وعلى هذا جرى الأئمة الأعلام، فهذا أبو العلمين القطب الغوث ملجؤنا ومفرعنا عند الشدائد أحمد الرفاعي رضي الله

عنه وأرضاه كان ذات يوم يمشي مع جمع من مريديه فعلم بذلك يهوديٌّ كان يسمع أن السيد أحمد الرفاعي حلِيم فأراد أن يمتحنه

هل هو كما يصفه الناس أم لا، فأتى إليه وقال: يا سيد أنت أفضل أم الكلب؟ وكان بقربه كلب أجرب، فقال السيد رضي الله

عنه: إن نجوت على الصراط فأنا أفضل، فأسلم اليهودي، وأسلم أهله وكثير من عشيرته. فلولا تواضع سيدنا أحمد معه لم يسلم،

فلو كان ظهر الغضب أو الكفهرار على وجهه أو قال له كلمة شتم ما رغب في الإسلام، لكن لما أعجبه شدة حلمه وتواضعه

اعترف اليهودي في نفسه بأن دين هذا السيد صحيحٌ وأسلم.

وهذا ليس بعزيرٍ عليهم ولم غريب عنهم، فقد استَفَقُوا ذلك من نَحج رسولهم الكريم، ففي قصته ﷺ مع زيد بن سعة خير

دليل، قال زيد بن سعة: إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (662/4)، حديث (2507).

أخبرها منه: يسبق حلمه جهله⁽¹⁾، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فكنت أتلف له لأن أخالطه فأعرف حلمه وجهله، قال: فخرج رسول الله ﷺ من الحجرات، ومعه علي بن أبي طالب، فأثاه رجل على راحلته كالبدوي، فقال: يا رسول الله، قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت أخبرتكم أنهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدًا، وقد أصابهم شدة وقحط من الغيث، وأنا أخشى يا رسول الله، أن يخرجوا من الإسلام طمعًا كما دخلوا فيه طمعًا، فإن رأيت أن ترسل إليهم من يغيثهم به فعلت، قال: فنظر رسول الله ﷺ إلى رجل جانبه، أراه عمر، فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله، قال زيد بن سحنة: فدنوت إليه فقلت له: يا محمد، هل لك أن تبيني تمرًا معلومًا من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: «لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمرًا معلومًا إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمى حائط بني فلان»، قلت: نعم، فبايعني ﷺ، فأطلقت همياني، فأعطيته ثمانين مثقالًا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، قال: فأعطاها الرجل وقال: «اعجل عليهم وأغنهم بها»، قال زيد بن سحنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، خرج رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار ومعه أبو بكر، وعمر، وعثمان ونفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة دنا من جدار فجلس إليه، فأخذت بمجامع قميصه، ونظرت إليه بوجه غليظ، ثم قلت: ألا تقضيني يا محمد حقي؟ فوالله ما علمتكم بني عبد الطلب بمطل، ولقد كان لي بمخالطكم علم، قال: ونظرت إلى عمر بن الخطاب وعينه تدوران في وجهه كالفلك المستدير، ثم رماني ببصره وقال: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع، وتفعل به ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي هذا عنقك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤده، ثم قال: «إنا كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء⁽²⁾، وتأمره بحسن التباة، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعًا من غيره مكان ما رعته»، قال زيد: فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعًا من تمر، فقلت: ما هذه الزيادة؟ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك، فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت؟ قلت: أنا زيد بن سحنة، قال: الخبر؟ قلت: نعم، الخبر، قال: فما دعاك أن تقول لرسول الله ﷺ ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟ فقلت: يا عمر كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أختبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، فقد اختبرتهما، فأشهدك يا عمر أي قد رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وأشهدك أن شطر مالي فيني أكثرها مالا صدقة على أمة محمد ﷺ، فقال عمر: أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم، قلت: أو على بعضهم، فرجع عمر وزيد إلى

(1) أي: غضبه.

(2) هذا من النبي تعليم للأمة، وليس المراد أنه ﷺ يخشى عليه من أن لا يرد الدين أو أن يظلم فيه.

رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، فمن به وصدقته، وشهد مع رسول الله ﷺ مشاهد كثيرة، ثم توفي في غزوة تبوك مقبلًا غير مدبر⁽¹⁾.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وبادر في إقامة الحقوق».

الشرح: وصية جلييلة من إمام جليلٍ فحوهاها القيام بالقسط والدعوة إلى العدل. فالعدل من حيث المفهوم هو إعطاء كل ذي حقٍ حقه؛ وهو خُلُقٌ كريم يعنى التزام الحق والإنصاف في كل أمرٍ، والبعد عن الظلم والبغي والعدوان.

وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «اتَذَرُونَ مِنَ السَّابِقُونَ إِلَى ظِلِّ اللَّهِ (2) عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «الَّذِينَ إِذَا أُعْطُوا الْحَقَّ قَبِلُوهُ وَإِذَا سُئِلُوهُ بَدَلُوهُ، وَحَكَمَهُمُ لِلنَّاسِ كَحُكْمِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ».

تنبيه مهم: الحديث: «سَبَعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ»⁽³⁾ يفسره حديثٌ آخر: «فِي ظِلِّ عَرْشِهِ»⁽⁴⁾؛ وحيث لا يكون في مواقف القيامة ظل لبناءٍ أو جبلٍ أو جدارٍ أو شجرةٍ، ولا يكون ما اعتاد الناس في الدنيا من التقيؤ في الظلال في ذلك الموقف فلا يوجد إلا ظل العرش؛ فمن كان فيه أمن من عاب حرَّ الشمس. وإضافة الظل إلى الله هو إضافة ملكٍ أو تشريفٍ للعرش، كما في قوله تعالى: {أَنْ طَهَّرْنَا بَيْتِي} [البقرة: 125]، أي: البيت المشرف عندي، وهو الكعبة المشرفة التي بنيت لعبادة الله وتوحيده وليس معناه أن الله يسكن الكعبة ولا أن الله يجلس فيها، فهو موجود أزلاً وأبداً بلا مكان. فهذه إضافة تشريف وإضافة ملك، وأما الله فلا يتشرف بأحدٍ من خلقه، وليست إضافة جزئية لأن الله منزه عن الجسمية وعن التجزؤ والجزئية. أما بالنسبة لنا فيقول الواحد منا هذه يدي أي هي جزء مني؛ وهذا كتابي أي ملكي. فالله أضاف بعض الأشياء إلى نفسه إضافة تشريف لهذه الأشياء، أو إضافة ملكية، وليست للجزئية أو الحلول في هذه الأماكن كالكعبة لأنه سبحانه قال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]. فالله تعالى ليس جسمًا ليكون له ظل، فهو منزه عن الجسمية والحجمية وعن صفتها؛ ومنزه عن أن يكون ظلًا، ومنزه عن أن يكون خيالًا لأنه سبحانه قال: {فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ} [النحل: 74]. وأما ما قاله بعض مجسمة ومشبهة العصر الوهابية: «ظل حقيقي» فهذا كفر صراح. قال أبو حنيفة رضي الله عنه: «أَتَى يُشْبِهُ الخالق

(1) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (521/1)، حديث (288).

(2) أي: ظل عرشه لأن الله منزه عن الجسمية وصفاتها.

(3) صحيح البخاري، البخاري، (133/1)، حديث (660).

(4) المستدرک، الحاكم، (187/4)، حديث (7315).

مخلوقه»، وقال الشافعي: «المجسم كافر»، وقال أحمد بن سلامة أبو جعفر الطحاوي الوراق المصري: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر». وقد أجمعت الأمة على كفر المشبهة والمجسمة، فقد قال الفقيه الحنفي محمد بن محمد علاء الدين البخاري في كتابه «ملجمة المجسمة»⁽¹⁾ «فالمجسم كافر إجماعاً».

تتمة: في هذا الحديث الذي ورد في بداية شرح هذه الوصية موعظةً وضياءً للمتقين الذين يحشون ربحهم بالغيب، وهم من الساعة مشفقون⁽²⁾، فهو وَعْدٌ من الله لمن رضي بالحقِّ أخذًا عاملاً به مطبِّقًا ذلك على نفسه وعلى غيره قولاً وفعلاً، وحكم للناس بمثل ما يحكم هو لنفسه أو بمثل ما يجب أن يحكم هو له به، فلا يتعاطم في نفسه ويرى أن له منزلة على غيره فيرفض الحق ويظلم الناس فيكون متكبراً، ولا يعادي الحق إذا صدر على غير يديه ولا يتمتع من أداء الحق بخلاً أو ظملاً أو عتواً أو نفوراً فيستحق عقوبة الله ووعيده في العاجل والآجل، فالتقي يقبل الحق قولاً وفعلاً سواء صدر له أو عليه من بعيد أو قريب ويعطي كل ذي حق حقه كائناً من كان قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ } [المائدة: 8]، أي: لا يحملنكم بغضكم وعداوتكم لقوم على ترك العدل واطراح الحق.

ففي هذه الآيات وهذا الحديث وغيرهما أمر الله ورسوله بإقامة العدل والتمام الحق قولاً وعملاً وأخذاً وركذاً، يقول تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل: 90]، فأمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا قوامين بالقسط أي بالعدل فلا يعدلوا عنه يميناً ولا شمالاً، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا يصرفهم عنه صارف وأن يكونوا متعاونين متعاضدين متناصرين فيه.

ولقد كان رسول الله ﷺ على حُلُقِي عَظِيمٍ متخلِّقاً بما جاء به القرآن الكريم من الصفات الكريمة والخصال الحميدة من العدل والأمانة والوفاء والصدق والكرم والعفو والنصح والتواضع، فلا تجد صفة من صفات الخير إلا ونبينا محمداً ﷺ قد تبوأ القمة فيها وحاز قصبه السبق فيها.

وهنا نزيد الأمر بياناً فنقول: كل من له أدنى إلمام بالعلم يعرف أن الدعوة إلى حقوق الله شأنها عظيم وهي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام والأولياء والصالحين، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم الأئمة في هذا الشأن، وهم الأئمة في

(1) ملجمة المجسمة، ابن علاء الدين البخاري، (ص62).

(2) أي: يخافون يوم القيامة وأهواله العظيمة.

الدعوة وهي وظيفتهم لأن الله عزّ وجلّ بعثهم دعاءً للحق وهداةً للخلق، فيا لها من منزلةٍ عظيمةٍ، ويا لها من شرف، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل: 36].

فبيّن سبحانه وتعالى أن الرسل جميعًا بعثوا بهذا الأمر العظيم وهو الدعوة إلى عبادة الله وإقامة حقوق الله.

فبيّن الله أن الرسل بُعثوا {مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ} [النساء: 165]، مبشرين من أطاعهم بالنصر والتأييد والجنة والكرامة، ومنذرين من كفر بهم بالخيبة والندامة والنار.

وفي بعثتهم إقامة الحجّة وقطع المعذرة، حتى لا يقول قائل: ما جاءنا من بشير ولا نذير، فالله تعالى بعث الرُّسل إقامةً للحجّة، وقطعاً للمعذرة، وهدايةً للخلق، وبياناً للحق، وإرشاداً للعباد إلى أسباب النجاة، وتحذيراً لهم من أسباب الهلاك، فهم خير الناس وأصلحهم وأنفعهم لهم.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} [الأحزاب: 45]، [46].

وقال عز من قائل: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: 108].

فالدعوة إلى الله هي سبيل الرسل وطريقهم، وفي ذلك غاية الشرف والفضل للدعاة أتباع الرسل، المقتدين بهم السائرين على منهاجهم عليهم الصلاة والسلام.

ومن شرط ذلك أن يكون الداعية على بصيرةٍ وعلمٍ وبينّةٍ بما يدعو إليه ومما يحذر منه لئلا يضر الناس ولئلا يدعو إلى ضلالةٍ وهو لا يدري أو يدعو إلى باطلٍ وتركٍ حقٍّ وهو لا يدري، وحتى يكون على بينةٍ فيعرف ما يدعو إليه وما يدعو إلى تركه. قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل: 125].

فهذا الأمر العظيم وإن خوطب به النبي ﷺ فهو أمر للأمة جميعاً لأن القاعدة الأصولية تقول: إن أمته تابعة له في الأمر والنهي إلا ما دل الدليل على أنه خاصٌ بالنبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

ففي ما تقدم بياناً لكيفية الدعوة وأسلوبها ونظامها وما ينبغي للداعي أن يكون عليه، فادع أيها القارئ إلى الله بآياته وسنة رسوله لما فيها من الحكمة والفقہ والهدى والبيان والإيضاح، وليكن الداعي ذا حكمةٍ وذا موعظةٍ حسنة.

ومن الحكمة إيضاح المعنى وبيانه بالأساليب المؤثرة التي يفهمها المدعو، وبلغته التي يفهمها حتى لا تبقى عنده شبهة وحتى لا يخفى عليه الحق بسبب عدم البيان أو بسبب عدم إقناعه بلغته.

وحقيقٌ بطالب العلم أن يبادر ويسارع إلى هذا المقام العظيم مقام الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الدعوة إلى الله والإرشاد إلى دينه الحق. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

هذه الآية العظيمة تبين لنا أن الداعي إلى الله عزّ وجلّ ينبغي أن يكون ذا عمل صالح يدعو إلى الله بلسانه وبأفعاله. ومن الدعوة إلى الله الداخلين في هذه الآية المؤذنون المسلمون المخلصون، فإنهم دعاة إلى طاعة الله وعبادته ينادون على رؤوس الأشهاد بتأدية ما أمر الله به له وتعظيمه والشهادة له بالوحدانية ولنبيّه بالرسالة.

ومما صح في السنة⁽¹⁾ عن رسول الله ﷺ في شأن الدعوة وفضلها قوله ﷺ لما بعث علياً رضي الله عنه: «انْفُذْ عَلَيَّ رِسْلَكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْرِجْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»، وفي الحديث⁽²⁾: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا».

فبعد هذا الغيض من الفيض، ينبغي أن تخرج أيها القارئ الكريم — لا سيما إن عرفت أن هذا نزر قليل من جليل ما ورد — بنتيجة وخلصاً فيها نجاتك في الدنيا والآخرة، والله المستعان.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ مَرَضَ مِنْ إِخْوَانِكَ فَعُدَّهُ بِنَفْسِكَ، وَتَعَاهَدَهُ بِرُسْلِكَ».

الشرح: ليعلم أن عيادة المريض وزيارته من الآداب الرفيعة التي حثَّ الإسلام المسلمين عليها وجعلها من أولى حقوق المسلم على أخيه المسلم؛ بل ومن سبل التآلف بين القلوب الذي امتنَّ الله تعالى علينا به في كتابه الكريم حيث قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا

(1) صحيح البخاري، البخاري، (134/5)، حديث (4210).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (2060/4)، حديث (2674).

يَجْبِلُ اللَّهُ جَمِيعًا وَلَا تَفْرُقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ { [آل عمران: 103].

وهذه العبادة تذكر المريض بأقوى رابط بين المسلمين وهو الأخوة في الإسلام، فيكون ذلك سبباً في تخفيف آلامه وأحزانه. لذا كان من أدب السلف إذا فقدوا أحداً من إخوانهم سألوا عنه، فإن كان غائباً دعوا له وخلفوه خيراً في أهله، وإن كان حاضراً زاروه، ومن كان مريضاً عادوه، يقول الأعمش رحمه الله: «كنا نقعد في المجلس فإذا فقدنا الرجل ثلاثة أيام سألنا عنه فإن كان مريضاً عدناه».

وقد ورد في الأثر عن سيد البشر ﷺ أنه قال: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قيل: ما هنَّ يا رسولَ الله؟ قال: «إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدِ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»⁽¹⁾.

ولأهمية هذا الخلق الطيب الذي هو من قبيل التواصل ونشر الألفة والمحبة جعل لزيارة المريض فضلاً وثواباً كبيراً كما جعلت له آداب جميلة الالتزام بها.

أولاً: فضل وثواب عيادة المريض:

1- ثواب الملك الغفار: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدَّنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدَّهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟» الحديث⁽²⁾. وقد مر الكلام على الحديث سابقاً، ودُكر باختصار تنزه الله عز وجل عن الصحة والمرض، إذ هما صفات الخلق. قال النووي⁽³⁾: «قال العلماء: «إنما أضاف المرض إليه سبحانه وتعالى والمراد العبد تشريفاً للعبد وتقريباً له، قالوا: ومعنى «وَجَدْتَنِي عِنْدَهُ»، أي: وجدت ثوابي وكرامتي»، وانظر في معنى هذا الحديث وما فيه من فائدة إثبات التأويل فيما سبق.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1705/4)، حديث (2162).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1990/4)، حديث (2569).

(3) شرح صحيح مسلم، النووي، (126/16).

2- صلاة الملائكة عليه: فمن فضائل وثمار عيادة المريض أن الملائكة تصلي على العائد وتستغفر له، فعن علي رضي الله

عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدُوًّا إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمِيسَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ، وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ فِي الْجَنَّةِ»⁽¹⁾، أي: بستان.

3- نزول الرحمة: فعن مروان بن أبي داود قال: أتيت أنس بن مالك فقلت: يا أبا حمزة إن المكان بعيدٌ ونحن يعجبنا أن

عودك. فرفع رأسه فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَيُّمَا رَجُلٍ يَعُودُ مَرِيضًا، فَإِنَّمَا يَخُوضُ فِي الرَّحْمَةِ، فَإِذَا قَعَدَ عِنْدَ الْمَرِيضِ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ»، قال: قلت يا رسول الله هذا للصحيح الذي يعود المريض، فالمريض ما له؟ قال: «تُحَطُّ عَنْهُ ذُنُوبُهُ»⁽²⁾.

4- السعادة والنعيم: فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَحَدًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ

وَطَابَ مَمَشَاكَ وَتَبَوَّاتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»⁽³⁾.

ثانياً: آداب عيادة المريض:

1- اختيار الوقت المناسب: بحيث لا تُسبب للمريض وأهله حرجاً، فقد يكون المريض نائماً بل توسَّطُ وتمهَّلُ ولا تُهمِّلُ.

2- سؤال المريض عن حاله: فمن زار مريضاً بدأه بالسؤال عن حاله من غير إثقال عليه، فعن محمود بن لبيد قال: لما

أصيب سعد يوم الخندق فتقل، حوِّله عند امرأة فكانت تداوي الجرحى فكان النبي ﷺ إذا مرَّ به يقول: «كَيْفَ أَمْسَيْتَ؟»، وإذا أصبح يقول له: «كَيْفَ أَصْبَحْتَ؟» فيخبره. أخرجه البخاري في الأدب المفرد⁽⁴⁾.

3- رقية المريض والدعاء له: من السنَّة إذا عدت مريضاً أن تدعو له بالشفاء وأن ترقيه، فعن أنس بن مالك أن رسول الله

ﷺ كان إذا دخل على مريضٍ قال: «أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا»⁽⁵⁾.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (291/3)، حديث (969).

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (179/20)، حديث (12782).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (3659/4)، حديث (2008).

(4) الأدب المفرد، البخاري، (ص385)، حديث (1129).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (121/7)، حديث (5675).

وعن عبادة بن الصامت قال: دخلت على رسول الله ﷺ أعوده وبه من الوجع ما يعلم الله شدة، ثم دخلت عليه من العشي وقد برئ أحسن برئ فقلت له: دخلت عليك غدوة ولك من الوجع ما يعلم الله شدة، ودخلت عليك العشية وقد برئت فقال: «يا ابن الصامت إن جبريل رقايني برقية برئت ألا أعلمكها؟»، قلت: بلى، قال: «باسم الله أرقبك، من كل شيء يؤذيك، من حسد كل حاسد وعين، باسم الله يشفيك»⁽¹⁾.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «ما من عبد مسلم يعود مريضاً لم يحضر أجله فيقول سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عوفي»⁽²⁾.

ومما يهدى إلى المريض تذكيره بوصية النبي ﷺ في الاستشفاء، فقد جاء عثمان بن أبي العاص إلى النبي ﷺ يشكو وجعاً في جسده فقال له: «ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: باسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرات أعود بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»⁽³⁾.

وفي الأحاديث المتقدمة بيان لجواز الرقية الصحيحة الموافقة للشرع وقد فعلها النبي ﷺ وفعلت له وأمر بفعلها، وحاشاه أن يأمر بشرك أو حرام، وبهذا يفسر ما ورد في بعض الأحاديث من ترك الرقية إذ هو محمول على الرقى المخالفة للشرع مما فيه استنجاد بالشياطين وغير ذلك، وإلا لزم التناقض في كلامه ﷺ وهو مستحيل عليه ﷺ.

4- تذكير المريض بالصبر على المرض: ينبغي لمن زار مريضاً أن يذكره بالصبر على مرضه وجزاء الصابرين الذي وصفه ربنا تبارك وتعالى في كتابه الكريم فقال: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} [البقرة: 155 - 157].

وعن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «ما من مريض أصيب المصيبة إلا كفر الله بما عنده، حتى الشوكة يشاكها»⁽⁴⁾.

يا صاحب الهم إن الهم منقطع	أبشرك بذلك فإن الكافي الله
إذا بليت فثق بالله وارض به	إن الذي يكشف البلى هو الله

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (420/37)، حديث (22759).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (410/4)، حديث (2083).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (1728/4)، حديث (2202).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (114/7)، حديث (5640).

5- عدم إطالة الزيارة: أخي العائد لا تُطَلِّجْ جلوسك عند المريض، قال الشاعر:

أدبُ العيادة أن تكون مُسَلِّمًا وتُثَمِّمَ في إثر السَّلامِ مودِّعًا

بل قد نصح النبي ﷺ وعلم ووعظ في شأن الزيارة عمومًا أبا ذر فقال: «يا أبا ذر غيبًا تزدد حبًا»، رواه الطبراني (1).

6- تقليل السؤال: فبعض الناس يُكثِر من سؤال المريض عن حاله، وهذا مما يرهق المريض. يروى أنه دخل رجل على عمر

بن عبد العزيز يعوده في مرضه فسأله عن علته فأخبره، فقال الزائر: عن هذه العلة ما شفي منها فلان ومات منها فلان،

فقال عمر: إذا عدت مريضًا فلا تنع إليه الموتى، إذا خرجت عنا فلا تعد إلينا.

7- يفسح له في الأمل: مما يذكر في هذا الباب التخفيف عن المريض وذلك بذكر الشفاء والمعافة بإذن الله، فعن أبي سعيد

الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلْتُمْ عَلَى الْمَرِيضِ، فَتَنَفَسُوا لَهُ فِي الْأَجْلِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ شَيْئًا، وَهُوَ

يُطَيِّبُ بِنَفْسِ الْمَرِيضِ» (2).

8- طلب الدعاء من المريض: فإذا دخلت على مريض فسله الدعاء، قال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ

السُّوءَ} الآية [النمل: 62]. وعن عمر بن الخطاب قال: قال لي النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلْتَ عَلَى مَرِيضٍ، فَمَرَّةٌ أَنْ يَدْعُوَ

لَكَ» (3).

ولقد لخص الحافظ ابن حجر آداب عيادة المريض فقال (4): «في العيادة أن لا يطيل العائد عند المريض حتى يُضجره

وأن لا يتكلم عنده بما يزعجه».

وجملة آداب العيادة عشرة أشياء، ومنها ما لا يختص بالعيادة:

1- أن لا يقابل الباب عند الاستئذان، وأن يدق الباب برفق، وأن لا يُبهم نفسه كأن يقول: «أنا».

2- وأن لا يحضر في وقتٍ غير لائقٍ بالعيادة كوقت شرب المريض الدواء.

3- وأن يخفف الجلوس.

4- وأن يغض البصر.

(1) وهو ضعيف عند بعض الحفاظ لم يصح عندهم رفعه إلى النبي ﷺ.

(2) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (462/1)، حديث (1438).

(3) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (463/1)، حديث (1441).

(4) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (126/10).

5- وأن يقلل السؤال.

6- وأن يظهر الرقة.

7- وأن يخلص الدعاء.

8- وأن يوسع للمريض في الأمل.

9- وأن يشير عليه بالصبر لما فيه من جزيل الأجر.

10- وأن يحذره من الجزع لما فيه من الوزر⁽¹⁾.

وأخيراً نقول للعائد: اجعل زيارتك خالصةً لوجه الله، فإن الله لا يقبل من العلم إلا ما كان خالصاً له، وإن لم تستطع الزيارة والعيادة أنب عنك ووكّل من يزور ويتفقد حال المريض، وتعهّده واطمئنّ عليه برسلك.

ومما ينبغي تذكير المريض به المحافظة على الصلوات في مرضه، وأن لا يترك الصلاة مهما اشتد به الألم، فإن رسول الله ﷺ كان في مرضه الذي توفي فيه يُعمى عليه من شدة الألم فإذا أفاق قال: «أَحَانَتِ الصَّلَاةُ؟» فيقولونك نعم، فيقول: «إِلَيَّ بِالْوُضُوءِ»⁽²⁾، فيتوضأ ويصلي، فإذا سلم من صلاته أغمي عليه.

فإذا كان هذا حال رسول الله ﷺ، فكيف يتجرأ بعض المرضى أن يتركوا الصلاة في مدة مرضهم؟ والله تعالى حكيمٌ لطيفٌ بهم، وهو سبحانه الذي قال: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ} [إال عمران: 191]، فقد رخص سبحانه للمريض الذي لا يستطيع القيام أن يصلي جالساً مستقبلاً القبلة أو مستلقياً أو مضطجعا على حسب ما يستطيع، وليس له ذلك إلا إن عجز عمّا يلزمه الإتيان به كالقيام مثلاً، فلا يصح أن يصلي جالساً مع القدرة على القيام لحديث عمران بن الحصين أن رسول الله ﷺ قال: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَىٰ جَنْبٍ»⁽³⁾.

ولقد رأينا وعلمنا من كثيرٍ من المرضى في أيامنا هذه أنهم يهملون الصلاة والعياد بالله، فإن من ترك صلاة واحدة مفروضة بلا عذرٍ يكون فاسقاً خبيثاً ملعوناً ظالماً مجرمًا حل عليه سخط الله وغضبه، ويكون من عظم ذنبه قريباً من الكفر ويخشى عليه من سوء الخاتمة، وديننا والله الحمد يُسرّ سهلٌ، فالمرضى الذي لا يستطيع أن يصلي كل صلاةٍ في وقتها لشدة الألم والمرض

(1) أي: هذا الجزع الذي يؤدي إلى ارتكاب فعلٍ أو قولٍ محرم.

(2) بفتح الواو وهو ماء الوضوء.

(3) صحيح البخاري، البخاري، (48/1)، حديث (1117).

يجوز له الجمع من غير قصرٍ لأنه مقيمٌ، فيجمع الظهر مع العصر تقديمًا أو تأخيرًا على حسب استطاعته ويصليهما من غير قصر، فهو مرخص له بالجمع وبالجلوس إن عجز عن القيام. فكيف يتجرأ البعض على التهاون في أمر الصلاة، نعوذ بالله من سوء الحال وسوء المنقلب.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «ومن غابَ منهم فتفقَدَ أحواله. ومن قعدَ منهم عنكَ، فلا تقعدُ أنت عنه».

الشرح: يُكْمِلُ الإمام في بيان أهمية التواصل مع الغير، فبعد أن ذكر عيادة المريض أتبع ذلك بالكلام على تفقد أحواله، وهذه التفاتة مهمة ذبَّلَ بها هذا الكلام فأطرب فأفاد وأجاد.

يقول الله سبحانه وتعالى: { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المائدة: 2]، ويقول النبي ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»⁽¹⁾.

هذه الأدلة وغيرها من الكتاب والسنة تدعوننا إلى العناية والاهتمام بإخواننا المسلمين أفرادًا وجماعاتٍ في كل بقاع الأرض، وتفقد أحوالهم ومعرفة واقعهم وتحسس ألامهم ورصد احتياجاتهم ومعرفة مطالبهم ثم العمل على مساعدتهم كل بحسب استطاعته، مع العناية بتقديم الأهم على المهم وهكذا فهناك من المسلمين في بلاد المسلمين وفي غيرها من البلدان الأخرى من يحتاجون إلى الطعام والكساء، وهناك من يحتاج إلى التعليم والتدريب على نشر العلم، وهناك من يحتاج إلى الكتاب والمدرسة، وهناك من يحتاج إلى بناء مسجدٍ تقام فيه الصلاة ويذكر فيه اسم الله، وهناك من يحتاج إلى المدرس والمرشد والداعية إلى الله يذكرهم بالله ويبين لهم حقيقة الإسلام ويوضح لهم أحكام دينهم حتى يعبدوا الله على بصيرةٍ وهدى، وهناك من يحتاج إلى الطبيب والمشفى لعلاج مرضاهم وإلى مأوى مناسب يقيهم الحر والبرد.

وهاك أيها القارئ بعض النصائح مؤيدة بما ورد من هديه ﷺ وسيرته:

أخي إذا كان لك من يأتيك من أصحابك ويجالسك فتفقده إذا تأخر عنك فإذا جاء فأسأله وقل له: أين كنت؟ ثم بين له أحكام دينه إن كان تأخر بسبب شيء يجهله لأن أبا هريرة لقي الرسول ﷺ في طريق من طرق المدينة وهو جنبٌ فانسل عنه فاغتسل فتفقده الرسول ﷺ فلما جاء قال: «أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟»، قال: يا رسول الله لقيتني وأنا جنب فكرهت أم أجالسك

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1999/4)، حديث (2586).

حتى اغتسل، فقال رسول الله ﷺ: «سُبْحَانَ اللَّهِ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ»⁽¹⁾. وفي بعض الروايات قال له: «لَوْ بَقِيَتْ كَانَ خَيْرًا»، معناه: استمرارك معنا للتعلم مما أقوله أفضل لك، وهذا دليل على أهمية مجالسة الرسول والاستماع إلى تعاليمه ولو مع وجود الجنابة، وفيه أن المؤمن لا يصير نجسًا بالجنابة، وأنه يجوز له الخروج من بيته والمشي في الأسواق ومخالطة الناس والعمل والأكل والشرب، إذ المهم أن لا يضيع الصلاة.

وَتَفَقَّدَ مِنْ لَهُ عَمَلٌ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ إِنْ تَأَخَّرَ، وَاسْأَلَ عَنْهُ، فَإِنْ كَانَ مَاتَ فَصَلِّ عَلَيْهِ وَغَنِّ لَمْ يَحْصِلْ لَكَ الصَّلَاةُ عَلَيْهِ فَاذْهَبْ وَصَلِّ عَلَى قَبْرِهِ إِنْ تيسر، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أنّ امرأة سوداء كانت تقم المسجد - أي: تكنسه - ففقدتها رسول الله ﷺ، فسأل عنها فقالوا: ماتت، قال: «أَفَلَا كُنْتُمْ ءَادَنْتُمُونِي»، قال: فكأثم صغروا أمرها فقال: «ذُلُونِي عَلَى قَبْرِهَا» فدلّوه، فصلّى عليها، وقد تقدّم.

وإذا لاحظت على أصحابك بعض التأخر عن بعض الطاعات المندوبة فوجههم إليها بأسلوب جميل مناسب، فقد روى أبو سعيد أن رسول الله ﷺ رأى في أصحابه تأخرًا فقال لهم: «تَقَدَّمُوا فَأَتَمُّوا بِي، وَلِيَأْتَمَّ بِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ، لَا يَزَالُ قَوْمٌ يَتَأَخَّرُونَ حَتَّى يُؤَخَّرَهُمُ اللَّهُ»⁽²⁾.

وإذا كان من يجالسك ويورك ممن يستفاد من مجالسته بالعلم والخير فاطلب منه أن يزورك أكثر، فقد قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا» فنزلت { وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا } [مريم: 64].

فمن الأولويات على الراعي تجاه رعيته أن يتفقدهم، ويسأل عن أحوالهم، ويلتمس همومهم ومشاكلهم، ويلبي حوائجهم وطلباتهم، ويحفظ حقوقهم ويتعاون معهم على أداء مسؤولياتهم، وينصحهم، ويكثر لهم الخير، ويقلل لهم الشر مع حفظ حقهم، وأن يحذر من الوقعة في أعراضهم أو الجراة عليهم بتنقيصهم أو الدعاء عليهم.

فانظر أخي إلى سيدنا سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام وهو يتفقد حال شيء لم يكن بشرًا ولا رجلًا وإنما كان طيرًا من الطيور غاب عنه وفارق قومه، فقام سيدنا سليمان بالسؤال عنه، قال تعالى: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ } [النمل: 20].

(1) صحيح مسلم، مسلم، (282/1)، حديث (371).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (325/1)، حديث (438).

أما نبينا ﷺ فقد ضرب مثلاً رائعاً في تفقد الرعية ومتابعة المتبوعين، فقد كان بأبي هُوَ وأمِّي يتفقد أصحابه، ويتابعهم في مشكلاتهم، ويتابعهم في الجهاد في سبيل الله، ويقف في مؤخرة⁽¹⁾ الجيش ليحمل الضعيف، ويعين المكلوم⁽²⁾ ويتابعهم في أحوالهم وأفراحهم، ويتفقدهم، ويعودهم، ويسأل عنهم، ويرسل إليهم.

ويقول زيد بن أبي أوفى: دخلت على رسول الله ﷺ مسجد المدينة فقال: «أَيْنَ فُلَانٌ؟ أَيْنَ فُلَانٌ؟» فجعل ينظر في وجوه أصحابه ويتفقدهم ويبعث إليهم حتى اجتمعوا عنده فحمد الله وأثنى عليه فأخى بينهم.

والأمثلة على ذلك كثيرة، فينبغي للواحد منا الاقتداء بهؤلاء الأكابر في هذه الخصال الحسنة، ولذا ذكرها الإمام في وصيته لما رأى من أهميتها.

وكان من أخلاق مولانا أبي العلمين الرفاعي الكبير رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا بركاته أن يتفقد أحوال مرديه ويسأل عنهم، فيعود المريض ويخرج لقضاء حاجة المحتاج منهم، وربما خرج من قريته أم عبيدة إلى مسافة يومين ليعود مريضاً ثم يرجع ويمسك بيد الأعمى الذي يراه في الطريق ويوصله حيث أراد، ولا يطلب ذلك من مرديه بل بنفسه يفعل ذلك.

وكان إذا جاء من سفر وأشرف على قريته يحمل الحطب على رأسه للأرامل والأيتام، فيقتدي به أتباعه في ذلك فإذا دخلوا القرية وزعوه على من يحتاجه من الأرامل والأيتام والفقراء.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَصِلْ مَنْ جَفَاكَ».

الشرح: قد مرَّ الكلامُ في وصية الإمام على الإحسان إلى من أساء، والحث على زيارة من يزورك ومن لا يزورك، فلذا ننتهزها فرصة للكلام على الجفاء.

إن مما يحزن الإنسان العاقل في هذه الأيام كثرة الجفاء بين الإخوان والأصحاب، فتجد بعضهم يجفوا إخوانه وأقرانه الذين طالما جلس معهم فأفادهم وأفادوه؛ بل قد يصل الحال بالبعض إلى جفاء وهجران من له الفضل في هدايته وتربيته وصلاح أمره، ويغفلون أن التآلف والتآخي في الله هو من ثمرة حسن الخلق، وأن الجفاء صفة ذميمة ومظهر من مظاهر سوء الخلق الذي يورث

(1) وأثناء المعركة يكون في الطليعة أقرب ما يكون إلى العدو كما قال سيدنا علي: «كنا إذا احمررت الحدق واشتد الوطيس نحتمي برسول الله». وكما روي عن بعض الصحابة: «أجرؤنا الذي يكون قريباً من رسول الله في المعركة»، لأنه ﷺ يواجه العدو ولا يختبئ بل يعرفهم بنفسه ويقول لهم: «أنا النبي لا كذب» لأنه ﷺ أشجع الناس.

(2) أي: المصاب بالجروح.

التفرق والوحشة بين الناس، ويقطع ما أمر الله به أن يوصل، فكم من بيتٍ خرب وأسرّةٍ تهدمت بسببه؟ وكم من جفوةٍ ونفرةٍ بين الأحبة حدثت بسبب غلظة الطبع وترك الرفق في الأمور؟

وقد وردت النصوص القرآنية بدم الجفاء والتنفير منه؛ قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّفُتِنًا لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ} [آل عمران: 159]، وقال سبحانه: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 43]، وقال تعالى: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: 16].

وأيضًا جاء النهي عن الجفاء على لسان خير الورى، فقد قال ﷺ: «وإذا كانت العراة الحفاة الحفاة رؤوس الناس فذاك من أشرط الساعة». متفق عليه.

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَجِلُّ لِرَجُلٍ أَنْ يَهْجَرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ: فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ»⁽¹⁾.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ⁽²⁾: «الْمُؤْمِنُ مَأَلْفَةٌ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَأْلَفُ وَلَا يُؤْلَفُ».

يقول ابن الجوزي في صيد الخاطر⁽³⁾: «كان لنا أصدقاء وإخوان اعتد بهم فرأيت منهم من الجفاء وترك شروط الصداقة والأخوة عجائب، فأخذت أعتب، ثم انتبهت لنفسى فقلت: وما ينفع العتاب، فإنهم إن صلحوا فللعتاب لا للصفاء». ومراده حيث لا ينفع العتاب.

ويقول أبو حامد الغزالي⁽⁴⁾: «وهفوة الصديق لا يخلو إما أن يكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقه بتقصيره في الأخوة؛ أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يَقْوَمُ أوده ويجمع شمله ويعيده إلى الصلاح والورع، أما تقصيره في حقه الأولى العفو والاحتمال».

(1) صحيح البخاري، البخاري، (21/8)، حديث (6077).

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (492/37)، حديث (22840).

(3) صيد الخاطر، ابن الجوزي، (ص391).

(4) إحياء علوم الدين، الغزالي، (183/2).

والجفاء والغلظة صفتان غير محبتين في الشرع، فينبغي للمؤمن أن يتخلى عن العنف والقسوة والعبوس وسوء المعاملة وأن يتحلّى بالرفق والرحمة والبر والعطف والحلم ومجاهدة نفسه في التباعد عن أسباب العنف وصوره. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} [الشمس:9، 10]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: 69].

فلتخلق بأخلاق الكُمَّل؛ فالمؤمن المتواضع هَيِّئْ لِيِّنْ، سهلٌ ذلُولٌ، منقاد للحق، يألف ويؤلف، بخلاف الجاني الغليظ الذي لا يألف ولا يؤلف. فقد كان ﷺ ألين الناس، يصل الرحم، ويحمل الكلَّ، ويكسب المعدوم⁽¹⁾، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق، ومن كان كذلك لا يجزيه الله أبداً، كما قالت أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها في رسول الله ﷺ.

وقد قال رسول الله ﷺ: «الإيمانُ في أهلِ الحِجَازِ، وَغِلْظُ القُلُوبِ وَالجِفاءُ في أَهلِ المَشْرِيقِ»⁽²⁾، أي: في جهة نجد.

فينبغي للمؤمن الكامل أن يجاهد نفسه في زيارة إخوانه، والإحسان إليهم، ووصلهم بالعطاء، وتفقد أحوالهم، لما في ذلك من الثواب والأجر والفائدة والمصلحة العظيمة، وأن يجاهد نفسه في الشفقة والرحمة والتواضع والإحسان وترك الجفاء، والابتعاد عن الغلظة وسوء الخلق والقطيعة والتباغض والتدابير فتصلح المجتمعات ويتقوى المسلم بالتآلف مع إخوانه؛ وفي ذلك قوة للإسلام وأهله وإرعاب لأهل الكفر والضلال والنفاق.

فهنيئاً لمن ترك الجفاء واقتدى بسيد الأصفياء محمد ﷺ، وبسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وبالأولياء رضوان الله تعالى عليهم، ففي متابعتهم الخير والفلاح، وفي ترك ذلك الخيبة والحسرة والندامة.

قَالَ الإمامُ أَبُو حنيفةَ رضي اللهُ عنه: «وأكرمُ مَنْ أتاك».

الشرح: إن إكرام الضيف من مكارم الأخلاق وجميل الخصال التي تحلّى بها الأنبياء وحث عليها المرسلون وأنصَفَ بها الأجواد كرامُ النفوس.

وقد حثنا نبينا محمدٌ ﷺ على إكرام الضيف، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»⁽³⁾، أي أن هذا من كمال الإيمان.

(1) أي: يعطي المحتاج الذي ليس له ما يكفيه.

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (422/22)، حديث (14558).

وعن أبي شريح خويلد بن عمرو قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي ﷺ فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ جَائِزَتَهُ»، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: «يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَالضَّيْفَانَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ وَرَاءَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ»⁽¹⁾.

ويقتر النبي ﷺ سلمان الفارسي على قوله لأبي الدرداء: «إِنْ لِيُضَيْفَكَ عَلَيْكَ حَقًّا»⁽²⁾.

وعن أبي هريرة، قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني مجهدٌ⁽³⁾، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق، ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهنّ مثل ذلك: لا، والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال: «مَنْ يُضَيِّفُ هَذَا اللَّيْلَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ؟»، فقام رجلٌ من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رحله⁽⁴⁾، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني، قال: فعللّهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئي، قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ، فقال: «قَدْ عَجِبَ اللَّهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»⁽⁵⁾، والمراد رضي، إذ الانفعال والشعور والإحساس والتعجب والتعب عرضٌ يقوم بالمخلوق وصفة منشؤها تغيرٌ يحصل عند المُحدَث، وكل هذا لا يليق بالله. وقد مرّ الكلام على الرواية الأخرى وهي: «ضَحِكٌ» وبيّنا أن المراد الرحمة.

فانظر إلى هذا الكرم كيف رفع منزلة أهل هذا البيت بل حتى إنهم نزل بهم قرآن، قال تعالى: {وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9].

(3) صحيح البخاري، البخاري، (32/8)، حديث (6135).

(1) صحيح البخاري، البخاري، (11/8)، حديث (6019).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (608/4)، حديث (2413).

(3) المجهد هو من أصابه الجهد والمشقة والحاجة والجوع.

(4) منزله.

(5) صحيح مسلم، مسلم، (1624/3)، حديث (2054).

وهنا نود أن نلفت إلى آداب عظيمة في الزيارة، إذ ينبغي للمضيف عدم احتقار القليل بل يجود بما عنده ولو بشقّ تمرّة، وقد نحى رسول الله ﷺ عن احتقار القليل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لَا تَخْفِرَنَّ جَارَةَ جَارَتِهَا، وَلَوْ فَرَسَنَ شَاةً»⁽¹⁾.

وعنه ﷺ قال⁽²⁾ وَكَانَ أَحْيَرَ⁽³⁾ النَّاسِ لِلْمَسْكِينِ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، كَانَ يَنْقَلِبُ بِنَا فَيُطْعِمُنَا مَا كَانَ فِي بَيْتِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لِيُخْرِجَ إِلَيْنَا الْعُكَّةَ⁽⁴⁾ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، فَتَشْفُهَا فَنَلْعُقُ مَا فِيهَا».

قال ابن حبان⁽⁵⁾: «ينبغي للعاقل ابتغاء الأضياف وبذل الكسر لأن نعمة الله إذا لم تصن بالقيام في حقوقها ترجع من حيث بدأت، ثم لا ينفع من زالت عنه التلهف عليها ولا الأفكار في الظفر بها، وإذا أدى حق الله فيها استجلب النماء والزيادة واستدخر الأجر في القيامة».

ولا تنس طلاقة الوجه فقد روي عن الأوزاعي أنه قال: «إكرام الضيف طلاقة الوجه وطيب الكلام».

فانظر أيها القارئ إلى فقه الإمام الأوزاعي الذي جعل من إكرام الضيف طلاقة الوجه وطيب الكلام، وقارن ذلك مع بعض الناس اليوم الذين يظنون الضيافة هي مجرد تكثير الطعام، حتى إنك تجد بعضهم يمتنع عن القرى لعدم وجود اللحم في حال وجود الضيف، والقاصد لوجه الله يجود بالموجود ولا يتكلف التكلف الذي هو فوق الطاقة، وأما ما دون ذلك فلا بأس به بل هو محمود لقول الله في شأن خليفه إبراهيم لما أتاه الأضياف: {فَرَأَعَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} [الذاريات: 26]. وقال تعالى: {فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ} [هود: 69].

وعن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، فَوُومُوا» فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً وسهلاً، فقال رسول الله ﷺ: «أَيْنَ فُلَانٌ؟»، قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً

(1) صحيح البخاري، البخاري، (153/3)، حديث (2566).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (19/5)، حديث (3708).

(3) أي: من خيرهم.

(4) وعاء من جلد يوضع فيه السمن والعسل.

(5) روضة العقلاء، ابن حبان، (ص 261).

مَيِّ. قال: فانطلق فجاءهم بعددٍ فيه بسرٌّ وتمرٌّ ورطبٌ، فقال: كلوا من هذه وأخذ المُدِّيَّة⁽¹⁾ فقال له رسول الله ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ» فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِدْقِ وشربوا.

ومن تمام الضيافة أن تفرح بمقدم ضيفك، وتظهر له البشر، وأن تلاطفه بحسن الحديث وتشكره على مجيئه، وتقوم بخدمته.

قال ابن حبان⁽²⁾: «ومن إكرام الضيف طيب الكلام وطلاقة الوجه والخدمة بالنفس فإنه لا يذل من خدم أضيافه». وإذا قدم عليك أكثر من ضيف فاقبل على كلِّ واحدٍ منهم بوجهك ولا تخصَّ أحدًا دون الآخر بحديثك أو شيء من ضيافتك، وحاول أن تلتمس رضا كل واحد منهم.

ولقد كان رسول الله ﷺ أكرم النَّاسِ لضيوفه وأجودهم وأسخاهم، ومن بُحورِ سُنَّتِهِ تَعَلَّمْنَا الرُّقِيَّ. رزقنا الله حُسن الاقتداء به، ءامين.

تنبيه: ضيِّع كثير من النَّاسِ في هذه الأزمنة هذا الخُلُقَ العَظِيمَ فأحجموا وأعرضوا عن استقبال الضيف وإكرامه، ونشوا ما في إكرامه وإدخال السرور إلى قلبه بإدخاله إلى بيوتهم والترحيب به وتقديم ما تيسر له مهما قلَّ من الأجر والخير والبركة؛ بل إن من الناس من يهرب اليوم من الضيف، أو ربما قال لأولاده وأهله: قولوا له والدنا ليس هنا أو فلان ليس في البيت، فمن شدَّة الجفاء لا يستقبلونه ولا يكلمونه ولا حتى عند الباب، وهذا خلاف سيرة الأنبياء والسلف الصالح.

وينبغي لصاحب البيت أن يضع نفسه مكان هذا الضيف كيف كان يجب أن يُستقبل ويُكرم ويُضاف، فليعامل أضيافه بذلك وأكثر، وبهذا الإحسان قد يُعتق الإنسان المسلم من النار، وقد تُغفر له الكبائر، وقد تتحقق له من الفوائد والمصالح وتوسعة الرزق ودفع البلايا والمصائب والأمراض والأحزان عنه ما لا يخطر له على بال.

فما أحوجنا اليوم إلى التمسك بمعالي الأمور ومكارم الأخلاق، وكم تغيرت الأحوال والنفوس، وكم ابتعدنا عن سيرة السلف الصالح.

قَالَ الإمامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَاعْفُ عَمَّنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ».

(1) أي: السكين.

(2) روضة العقلاء، ابن حبان، (ص 261).

الشرح: العفو هو التَّعَاضِي عن الإساءة وترك الانتقام. والصفح هو ترك التَّأْنِيب والعتاب. قال البيضاوي: العفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك لومه. وقيل: إن العفو مأخوذٌ من عفت الريح الأثر إذا درسته.

وللعفو مكانة عظيمة يصل إليها من جاهد نفسه وكظم غيظه وخالف هواه. قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199]، وقال: {فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 109]، وقال: {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: 13]، وقال عز وجل: {فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ} [الحجر: 85].

وأخرج الإمام أحمد⁽¹⁾ بن حنبل عن عقبة بن عامر قال: لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: «يَا عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ».

وأخرج الترمذي⁽²⁾ عن أبي الأحوص عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، الرجل أمرٌ به فلا يقربني ولا يضيفني فيمر بي أفأجزيه؟ قال: «لَا، أَقْرِوه»، أي: أكرمه وأحسن ضيافته ولا تقابله بمثل فعله.

وليعلم أن من أسماه تعالى العفو الغفور، معناه: الذي يحو السيئات ويتجاوز عن المعاصي ويتوب عمن أناب ورجع، وهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب. ومغفرة الذنب خاصةً بالله تعالى.

قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا} [النساء: 43]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى: 25]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ} [آل عمران: 135].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله تعالى عفوٌ يحبُّ من عباده أن يعفو بعضهم عن بعض وأن يتجاوز بعضهم عن بعض. فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أ رأيت إن علمتُ أيَّ ليلةٍ ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قُولِي: اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُورٌ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»⁽³⁾.

فانظر أخي القارئ إلى عفو الله تعالى، عبدٌ يُسْرِفُ على نفسه ثم يتوب ويرجع فيغفر الله له جرمه وخطيئته، قال سبحانه: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} [الزمر: 53].

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (654/28)، حديث (17452).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (364/4)، حديث (2006).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (534/5)، حديث (3513).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أَبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلَا أَبَالِي⁽¹⁾، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقَرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تَشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتَكَ بِقَرَابِهَا مَغْفِرَةً»⁽²⁾.

فهو تبارك وتعالى الكريم الحليم، قال عزَّ من قائل: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: 61].

والعفو خُلُقٌ من خلق الأنبياء والمرسلين، فهذا يوسف عليه الصلاة والسلام فعل إخوته ورد في القرآن، ولما مكَّن الله ليوسف في الأرض وجاؤوا إليه يعتذرون، هل انتقم منهم أم قابلهم بالعفو والصفح والمعروف والإحسان؟ {قَالَ لَا تَثْرِبَ⁽³⁾ عَلَيْنِكُمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} [يوسف: 92].

وكان نبينا محمد ﷺ على ما أمره به ربه، دائم العفو، كثير البر، لين الطبع، حتى امتدحه ربه في كتابه وأثنى عليه بذلك، وبين أثر ذلك على قبول دعوته بين الناس، فقال تعالى له: {فِيمَا رَحِمَةً مِنَ اللهِ لَئِن تَهُمَّ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159].

وكم من حليم عُرف عنه زلةٌ وحفظت عنه هفوةٌ، إلا أن رسول الله ﷺ لا يزداد مع كثرة الأذى إلا صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا، وقد ابتلي ﷺ بجفوة بعض الأعراب فلم توجد منه هفوة، ولم يحفظوا عليه رذيلة، وقد تناوله كفار قريش بكل كبيرة، وقصدوه بكل جريرة، وهو صبورٌ عليهم، معرضٌ عنهم، حتى قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا خَادِمًا، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ، فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ⁽⁴⁾ شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»⁽⁵⁾.

(1) معناه: أن الله تعالى يغفر لعبه المسلم مهما عظمت ذنوبه ومهما كثرت، ولو ملأت ما بين السماء والأرض، ولو كانت بعدد الرمال والأمطار وأوراق الشجر، ولو كانت بثقل الجبال، لا ينقص ذلك من فضل الله شيئاً، فهو تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، وصفاته تعالى ليست كصفات خلقه، ولا يغير ذلك في صفاته شيئاً، فهو لا ينصر بمعصية خلقه ولا ينتفع بطاعتهم.

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (548/5)، حديث (3540).

(3) أي: لا خوف عليكم اليوم فلا أعاملكم بالمثل، فلم يجسهم ولم يضرهم ولم يقتلهم. إذ لو أراد ذلك لفعله لأنه كان في موقع السلطة، وكان أقوى منهم، ومع ذلك عفا عنهم مع المقدرة على الانتقام.

(4) من انتهك حرمة الله أن يُشتم الرسول أو يُهان أو يُقاتل، فهذا كفر. فلو انتقم الرسول من الكفار على ذلك يكون مصيباً محملاً، لأنه في المعنى ينتقم دفاعاً عن حرمة الله.

(5) صحيح مسلم، مسلم، (1814/4)، حديث (2328).

وقد عفا الرسول ﷺ عمن أوعلوا في أذيته حتى بعد قدرته عليهم، فلما جاءه جبريل مع ملك الجبال وقال له: يا محمد، إن الله قد سمع قوم قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني الله إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين⁽¹⁾، فقال له العطف الكريم ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»⁽²⁾. وكذا فعل عليه الصلاة والسلام مع كفار مكة يوم فتحها حتى قال قولته الشهيرة: «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ».

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال⁽³⁾: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَعْفُونَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ، وَيَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى». قال الله تعالى: {لَتَبْلُؤُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} [آل عمران: 186]، وقال تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 109].

فصلَّى الله على هذا النبي الذي بلغ الدرجة العالية في العفو والصفح كما هو شأنه في كلِّ خُلُقٍ من الأخلاق الكريمة، والله درُّ البوصيري حيث قال:

فأق النبيين في خلقٍ وفي خلقٍ ولم يُدأثوه في عليم ولا كرم
فالفضل بتفضيل الله لا السبق في الوجود، ومن فهم هذا عرف وضع حديث جابر الذي فيه: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر، خلقه من نوره قبل الأشياء»⁽⁴⁾.

فهو ﷺ كان عفوه يشمل الأعداء فضلاً عن الأصحاب، وكان ﷺ أجمل الناس صفحاً وعفوًا، فعن أبي عبد الله الجدلي قال: قلت لعائشة: كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت: «لَمْ يَكُنْ فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا وَلَا صَحَّابًا فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَصْفَحُ»⁽⁵⁾.

(1) أي: جبلي مكة.

(2) صحيح البخاري، البخاري، (115/4)، حديث (3231).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (45/8)، حديث (6207).

(4) قال الحافظ السيوطي: ليس له إسناد يعتمد عليه، وقال الحافظ أحمد بن الصديق الغماري: إنه موضوع، ولا يوجد حافظٌ معتبرٌ صححه، ومجربٌ أن دُكر في بعض التأليفات والكتب فليس تصحيحًا له، إذ العبرة في التصحيح والتضعيف بقول الحفاظ.

(5) سنن الترمذي، الترمذي، (369/4)، حديث (2016).

أخي القارئ، أختي القارئة، إنَّ العفو من سمات الصالحين ومن صفات المتقين الأطهار الصادقين الذين شرفت نفوسهم وطهرت قلوبهم وعلت عند الله مراتبهم، قال تعالى في وصفهم وبيان جزائهم: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } [آل عمران: 134]. وقال سبحانه مبيناً سبيلاً يؤدي إلى الكمال. {وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} [البقرة: 237]، وقال سبحانه وتعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا} [المائدة: 8].

وهؤلاء الصحابة الكرام رضوان الله عليهم الذين رباهم النبي ﷺ وغرس خلق العفو والتسامح في نفوسهم وإن قوبلوا بالصد والإعراض والقطيعة فكانوا مثلاً يُحتذى به في العفو والصفح عن أساء.

وقد أخرج البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم عيينة بن حصن بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان من نفر الذين يدينهم عمر، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته، كهولاً كانوا أو شباناً»، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، هل لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: «فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر»، فلما دخل عليه قال: هني يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: 199]، وإن هذا من الجاهلين، «والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله»⁽¹⁾.

وهذا أبو الدرداء رضي الله عنه يمرُّ بجماعةٍ تجمهروا على رجلٍ يضربونه ويشتمونه فقال لهم: ما الخبر؟ قالوا: وقع في ذنبٍ كبير. قال: أرايتم لو وقع في بئرٍ أفلم تكونوا تستخرجونه مه؟ قالوا: بلى، قال: لا تسبوه ولا تضربوه، لكن عظه وبصروه، واحمدوا الله الذي عفاكم من الوقوع في مثل ذنبه، قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض فعله فإذا تركه فهو أخي. فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته وأوبته. قال تعالى: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَّا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور: 22].

وهذا أبو ذرٍ رضي الله عنه يقول لغلامه: لم أرسلت الشاة على علف الفرس؟ قال: أردت أن أغيظك، قال: لأجمعنَّ مع

الغيظِ أجزاً، أنتَ حرٌّ لوجه الله.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (60/6)، حديث (4642).

وهكذا كان أئمة السلفِ رحمة الله عليهم أجمعين، متخلِّقين بهذا الخلق الكريم. فهذا الربيع بن خيثم رحمه الله شتمه رجلٌ فقال له: يا هذا، قد سمع الله كلامك وإن دون الجنة عقبة إن قطعتها لم يضرني ما تقول، وإن لم أقطعها فأنا شرٌّ مما تقول.

ويروى عن الإمام البخاري رضي الله عنه أنه قيل له: إنَّ بعض الناس يقع فيك، فتلا قوله تعالى: {إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} [النساء: 76]، وقرأ قوله تعالى: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر: 43].

والعفو أقرب للتقوى والصفح أكرم في العقبي والتجاوز أحسن في الذكرى، قال تعالى: {لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَحْمَةٍ رَبِّهِمْ يَتَّوَكَّلُونَ} * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ⁽¹⁾ } [الشورى: 36، 37]، وقال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35]، أي: إذا أحسنتَ إلى من أساء إليك قادتته تلك الحسنه إلى محبتك والحنو عليك حتى يصير كأنه وليٌّ لك قريب.

وهذا علي بن الحسين رضي الله عنهما كلَّهما رجلٌ فافتري عليه فقال: إن كنا كما قلتَ فاستغفر الله، وإن لم تكن كما قلتَ فغفر الله لك. فقام إليه الرجل فقبَّل رأسه وقال: جُعِلْتُ فداك ليس كما قلتُ أنا، فقال له: غفر الله لك.

ولما سبَّ رجلٌ عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهما ما ردَّ عليه ولا أجابه؛ بل قال رضي الله عنه لمولاه عكرمة: هل للرجل حاجة فنقضها؟ فنكس الرجل رأسه واستحيا.

ومرَّ يهوديٌّ معه كلبٌ على إبراهيم بن أدهم رحمه الله، فجعل يستهزئ به ويسخر منه قائلاً: أحييتك يا إبراهيم أظهر من ذنَّب هذا الكلب أم ذنب الكلب أظهر من لحيتك؟ فماذا كان ردُّ إبراهيم بن أدهم رحمه الله؟ هل خاصمه؟ هل سبَّه؟ هل ردَّ عليه بالمثل؟ ما كان منه إلا أن قال: إن كانت في الجنة فهي أظهر من ذنب كلبك. فما ملك اليهودي إلا أن قال: اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله. والله ما هذه إلا أخلاق الأنبياء والأولياء والصالحين.

وبالعفو والصفح تغفر الذنوب، فما أحوجنا إلى مغفرةٍ من الله تعالى الغفور الرحيم الذي قال: {وإِن تَعَفُّوا وَلْيَصْفَحُوا} وَتَعَفُّوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [التغابن: 14]، وقال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور: 22].

(1) بمعنى العفو والصفح.

وبالعفو ينال الأجر والثواب إن أخلصت، قال الله عز وجل: { وَجَزَاءً سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [الشورى: 40].

وبالعفو عمن أساء ينال عفو الله تعالى، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى: { إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوا أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا } [النساء: 149].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَقَالَ مُسْلِمًا، أَقَالَ اللَّهُ عَشْرَتَهُ»⁽¹⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قبل نجد، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يقال له: ثمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ، فقال: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَّامَةُ؟» فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت، فترك حتى كان الغد، ثم قال له: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَّامَةُ؟»، قال: ما قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكرك، فتركه حتى كان بعد الغد، فقال: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَّامَةُ؟»، فقال: عندي ما قلت لك، فقال: «أَطْلِقُوا ثُمَّامَةَ». فانطلق إلى نجل⁽²⁾ قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد⁽³⁾، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، يا محمد، والله ما كان على وجه الأرض أبغض إلي من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلي، والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إلي، والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول الله ﷺ وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة، حتى يأذن فيها النبي ﷺ⁽⁴⁾.

فيا إخوتي وأخواتي في الله، تعافوا بينكم وتجاوزوا عمن أساء إليكم، واجعلوا العفو والصفح شعاركم وحُلماً لكم في بيوتكم وشوارعكم وأسواقكم، وأخرجوا من ضيق المناقشة على فسحة المسامحة، من مشقة المعاشرة إلى سهولة المعاشرة، واطووا بساط التقاطع والوحشة، وصلوا حبل الأخوة، ورموا أسباب المودة، واقبلوا العذر والمعدرة فإنه من محاسن الشيم.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ تَكَلَّمَ مِنْهُمْ بِالْقَبِيحِ فَبِكِ فَتَكَلَّمَ فِيهِ بِالْحَسَنِ الْجَمِيلِ».

(1) المستدرک: الحاكم، (52/2)، حديث (2291).

(2) أي: ماء.

(3) هو كان ترك الكفر واعتقد الإسلام ونطق بالشهادتين قبل أن يذهب إلى الماء ليغتسل، ثم بعد ما اغتسل ورجع إلى المسجد نطق بالشهادتين إشهاراً لإسلامه، فليتنبه لذلك، فإن من يريد الدخول في الإسلام لا يؤخر نفسه ولا يؤخره غيره إلى أن يغتسل، بل ينطق بالشهادتين فوراً.

(4) صحيح البخاري، البخاري، (170/5)، حديث (4372).

الشرح: هذا من الإمام عطفً على ما سبق، وبياناً وتفصيلاً زيادة على ما مرّ، وفي شرح هذه الوصية نذكر ما روي عن

الحسن البصري من قوله: «مرحباً بحسنةٍ لم أعملها ولم أتعب فيها»⁽¹⁾، ولم يدخل فيها عجب ولا رياء»، فلننتقل منها.

هذه هي الأخلاق الحميدة تعلّمها المسلمون عبر تاريخهم المشرق من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، قال تعالى: {ادْفَعْ

بِأَيْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّةِ} [المؤمنون: 96].

كما أنّ رسولنا محمداً ﷺ بيّن من هو المفلس يوم القيامة وما حاله حيث قال: «أَتَدْرُونَ مَنْ الْمُفْلِسُ؟»، قالوا: المفلس

فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: «الْمُفْلِسُ مَنْ أَتَى مِنْ أُمَّتِي مِنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ،

وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيَقْعُدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ

حَسَنَاتِهِ»⁽²⁾، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»⁽³⁾.

وعلى هدي السنة النبوية تربّت أجيال المؤمنين عبر التاريخ، فقد ذكرت كتب السيرة والتاريخ قصةً حدثت مع الإمام

الحسن البصري رحمه الله حيث قيل له: إنّ فلاناً قد اغتابك، فبعث إليه وقال: بلغني أنك أهديت إليّ بعض حسناتك هدية⁽⁴⁾.

ثم للإحسان إلى الآخرين أثر عظيم، فقد ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أن فضالة بن عمير مرّ بالنبي صلى الله عليه

وآله وسلم يوم الفتح وهو عازم على الفتك به، فقال له: «مَا كُنْتَ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ؟»، قال: لا شيء، كنت أذكر الله تعالى،

فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: «أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لَكَ»⁽⁵⁾. ثم وضع يده على صدره، قال: فكان فضالة يقول:

والله ما رفع يده عن صدري حتى ما أجد على ظهر الأرض أحبّ إليّ منه⁽⁶⁾. وأسلم فضالة بهذا الصفح الكريم وزالت من قلبه

عداوة النبيّ - وهو اعتقادٌ كفريٌّ - وحلّت محلّها محبة رسول الله ﷺ وهي من الإيمان.

(1) فهو إذا أودى وطعن فيه بغير حقّ وبلغه هذا الطعن والإيذاء فصبر يكون حسنة له.

(2) وهذا في المظلوم المسلم لأنّ الكافر لا حسنة له يوم القيامة، ولا يعطى من الحسنات في الآخرة شيئاً.

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (613/4)، حديث (2418).

(4) وهذا قيده إن لم يتب ولم يسأحه.

(5) معناه أطلب من الله تعالى أن يغفر لك بإدخالك في الإسلام لأنّ قتل النبيّ كفرٌ، فمعناه بعد تشهدك الله يغفر لك.

(6) الإصابة في تمييز الصحابة

تأمل أخي القارئ هذا الموقف النبوي الكريم، كيف قابل النبي ﷺ رغبة القتل والعدوان من فضالة بالابتسام الصادقة والمعاملة الكريمة والدعاء له بالهداية والمغفرة، فبدخوله بالإسلام يغفر له، فشرح الله صدره للإيمان، قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا} [الفرقان: 63].

فالإسلام حننا على كل ما يؤدي إلى المحبة بين المسلمين من الخير ورغب فيه. ومن كمال الإيمان المحبة في الله، قال ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ (1) حَتَّى تُؤْمِنُوا (2)، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» (3).

وحرّم العداوة بين المسلمين، قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ} [المائدة: 91]، فبين ربنا أن من أسباب تحريم الخمر والميسر تسببهما بالعداوة بين المسلمين.

وانظر أخي القارئ إلى تحريم بعض المعاملات والعقود، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «هَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَبِيعَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَلَا يَخْطُبَ الرَّجُلُ عَلَى خُطْبَةِ أَخِيهِ، حَتَّى يَتْرُكَ الْخَاطِبُ قَبْلَهُ، أَوْ يَأْذَنَ لَهُ الْخَاطِبُ» (4).
وحدث النبي ﷺ وشجع وحض على ترك المراء، فقال ﷺ: «أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رِبْضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبَيْتٍ فِي وَسْطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكُذِبَ وَإِنْ كَانَ مَارِحًا وَبَيْتٍ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَنَ خُلُقَهُ» (5).

أخي القارئ، ما هو موقعك مع من يخالفك بل من يعاديك ويتربص بك؟ هل هو المعاملة بالمثل أو بخلاف ذلك؟ بيان ذلك في قول ربنا: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34].

فيرشدنا ربنا تبارك وتعالى إلى الدفع بالتي هي أحسن وعدم الرد بالمثل، فمن يلقاك بعبوس تلقاه بطلاقة وجهه وابتسامته، ومن يعرض عنك ويوليئك ظهره تستقبله، ومن لا يسلم عليك ولا يجيبك تحيته بالسلام وبغيره من التحايا، ومن يقطعك ولا

(1) أي: مع الأولين.

(2) أي: الإيمان الكامل.

(3) صحيح مسلم، مسلم، (74/1)، حديث (93).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (19/7)، حديث (5142).

(5) سنن أبي داود، أبو داود، (253/4)، حديث (4800).

يصلك تصله وتواسيه في النائبات، ومن يسمعك كلامًا جارحًا تسمعه كلامًا لئبًا، ومن يحاول استفزازك بالكلام تتغافل عنه وكأنك لم تسمع.

فالدفع بالحسنى إحدى صور الإحسان الذي من شأنه أن يقضي على العداوات بين الناس ويبدلها صداقة حميمة ومودة رحيمة فتخمد نار الفتنة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَمَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْحِلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمَهُمُ اللَّهُ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَخَضَعَ لَهُمْ عَدُوَّهُمْ، كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ»⁽¹⁾.

فالكلمة الطيبة تفتح قلوبًا غُلْفًا، وتزيل الغشاوة عنها، وتصفي النفوس، والتسامح والعفو والنصح تقوي المودة بين الناس.

وقرن الله تعالى دفع السيئة بالحسنة بالصبر والصلاة والإنفاق ووعده فاعلي ذلك بعقبى الدار فقال سبحانه: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ هُمُ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 22]، فيدروون بالحسنة السيئة لمن أساء إليهم بقول أو فعل ولم يقابلوه بمثله بل قابله بالإحسان إليه، فيعطون من حرمهم ويعفون عن ظلمهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما بالك بغير المسيء.

وقال تعالى: {أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا اللَّعْنَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ} [القصص: 54، 55].

وهنا تنبيه مهم: لا يعني دفع السيئة بالحسنة استمالة الناس نفاقًا، فقد قال ابن مفلح الحنبلي: قيل لابن عقيل في فنونه: أسمع وصية الله عز وجل: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ} [فصلت: 34]، وأسمع الناس يعدون من يظهر خلاف ما يبطن منافقًا، فكيف لي بطاعة الله تعالى والتخلص من النفاق؟ فقال ابن عقيل: النفاق هو إظهار الجميل وإبطان القبيح وإضمار الشر مع إظهار الخير لإيقاع الشر، والذي تضمنته الآية إظهار الحسن في مقابلة القبيح لاستدعاء الحسن.

(1) السنن الكبرى، البيهقي، (71/7)، حديث (13299).

وفي ختام شرح هذه الوصية نذكر قول الله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِهِمْ بِآيَاتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} * وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ { [النحل: 125 - 128].

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ مَاتَ قَضَيْتَ لَهُ حَقَّهُ».

الشرح: ليعلم أنَّ السعي في قضاء حوائج الناس من الأخلاق الإسلامية العالية الرفيعة التي ندب إليها الإسلام وحثَّ المسلمين عليها، وجعلها من باب التعاون على البر والتقوى الذي أمرنا الله تعالى به، فقال في محكم تنزيله: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [المائدة: 2].

وإن قضاء الحوائج واصطناع المعروف بابٌ واسعٌ، فليعن الواحد أخاه على البرِّ، وهو اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال الظاهرة والباطنة من حقوق الله وحقوق الآدميين. فهذا يشمل النفع بالعلم والنفع بالرأي السديد والنفع بالنصيحة والنفع بالمشورة وبقضاء الدين.

ومن نعم الله تعالى على العبد أن يجعله مفتاحاً للخير والإحسان، فعن سهل بن سعد عن النبي ﷺ قال: «عِنْدَ اللَّهِ خَزَائِنُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، مَفَاتِيحُهَا الرِّجَالُ، فَطُوبَى لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ، وَمِعْلَاقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَهُ مِفْتَاحًا لِلشَّرِّ، وَمِعْلَاقًا لِلْخَيْرِ»⁽¹⁾.

وكذا من نعم الله تعالى على العبد أن يسخره لقضاء حوائج الناس، قال أبو العتاهية:

أَفْضَى الْحَوَائِجِ مَا اسْتَطَعْتَ وَكُنْ لَهُمْ أَخِيكَ فَارْحُ

وروي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: «مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْكَ حَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْكَ».

ونقتصر على هذا الكلام في هذا المقام، إذ خصوصُ هذا بِنْدَرُجٍ تحت عموم فضل إغاثة وإعانة ومساعدة المسلمين، وقد أفضنا الكلام على ذلك.

وعلى قاعدة «الشيء بالشيء يُذكر» نحب أن ننبّه لأمرين:

(1) المعجم الكبير، الطبراني، (150/6)، حديث (5812).

أما الأول: فهو أن الإمام أبا حنيفة لم يُرد بقضاء الحق عن الميت الصلاة، ولا يفهم هذا م كلامه، وهاكم أيها الأحبة

بيان هذه المسألة بإيضاح مع أدلتها وبراهينها:

لقد فرض الله تعالى على كلِّ مسلمٍ مكلفٍ خمس صلواتٍ في اليوم والليلة، فقال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْثُوتًا} [النساء: 103]، وقال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ} أي: حافظوا عليها، والأخبار النبوية في ذلك كثيرة. فمن ترك الصلوات الخمس كلها أو بعضها استحق العذاب يوم القيامة، ومن مات وعليه صلاةٌ كأن تركها في الدنيا تحاوتاً وكسلاً لا تبرأ ذمته ولا تسقط عنه ولا تُصلى عنه ولا يُدفع عن تلك الصلوات مال، ويدل على ذلك حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نَسِيَ صَلَاةً فَلْيُصَلِّ إِذَا ذَكَرَهَا، لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ»⁽¹⁾. قال ابن حبان في صحيحه⁽²⁾ بعد أن روى هذا الحديث ما نصه: «دليل على أن الصلاة لو أداها عنه غيره لم تجز عنه، إذ المصطفى ﷺ قال: «لَا كَفَّارَةَ لَهَا إِلَّا ذَلِكَ»، يريد إلا أن يصلها إذا ذكرها». وفيه دليلٌ على أن الميت إذا مات ولم يقدر على أداء الصلوات المفروضات في علته أو تركها في حياته عمدًا لم يجز أن يعطي الفقراء عن تكل الصلوات الحنطة ولا غيرها من سائر الأطعمة والأموال على هيئة ما يُسمى كفارة صلاة أو إسقاط صلاة.

قال الشيخ زكريا الأنصاري في «أسنى المطالب»⁽³⁾ ممزوجًا بالمتن ما نصه: «ولو مات وعليه صلاة أو اعتكاف لم يقض ولم يفد عنه لعدم ورودها بل نقل القاضي عياض الإجماع على أنه لا يصلى عنه».

وقال الشيخ منصور البهوتي في «كشاف القناع»⁽⁴⁾ ممزوجًا بالشرح ما نصه: «وأما صلاة الفرض فلا تفعل عنه ذكر القاض عياض إجماعاً أنه لا يصلى عنه فاتت».

وأما ما في مسلم⁽⁵⁾: «إِنَّ مِنَ الْبِرِّ بَعْدَ الْبِرِّ أَنْ تُصَلِّيَ لِأَبْوَيْكَ مَعَ صَلَاتِكَ» مما قد يوهم أن في النصِّ حثًا للمرء على الصلاة عن أبويه وهو خلاف الإجماع، فليس محمولاً على ظاهره، وليس المراد الصلاة بالمعنى الشرعي؛ بل المعنى الصلاة بمعنى الدعاء، أي: أن من البرِّ الدعاء لأبويك في صلاتك.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (122/1)، حديث (597).

(2) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (374/6).

(3) أسنى المطالب، زكريا الأنصاري، (428/1).

(4) كشاف القناع، البهوتي، (336/2).

وما روي عن ابن عمر وفي بعض الروايات عن ابن عباسٍ مما قد يحتجُّ الخصمُ على القول بأنه رضي الله عنه أمر من مات أمها وعليها صلاة أن تصلي عنها، فالجواب عن هذا أنه صحَّ خلاف ذلك عنه رضي الله عنه حيث روى النسائي عن ابن عباسٍ في سننه⁽¹⁾: «لَا يُصَلِّي أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ، وَلَا يَصُومُ أَحَدٌ عَنْ أَحَدٍ»، أي: لا يصلي عن أحدٍ حيًّا كان أو ميتًا.

وقد قال شارح البخاري بدر الدين محمود بن أحمد العيني في كتابه «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»⁽²⁾ في شرحه لهذا الأثر: «وعند الحنفية: لا يصلي أحد عن أحد ولا يصوم عنه، ونقل ابن بطل إجماع الفقهاء على أنه: لا يصلي أحد عن أحد فرضًا ولا سنةً لا عن حي ولا عن ميت».

فالخلاصة:

إِنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصَحُّ عَنْ أَحَدٍ	مَا عَالَمٌ خَالَفَ هَذَا أَوْ جَحَدَ
هَذَا الْحَدِيثُ اجْعَلْهُ مِنْ عَادَاتِكَ	صَلِّ لَوْلَا دِيكَ مَعَ صَلَاتِكَ
مَعْنَى الصَّلَاةِ هَهُنَا الدَّعَاءُ	فِي الْقَبْرِ كَمَ سَرَّهُمَا إِهْدَاءُ

وأما الثاني: فهو أمرٌ قضاء الصلاة المتروكة عمدًا: فإنَّ مما ابتليت به هذه الأمة أناسًا ادَّعوا أنَّ الصلاة المتروكة عمدًا لا يجب قضاؤها، ومن قال بهذا ابن تيمية فزاد ضلالًا على ضلالاته.

ف نقول وبالله التوفيق: قضاء الصلاة الفائتة واجبٌ باتفاق الأئمة الأربعة؛ بل حكى ابن قدامة الحنبلي في «المغني» وغيره الإجماع على ذلك.

وأما حديث⁽³⁾: «مَنْ نَامَ عَنْ صَلَاةٍ أَوْ نَسِيَهَا فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا» الذي استدللَّ المخاصم - كوهابية زماننا الذين شذوا عن الإجماع - بظاهره قائلين أنَّ نصَّ الحديث في النائم والناسي لا في المعتد، ليس حجةً لهم، فوالله كأنَّ الخصم لم يفقه كلام العرب وما درى حقيقة معاني كلام النبي ﷺ، وكأنه ما شَمَّ من علم الأصول شيئًا، فقد قال العلماء: «إذا كان النائم

(5) صحيح مسلم، مسلم، (16/1).

(1) سنن النسائي، النسائي، (257/3)، حديث (2930).

(2) عمدة القاري، العيني، (210/23).

(3) المعجم الأوسط، الطبراني، (182/6)، حديث (6129).

والناسي المرفوع عنهما القلم مأمورين بالقضاء بالإجماع، فكيف بالذي تركها متهورًا أو متكاسلاً»، فكان المخاصم ما سمع بالقياس وأنواعه، ومن أراد مزيد فائدة فليطالع كتب أصول الفقه ففيها شفاء من العي⁽¹⁾.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «ومن كَانَتْ لَهُ فَرْحَةٌ هَنَيْتَهُ بِهَا».

الشرح: يصرح الإمام بوصية توطد علاقة العالم بغيره، ما إن التزم بها إلا شدت عرى المحبة وأواصر الألفة بين المسلمين، وهي من جملة مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات، إنها الفرح لفرح المسلمين.

فهذه خصلة يغفل عنها كثير من الناس، إنها صفة يفتقدها الكثير من أهل المجتمع، وهي من الطرق الموصلة إلى السعادة. إنها طهارة القلب من الخبث والرجس والفساد والضغينة والحقد والحسد والبغضاء والشماتة والاستهزاء حتى يعود القلب طاهرًا نقيًا عفيفًا نقيًا.

ورد في الحديث⁽²⁾ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا مع رسول الله ﷺ فقال: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ مِنْ هَذَا الْفَجِّ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فطلع رجل من الأنصار تنظف لحيته من وضوئه وقد علق نعليه في يده الشمال فسلم، فلما كان من الغد، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع الرجل على مثل حالته الأولى، فلما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضًا، فطلع الرجل على مثل حالته الأولى، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثًا، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت؟ قال: «نعم»، قال أنس: وكان عبد الله يعني ابن عمرو يحدث أنه: بات معه ثلاث ليال، قال: فلم يره يقوم من الليل شيئًا غير أنه إذا تعار من الليل، وتقلب على فراشه ذكر الله، وكبره حتى يقوم لصلاة الفجر، غير أنه إذا تعار من الليل لا يقول إلا خيرًا. قال: فلما مضت الثلاث ليال وكدت أحترق⁽³⁾ عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة»، فطلعت أنت الثلاث مرات فأردت أن آوي إليك، فأنظر ما عملك فلم ارك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ، فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أنني لا أجد في نفسي على أحد من المسلمين غشا، ولا أحسده على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا نطبق.

(1) أي: الجهل.

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (7/9)، حديث (6181).

(3) أي: لم أرك كثير عمل من قيام الليل وصيام النهار وغير ذلك من العبادات، فأحترق هنا ليس من الاستخفاف والاستهزاء؛ بل من القلة التي تكاد لا تذكر.

ولا يخفى أنه تمرُّ بحياة الإنسان مناسباتٌ وأعيادٌ شرعيةٌ شرع فيها تهنئة المسلمين بعضهم بعضاً. والتهنئة والتبريك من آداب الإسلام وخصاله الجميلة، وقد وردت الأحاديث والآثار في التهنئة والتبريكات في أحوال ومناسبات سياقي ذكرها إن شاء الله.

فالتهنئة فيما رخص الشرع جائزة وفيها مشاركة بالتبريك والدعاء من المسلم لأخيه المسلم فيما يسره ويفرحه مما يدعو إلى التوادُّ والتراحم والتعاطف بين المسلمين.

وقد جاء في القرآن الكريم تهنئة المؤمنين على ما ينالون من نعيم الجنة وذلك في قوله تعالى: {كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الطور: 19].

والأصل في التهنئة تجدد نعمة أو رفع بلاء مما يدخل السرور على النفوس، فهي مما يفرح المهنتاً ويدل على سجية المهنتي. وانظر إلى ما جرى في حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه قال: واذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إليَّ رجل فرسًا وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل وكان الصوتُ أرفع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرنى نزعته له ثوبي فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرها يومئذٍ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا يهنوني بالتوبة يقولون: لتهنك توبة الله عليك.

قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة.

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أَبَشِرْ بِحَجْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ»⁽¹⁾. وهذا ردٌّ على بعض مشايخ الوهابية مبتدعة هذا العصر الذين حرموا التهنئة بيوم الجمعة وبطلب الدعاء فيه والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ.

فهذا الحديث أصل في التهنئة لما يطرأ على المسلم من نعمةٍ أو يرفع عنه من بلاء.

وللحافظ السيوطي رسالة لطيفة سماها «وصول الأماني بأصول التهنئي» جمع فيها ما جاء في التهنئي المشروعة.

وتكلم العلماء عن حكم ما يتجدد من التهنئي بين المشروع والممنوع.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (3/6)، حديث (4418).

فمن المناسبات هذه تهنئة المسلم:

1- عند عرسه، فعن أنس رضي الله عنه أن عبد الرحمن بن عوف تزوج امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال له الرسول ﷺ:

«بَارَكَ اللهُ لَكَ، أَوْلَمُ وَلَوْ بِشَاةٍ»⁽¹⁾. وفي الحديث: «بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير».

2- عندما يريزق بمولود. قال النووي: يستحبُّ تهنئة المولود له. قال أصحابنا: ويستحبُّ أن يهنأ بما جاء عن الحسين رضي

الله عنه أنه علّم إنساناً التهنة فقال: قل بارك الله لك في الموهوب لك، وشكرت الواهب، وبلغ أشده، ورزقت برّه.

ويستحبُّ أن يرد على المهني فيقول: بارك الله لك وبارك عليك وجزاك الله خيراً ورزقك الله مثله أو أجزل الله ثوابك.

وهنا ننبه المسلمين لمسألة وهي أننا لا نتولى الكفار ولا نرضى بما هم عليه من الانحرافات فلا نشاركهم في أعيادهم ولا

تهنئهم بها، وكذا لا نستورد عاداتهم إلى مجتمعاتنا.

ولتحرص أخي أن تتجنب أنت وأهلك وأولادك عادات الكفار، واحم نفسك وأهلك منها، والله مطلع علينا في جميع

أحوالنا وباب الشر كبير.

قال الله تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ

إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ

عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22].

وقال ﷺ: «مَنْ تَشَبَهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»⁽²⁾. فمن تشبه بالكفار بما هو كفرٌ من أقوالهم وأفعالهم فهو كافرٌ، ومن تشبه

بهم بما هو دون الكفر فهو عاصٍ عاثم.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ كَانَتْ لَهُ مَصِيبَةٌ عَزِيَّتُهُ عَنْهَا».

الشرح: ليعلم أنّ مواساة المصابين والتخفيف عن المنكوبين من صنائع المعروف التي يجبها الله تعالى، فإنّ الإنسان إذا

سمع عن أخيه أنه أصيب بمصيبة في نفسه أو أهله أو ولده فليتنقرب منه وليذكره بحسن الثواب وحسن العاقبة عند الله والمآب، لعلّ

ذلك يكون سبباً في صبره وسلوانه وعظم أجره عند ربه، فتثبيت القلوب عند الكربات والمصائب من صنائع المعروف.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (21/7)، حديث (5155).

(2) سنن أبي داود، أبو داود، (44/4)، حديث (4031).

فالمسلم يحتاج من أخيه إذا نزلت به ضائقة أن يواسيه ويسليه، ويحتاج من أخيه إذا نزل به همٌّ وغمٌّ أن يثبتته فإنَّ بعض القلوب إذا نزلت بها المصائب تزلزلت إلا أن يثبتها الله عزَّ وجلَّ، فإذا جاء العبدُ وذكر أخاه بما عند الله تعالى من الأجر والثواب كان ذلك من عظيم المعروف.

ولقد كان نبيُّنا الكريم ﷺ قدوةً في ذلك، ولا عجب فهو الذي وصفه ربه تعالى فقال: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [التوبة: 128]، وقال في حقه: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: 159]، وقال عزَّ من قائل: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الأنفال: 33].

لذا فقد حرص النبي ﷺ على أن يمدَّ يد الرأفة والعطف ليمسح عن المحزون دمعته ويخفف بها لوعة الشاكي، فعلمنا ﷺ الصبر على الشدائد وحبَّ إلينا ثواب الصابرين تصديقاً لقول الله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ* الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} [البقرة: 155، 156].

بل علمنا رسول الله ﷺ مواسياً بأن الابتلاءات والأمراض كفارات للمسلم وسبب لتخفيف العذاب عن العبد المسلم يوم القيامة، فعن أنس ابن مالك أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن جعفر قال: لما جاء نعي جعفر قال رسول الله ﷺ: «اصْنَعُوا لِأَلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا، فَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ، أَوْ أَمْرٌ يَشْغَلُهُمْ»⁽²⁾.

وكما كان النبي ﷺ يواسي من أصيب بفقد عزيز عليه فإنه أيضاً كان يواسي من أصيب بالمرض فيدعو له ويخفف عنه، فعن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا عاد مريضاً يقول: «أَذْهَبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِهِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءٌ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا»⁽³⁾.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (601/4)، حديث (2396).

(2) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (514/1)، حديث (1610).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (1722/4)، حديث (2191).

وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ فقالت: إني أصرع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: «إِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ وَلَكَ الْجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتَ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيكَ»، فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها⁽¹⁾.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، قال: «لَأُعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، قال: فبات الناس يدوكون⁽²⁾ ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ»، فقالوا: يشتكي عينيه يا رسول الله، قال: «فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأَتُونِي بِهِ». فلما جاء بصق في عينيه ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انْفُذْ عَلَيَّ رَسُولَكَ حَتَّى تَنْزَلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»⁽³⁾.

فترى النبي ﷺ واسى علياً بطرق شئى منها السؤال عنه والدعاء له وتبريكه ببصافة الشريف.

وعن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضريراً أتى النبي ﷺ، فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: «إِنْ شِئْتَ أَخْرُتَ ذَلِكَ، وَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ»، قال أبو موسى قال: فداعه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِي لِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ»⁽⁴⁾. وفي هذا الحديث فوائد:

1- مواساته ﷺ للضير.

2- تعليمه أن يتوسل به ﷺ، وأن يناديه في غير حضرته بدليل رواية «إِيْتِ الْمِيصَّاةَ»، فإن فيها: «فوالله ما تفرقنا ولا طال بنا المجلس حتى دخل علينا الرجل وقد أبصر». ولو كان الضير في المجلس لم يقل راوي الحديث: «دخل علينا» وهو سيلقي يعرف معاني الألفاظ.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (116/7)، حديث (5652).

(2) أي: يخوضون ويتحدثون في ذلك.

(3) صحيح البخاري، البخاري، (18/5)، حديث (3701).

(4) صحيح ابن خزيمة، ابن خزيمة، (225/2)، حديث (1219).

3- من المعلوم أنّ الطبراني لم ينص على تصحيح حديث في معجمه⁽¹⁾ غير هذا الحديث، فالحديث صحيح. ومما يقوّي ذلك إيراد ابن خزيمة له في صحيحه، وقد نصّ رحمه الله على أنه لا يروي في هذا الكتاب إلا الصحيح. فلا كلام بعد ذلك للوهابية الذين يطعنون في هذا الحديث، فهو حديث صحيح، وهو دليل على هدم عقيدة الوهابية.

4- حدوث مثل هذه القصة مع رجل في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقد علّم راوي الحديث - وهو عثمان بن حنيف - الرجل هذا الدعاء، ولا شك أنّ هذا كان في غير حياة النبي ﷺ.

ولا ننسى مواساة النبي ﷺ للمهموم الحزين، فعن أبي سعيد الخدري قال: دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو وبرجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال: «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟»، قال: هموم لزممتني، وديون يا رسول الله، قال: «أفلا أعلمك كلاماً إذا أنت قلت أذهب [الله] عزّ وجلّ همك، وقضى عنك دينك؟»، قال: قلت: بلى، يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت، وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين، وقهر الرجال»، قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عزّ وجلّ همي، وقضى عني ديني⁽²⁾.

وعن أبي هريرة قال: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوها يوماً فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره، فأنتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة»، فخرجت مستبشرة بدعوة نبي الله ﷺ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هو مجاف⁽³⁾، فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك يا أبا هريرة وسمعت خضخضة الماء، قال: فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها⁽⁴⁾، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن

(1) المعجم الصغير، الطبراني، (306/1)، حديث (508).

(2) سنن أبي داود، أبو داود، (93/2)، حديث (1555).

(3) أي: مغلق.

(4) لا يجوز أن يؤخر الإنسان الذي يريد الدخول في الإسلام نفسه ولا غيره عن الشهادتين بغسل أو غيره؛ بل يبادر فوراً إلى ترك الكفر واعتقاد الإسلام والنطق بالشهادتين. وهي لعلها كانت نطقاً بالشهادتين قبل أن تغتسل ثم اغتسلت وأسمعت الشهادتين إعلاناً له وإعلاناً لإسلامها.

محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت: يا رسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدى أم أبي هريرة⁽¹⁾.

وكان ﷺ أيضًا يواسي من ابتلي بالظلم والتعذيب والأذى كما فعل مع خبابٍ ووال ياسر وغيرهما، فعن خباب بن الأرت قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيْمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيَجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِأَنْتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيَمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ حِمِّهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتَمَنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّكْبُ مِنْ صَنْعَاءَ⁽²⁾ إِلَى حَضْرَمَوْتٍ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذَّنْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»⁽³⁾.

وعن ابن إسحاق قال: حدثني رجال من آل عمار بن ياسر أن سمية أم عمار عذبا هذا الحي من بني المغيرة على الإسلام، وهي تأتي حتى قتلوها، وكان النبي ﷺ يمر بعمار وأمه وأبيه، وهم يعذبون بالأبطح في رمضان مكة فيقول: «صَبْرًا يَا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةُ»⁽⁴⁾.

فهذه الأمثلة التي ذكرت عن مواساة المصابين عند خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام هي غيظ من فيض، وقطرة من غيث وما علينا إلا أن نفتدي بالنبي ﷺ في هذا الخلق والأدب الرفيع. جعلنا الله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ أَصَابَهُ هُمٌّ فَتَوَجَّعْ لَهُ بِهِ».

الشرح: قد مرَّ قريبًا شرحَ عامِّ مطوَّلٍ لمسألة مواساة المسلم، فاندرجت هذه الوصية تحت ما سبق، لذا نحن نستغلُّ هذا المقام لتوجيه نداء ونصيحة تحملها كلمات الإمام فنقول: أيها المسلمون، ما أجمل أن يواسي المسلم أخاه في بلواه ويتوجع لعثرته وشكواه. ومن شيم الكرام وأهل الإسلام الكُمَّل أنهم إذا سمعوا صارخة قومٍ أو صوت استغاثةٍ أنجدوا وأسعدوا. وقد حلَّ بأهل الإسلام من البلاء الشديد والجوع العظيم الذي بلغت منهم مبلغًا أليماً، ونزلت بهم كربات جسيمة، وأحاطَ بهم شدتها، ولازمتهم محتتها.

(1) صحيح مسلم، (1938/4)، حديث (2491).

(2) يحتمل أن يريد صنعاء اليمن، وبينها وبين حضرموت - من اليمن أيضًا - مسافة بعيدة نحو خمسة أيام. ويحتمل أن يريد صنعاء الشام، والمسافة بينهما أبعد بكثير. والأول أقرب. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، (619/6).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (201/4)، حديث (3612).

(4) شعب الإيمان، البيهقي، (172/3)، حديث (1515).

فيا أهل الشفقة والإحسان والنجدة تصدّقوا، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ} [يوسف: 88]، وواسوا إخوانكم، فعن ابن عمر رضي الله عنهما: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ (1)، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (2).

أيها المسلم، أخاك أخاك أكشف عنه كربًا، واقتض عنه دينًا، واطرد عنه جوعًا، خفف عنه ألماً وقدم له نفعًا، اصنع المعروف وأدرك الملهوف، وأسعف المكلوم وواس المظلوم، وأغث وارحم المكروب، وأعط المنكوب، فحال كثير من المسلمين اليوم ما بين فقير يستصرخ وطريد يستغيث وشريد يستنجد.

وإن أردت الاطلاع على مزيد من عظيم ثواب الصدقة ومواساة الفقراء وسر وبركة الصدقة، فراجع كتابنا «الإنفاق في سبيل الله تارة راحة».

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ اسْتَنْهَضَكَ لِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِهِ فَهَضَمْتَ لَهُ».

الشرح: يتابع الإمام حثه على النظر في أمر الإخوان وحضه على مساعدة المسلمين، وتشجيعه على القيام بأمر المؤمنين، والسعي لقضاء حوائج الأصدقاء والأصحاب.

ولا يخفى لمن تأمل وصايا الإمام أنه قد أفاض واستفاض في الكلام على ذلك لما فيه من الأهمية، فهذا مما يندرج تحت علاقة العالم بغيره.

وهنا بيّن الإمام أنّ من طلب منك القيام بأمر قمت له وساعدته، وليكن السلف الصالح قدوة لك في هذا. ونحن في هذا المقام نسرد نزرًا قليلاً من عجائب صنائع السلف:

فقد كان بعض السلف إذا كانت الليلة مطيرة أخذ شعلة من النار فطاف بها على عجائز الحي فقال: أتريدون نارًا؟ فإذا أصبح طاف على عجائز الحي فقال: ألكم في السوق حاجة؟ أتريدون شيئًا؟ (3)

وقال النضر بن شميل: ما رأيت أرحم بمسكين من شعبة (4).

(1) أي: في قضاء حاجته. إرشاد الساري، القسطلاني، (102/10). فالله تعالى لا يحتاج إلى شيء من خلقه، قال عز من قائل: {إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} [العنكبوت: 6].

(2) صحيح البخاري، البخاري، (128/3)، حديث (2442).

(3) صفة الصفوة، ابن الجوزي، (56/2).

وقال الزبير بن بكار: كان للعباس ثوب لعاري بني هاشم، وجفنة لجائعهم، ومنظرة لجاهلهم. ويبدل المال، ويعطي في

النوائب⁽¹⁾.

وكان حسان بن أبي سنان يقول: لولا المساكين ما تجرت⁽²⁾.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنهما الذي لُقِبَ بالسَّجَّاد لكثرة سجوده وصلاته وعبادته، وبزين العابدين، ينفق على مائة بيتٍ من بيوت الفقراء في المدينة المنورة، ويحمل لهم الطعام وما يحتاجونه على ظهره مقننًا في الليل لئلا يُعرف. ولما مات ووضعت على المغتسل ظهرت خطوطٌ في ظهره من كثرة ما يحمل من الأمتعة والأطعمة التي يوصلها إلى بيوت الفقراء بنفسه من غير أن يستعين بأقربائه أو بالأرقاء والعبيد. ولما مات انقطعت هذه المساعدة عن أهل تلك البيوت فعرفوا أنه هو الذي كان يأتيهم بها. وقال شعبة بن النعمان: كان علي بن الحسين يُبَخِّل، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة⁽³⁾.

وكان عبد الله بن فرج الواسطي قد شغل نفسه بالسعي في مصالح المسلمين والمشى في قضاء حوائجهم، وكان أكثرهم تجهيز الموتى على الطرق.

ويروى عن ابن شبرمة أنه قضى حاجةً كبيرة لبعض إخوانه، فجاء يكافئه بمهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إليّ، قال: خذ مالك، عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجةً فلم يجهد نفسه في قضائها فغدة من الموتى.

ويروى عن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله عنهم قال: أتيتُ باب عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال: إذا كانت لك حاجة إليّ فأرسل إليّ رسولاً أو اكتب لي كتاباً، فإنّي لأستحي من الله أن يراك ببابي.

وذكر ابن أبي الدنيا أن أبا قحافة قال لابنه أبي بكر الصديق رضي الله عنه: يا بني، أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذا فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جلداء يمنعونك ويقومون دونك، قال: يا أبتِ إنما أريد ما أريد، قيل: فنزلت فيه الآية: { فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } [الليل: 5 - 7].

(4) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (211/7).

(1) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (80/2).

(2) سير أعلام النبلاء، الذهبي، (201/2).

(3) حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني، (136/3).

وروى ابن أبي الدنيا أنه كان لعبد الله بن جعفر على رجل من أهل المدينة خمسون ألفاً، فاستعان عليه بعبيد الله بن عباس في ذلك، فقال: قد حططتُ عنه شطرها وأخرته بالشطر الآخر إلى ميسرة، قال: فجزاه عبيد الله خيراً، وانصرف فأتبعه ابن جعفر رسولاً أي قد طيبت له النصف الآخر، أي: حططته عنه.

قال عبدان بن عثمان الأزدي: ما سألتني أحدٌ حاجةً إلا قمْتُ له بنفسي، فإن تمَّ وإلا قمت له بمالي، فإن تمَّ وإلا استعنتُ له بالإخوان، فإن تمَّ وإلا استعنتُ له بالسلطان.

فلذق من كأسهم، ولنشرب من منهلهم، ولنرتو من معين أخلاقهم الكريمة، فقد قال ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»⁽¹⁾.

وقد قال حكيم⁽²⁾ من الحكماء: «اعلموا أن العاقل يعترفُ بذنبه ويخشى ذنب غيره، ويوجد بما لديه، ويهد فيما عند غيره. والكريم يعطي قبل السؤال، فكيف يبخل بعد السؤال، ويعذر قبر الاعتذار، فكيف يحقد بعد الاعتذار».

وقال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: «ما رأيت امرأتين قطُّ أجودَّ من عائشة وأسماء رضي الله عنهما، وجودهما مختلف: أما عائشة فكانت تجمع الشيء إلى الشيء حتى إذا اجتمع عندها قسمته، وأما أسماء فكانت لا تمسك شيئاً لغد».

وقد ورد أن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه باع أرضاً بسبعمئة ألف درهم، فبات ليلةً عنده ذلك المال، فبات أرقاً مخافة ذلك المال ثم أصبح يفرقه.

وأرسل معاوية إلى عائشة رضي الله عنها مرة مائة ألف، فما أمسّت من ذلك اليوم حتى فرقتها ثم قالت: يا جارية، هاتي فطري فجيء بخبزٍ وزيت.

ويروى أن الإمام الشافعي رضي الله عنه لما قدم مكة من صنعاء كان معه عشرة آلاف دينارٍ، فقالوا: يشتري بها ضيعة. فضرب خيمته خارج مكة، وصبَّ الدنانير، فكان كلُّ من دخلَ عليه يعطيه قبضةً، فلَمَّا جاء وقت الظهر قام ونفض الثوب، ولم يبق معه شيءٌ.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1962/4)، حديث (2533).

(2) الحكيم من أوتي الحكمة.

وجاء رجلٌ لمن بن زائدة فاستحمله بعيراً، فقال: يا غلام، أعطه بعيراً وبغلاً وبرذوناً وعبداً وجاريةً، ولو عرفت مركوباً غير هذا لأعطيتك.

وكان يقال: حدّث عن البحر ولا حرج، وحدّث عن معنٍ ولا حرج.

وكان عبید الله بن أبي بكرة من الأجواد، فاشترى يوماً جاريةً نفيسةً بمالٍ عظيمٍ، فطلب دابةً تحمل عليها، فجاء رجلٌ على دابة فنزل عنها، فحملها فقال له عبید الله: اذهب بها إلى منزلك.

وخرج عبد الله بن جعفر بن أبي طالب إلى حيطان⁽¹⁾ المدينة، فبينما هو كذلك إذا نظر إلى أسود على بعض الحيطان وهو يأكل وبين يديه كلب وعبد الله بن جعفر واقف على دابته ينظر إليه فلما فرغ دنا منه فقال له: يا غلام لمن أنت؟ فقال: لورثته عثمان بن عفان، فقال: لقد رأيت منك عجباً، فقال له: وما الذي رأيت من العجب يا مولاي؟ قال: رأيتك تأكل فكلما أكلت لقمة رميت للكلب مثلها، فقال له: يا مولاي هو رفيقي منذ سنين، والله إني لأستحي من الله أن أأكل وعين تنظر إلي لا تأكل. ثم مضى عنه حتى أتى ورثة عثمان بن عفان فنزل عندهم فقال: جئت في حاجة، فقالوا: وما حاجتك؟ قال: تبيعوني الحائط الفلاني، فقالوا له: قد وهبناه لك، فقال: لست آخذه إلا بضعف، فباعوه، فقال لهم: وتبيعوني الغلام الأسود؟ فقالوا له: إن الأسود ربيناه وهو كأحدنا، فلم يزل بهم حتى باعوه وانصرف عنهم. فلما أصبح غداً على الغلام وهو في الحائط فخرج إليه، فقال له: أشعرت أني قد اشتريتك واشتريت الحائط من مواليك، فقال له: بارك الله لك فيما اشتريت ولقد غمني مفارقتي لموالي، إنهم ربوني، فقال له: أنت حر والحائط لك، فقال: إن كنت صادقاً يا مولاي فاشهد أني قد أوقفته على ورثة عثمان بن عفان، قال: فتعجب عبد الله بن جعفر منه وقال: ما رأيت كاليوم، فقال: بارك الله فيه، ودعا له ومضى⁽²⁾.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ اسْتَغَانَكَ فَأَعِثَّهُ».

الشرح: خطابٌ لمسلمي الأمة، يا أيها المسلمون، إنَّ الله تبارك وتعالى أمر الناسَ بفعل الخير ونفع الناس والسعي لمساعدة الآخرين، وإيصال الخير للناس من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله عزَّ وجلَّ.

فالإنسان قد يحتاج في هذه الحياة لمدِّ يد العون له لا سيَّما برفع المشقة ودفع الحرج وتفريج الكربة عنه فيما يواجهه من نكباتٍ أو ضيقٍ أو حرجٍ أو كربةٍ أو وقوع كارثةٍ أو تقلبٍ حال، وهذا من شيم الكمِّل من الرجال.

(1) أي إلى بساتين.

(2) تاريخ دمشق، ابن عساکر، (278/27).

وهذا سيّد الرجالِ اشتهر بهذه الخصلة حتى قالت أمّ المؤمنين خديجة رضي الله عنها: «إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، والله ما يجزيك الله أبداً».

إن إيصال الخير للغير وإعانة المحتاج من نعم الله العظيمة التي أنعم بها على عباده العقلاء.

ونحن اليوم نشهد في مجتمعاتنا كوارث وحروباً ونكبات تحولت بسببها مجتمعات من ءامنة إلى خائفة، ومن غنية إلى فقير، ومن مستقرة إلى مضطربة، فهل من معين؟

أخي القارئ، لقد أثنى الله عزّ وجلّ على الساعين لفعل الخيرات ومدّ يد العون للناس لا سيما في الضائقات، قال تعالى: { وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ } [الأنبياء: 73]، وأمر سبحانه بذلك فقال: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } [الحج: 77].

بل أمر الله بالمسارعة والمسابقة في الصالحات فقال عزّ من قائل: { فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَمِثْلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ } [المائدة: 48].

ويقول الله مبيّناً صفات الكمّل من المؤمنين أن من صفاتهم إطعام الطعام حتى للكافر، قال تعالى: { وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا { [الإنسان: 9]، والأسير هنا هو الكافر.

هذا دأب الصالحين المصلحين وأصحاب القلوب الرحيمة من المسلمين، تجدهم دائماً يسعون لنفع الناس وبذل الخير ما استطاعوا لذلك سبيلاً، يقول الله تعالى: { لَأَ خَيْرٌ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَا مَن أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا } [النساء: 114].

ولقد حثّ نبينا ﷺ على فعل الخير وإغاثة الملهوف وإعانة المكروب وقضاء الحوائج والسعي في تخفيف المعاناة في أحاديث كثيرة، منها ما رواه مسلم⁽¹⁾ عن النبي ﷺ قال: «عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ»، قيل: أرأيت إن لم يجد؟ قال: «يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ»، قال: قيل: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ»، قال: قيل له: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوْ الْخَيْرِ»، قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ».

(1) صحيح مسلم، مسلم، (699/2)، حديث (1008).

وفي الحديث الشريف⁽¹⁾: «السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمِسْكِينِ، كَالْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ

النَّهَارِ»، أي: له أجر عظيم وكبير عند الله تعالى، فشبّه الرسول أجره بأجر المجاهد في سبيل الله والقائم الصائم.

أيها المسلمون، إنَّ سورة الكهف التي نَحُتُّكم على قراءتها كلَّ جمعةٍ منها من العظات والعبير ما يرشدنا إلى رفع المعاناة عن المستضعفين، فهذا الخضر عليه السلام أقامَ جدارًا كاد أن ينقضَّ وكان تحته كنزٌ لأيتام، وهذا ذو القرنين بنى سدًّا منيعًا على يأجوج ومأجوج فأراح المسلمين من شرِّ هؤلاء الكفرة، وهذا أيضًا الخضر عليه السلام يزيل قطعة خشب من السفينة إنقاذًا لهم من ملك ظالم، وهذا موسى عليه الصلاة والسلام يأتي إلى مدين، قال تعالى: {وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْتَفُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِيكَ لَأَنَّا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ} [القصص: 23].

ويقول الله تعالى مخاطبًا مَنْ أنعم عليهم بنعمة المثلث: {اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ}

[سبأ: 13].

وفي السنَّة المطهَّرة أحاديث كثيرة تحت على ذلك، قال ﷺ: «كُلُّ سَلَامِي (2) مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطْلُعُ

فِيهِ الشَّمْسُ»، قال: «تَعْدِلُ بَيْنَ الْإِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ»، قال: «وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمَشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»⁽³⁾.

ووعده الله تبارك وتعالى أهل الإيمان المتطوعين بالأعمال الحسنة والبر والمسارعين في الخير وإغاثة المحتاجين بجنة عرضها

السموات والأرض، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل

عمران: 133].

فيا له من فوزٍ وظفرٍ ونعمةٍ وفضلٍ وكرمٍ وإحسانٍ، وكلُّ ميسرٍ لما خلُق له، والموفق من وفقه الله.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَمَنْ اسْتَنْصَرَكَ فَانصُرْهُ».

الشرح: إنَّ النصره في الدين من كمال الإيمان بالله العظيم، وقد قال ربُّنا: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10]،

وقال النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ»⁽⁴⁾.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (62/7)، حديث (5353).

(2) أي: كل مفصل من مفاصل الجسد.

(3) صحيح مسلم، مسلم، (699/2)، حديث (1009).

وأخوة الدين يشترك فيها الصغير والكبير والذكر والأنثى والعربي والأعجمي، إنهم إخوة في الإسلام.

وقوله ﷺ: «أخو المسلم» فسره بحديثه الآخر: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه بها كربةً من كربة يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»⁽¹⁾، وهذه صفة المؤمن الكامل، ومعنى الحديث أن المسلم الكامل لا يسلم أخاه في مصيبة نزلت به ولا يتركه ولا يتخلى عنه، ولا يتركه لمن يؤديه بل يحول بينه وبين ذلك، وقال عليه الصلاة والسلام: «انصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»⁽²⁾، أي: إن كان مظلومًا فخذ بحقه، وإن كان ظالمًا فاردعه عن ظلمه.

ثم إن النصره معناها الإعانة، وتكون بأمرٍ، ومن ذلك المال، فقد جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي ﷺ بألف دينارٍ فجعلها بين يدي النبي ﷺ، وحفر للمؤمنين بئر رومة، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَنْ يَخْفِرْ بِئْرَ رُومَةَ فَلَهُ الْجَنَّةُ»⁽³⁾، فحفرها عثمان رضي الله عنه، وجهز جيش العسرة، والنبي ﷺ لما رأى رجلاً ليس له راحلةٌ وهو ينظر يميناً وشمالاً، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلٌ ظَهَرَ، فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا ظَهَرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَلْيُعِدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»⁽⁴⁾.

ومن النصره ما يكون بالدعاء، والدعاء من المسلم للمسلم هو من الموالاة، والله سبحانه وتعالى أخبر أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، والنبي عليه الصلاة والسلام لما هاجر إلى المدينة لم يترك إخوانه المستضعفين بمكة من الدعاء، وكان يدعو لهم واحداً واحداً، كان يدعو لهم بأسمائهم ويقول: «اللَّهُمَّ أَنْجِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ»⁽⁵⁾.

والنبي عليه الصلاة والسلام قد علمنا أن الضعفاء من المسلمين يُستنصر بدعائهم، قال عليه الصلاة والسلام: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضَعْفَانِكُمْ»⁽⁶⁾.

(4) صحيح البخاري، البخاري، (128/3)، حديث (2442).

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1996/4)، حديث (2580).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (128/3)، حديث (2443).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (13/5).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1354/3)، حديث (1728).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (26/2)، حديث (1006).

(6) صحيح البخاري، البخاري، (36/4)، حديث (2896).

ومن النصرة أن لا تكون عوناً لظالم على أخيك المسلم، والله تعالى قال: {وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} [هود: 113]، وقد بكى بعض السلف لما سمعها وقال: «إذا قال ربنا: {وَلَا تَزْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ} فكيف بالظالم نفسه».

أما النصرة بالنفس فإنَّ النبي ﷺ قام إلى بني قينقاع اليهود مع أصحابه فقاتلهم لكفرهم ولأنهم آذوا مسلمةً، ومشهورٌ في السيرة أنهم عقدوا طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأها فضحكوا. وهكذا لما قامت امرأة من المسلمين تستغيث تقول وهي هاشمية وقد آذاها النصارى: «وا معتصماه»، فماذا فعل ملك الروم؟ قال: دعي المعتصم يأتي على فرسٍ أبلق لينصرك، فقام المعتصم لما سمع بذلك مستنصرًا، أمرًا عساكر المسلمين ألا يخرجوا إلا على خيولٍ بليقٍ، ودَهَبَ في أربعين ألفًا يفتح البلدان إلى عمورية، فحاصرها وضربها بالمنجنيق، واستمرَّ الحصارُ خمسةً وخمسين يومًا حتى استسلموا وسلّموا المدينة للمسلمين، فطلب المعتصم إحصار المرأة فأحضرت في قيودها، فلما وقعت عينه عليها قام وقال: «لبيك، قد أجبْتُ دعوتك في أربعين ألف أبلق».

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [الأنفال: 72].

أخي القارئ، {إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: 128]، وكان كذلك النبي ﷺ وأصحابه يسعون في إغاثة إخوانهم ويمدونهم بالطعام والشراب واللباس والمال.

وهذه النصرة من المسلم لأخيه المسلم، فقد كان الصحابة يقومون بما أفرادًا وجماعاتٍ، قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة: 71].

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَحْبِي قلوبنا بالإيمان الكامل وأن ترزقنا حبَّك وحب من يحبك، اللَّهُمَّ فَرج هموم المسلمين ونفيس كرب المستضعفين منهم وارحمهم يا ربَّ العالمين.

قَالَ الإمامُ أَبُو حنيفةَ رضي اللهُ عنه: «وأظهرُ التودُّدِ إلى الناسِ ما استطعت».

الشرح: وسائل التودُّدِ إلى الخلق كثيرةٌ جدًّا، وتختلف باختلاف الأشخاص والأوقات والأحوال، ولكن نعدُّ بعضًا من

أهمَّ هذه الوسائل، فمنها:

- 1- حسن الخلق مع البشر فهو مفتاح قلوبهم، والباعث على مودة صاحبه وممهّد له في قلوب الناس مكاناً، قال أبو حاتم بن حبان البستي: حسن الخلق بذر اكتساب المحبة، كما أنّ سوء الخلق يذر استجلاب البغضة، ومن حسن خلقه صان عرضه، ومن ساء خلقه هتك عرضه، لأنّ سوء الخلق يورث الضغائن، والضغائن إذا تمكّنت في القلوب أورثت العداوة، والعداوة إذا ظهرت من غير صاحب الدين هوت بصاحبها إلى النار إلا أن يتداركه المولى بتفضّل منه وعفو⁽¹⁾.
- 2- البشاشة وطلاقة الوجه والتبسّم في وجوه الناس مما يقذف الود في قلوب البشر لصاحبها.
- 3- الرفق ولين الجانب، والأخذ باليسر، والسهولة في معاملة الناس.
- 4- التواضع وخفض الجناح وعدم التعالي والتكبر عليهم، قال أبو حاتم: ولكن من أسباب المؤاخاة التي ينبغي على المرء لزومها: مشي القصد وخفض الصوت وقلة الإعجاب ولزوم التواضع وترك الخلاف.
- 5- عدم التثقل عليهم، قال أبو حاتم: ولا ينبغي للمرء أن يكثر على إخوانه المؤونات فيبترهم لأن المرء إذا كثر مصّهُ ربّما ضجرت أمه فتلقيه.
- 6- تفرّج كرب الإخوان والوقوف إلى جانبهم في الملمات والأحزان ومواساتهم والإحسان لهم، فعن سليمان مولى عبد الصمد بن عليّ أن المنصور قال لابنه المهدي: اعلم أن رضا الناس غاية لا تدرك فتجنّب إليهم بالإحسان جهدك وتودّد إليهم بالإفضال، واقصد بإفضالك موضع الحاجة منهم.
- 7- الزيارة والتواصل والسؤال عن الإخوان وتجنب الجفاء بين المتودّد وبين من يطلب وُدّه. قال أبو حاتم: العاقل يتفقّد ترك الجفاء مع الإخوان ويراعي محوها إن بدت منه، ولا ينبغي أن يستضعف الجفوة اليسيرة لأنّ من استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيراً فإذا الصغير كبير؛ بل يبلغ مجهوده في محوها.
- 8- عدم مقابلة الإساءة منهم بالمثل، فمن أراد التودد للبشر فليعفّ وليصفح وليقابل الإساءة بنقيضها. قال السلمي: وقابل القطيعة بالصلة، والإساءة بالإحسان، والظلم بالصبر، فقد قال ﷺ لعقبة رضي الله عنه: «يَا عَقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»⁽²⁾.

(1) وهذا ليس معناه أنه يكون بذلك كافراً، إنما بسبب وصوله إلى الكبائر يستحق دخول النار، وإن دخلها وهو مسلم لا يُخلّد فيها.

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (417/10)، حديث (7723).

9- إدخال السرور في قلوب الناس، والتبسم لهم والمزاح، قال الماوردي: العاقل يتوَحَّى بمزاحه أحد حالين لا ثالث لهما، أحدهما: إيناس المصاحبين والتودد إلى المخالطين كما قال حكيم لابنه: يا بني اقتصد في مزاحك فإنَّ الإفراط فيه يذهب البهاء ويَجْرِي السفهاء، والتقصير فيه نقصُ بالمؤانسين وتوحش بالمخاطبين. والثاني: أن ينفي المزاح ما طرأ عليه وحدث به من هم.

تنبيه مهم: لا ينبغي أن يكثر من المزاح بل يستعمله وقت الحاجة إليه للتخفيف عن إخوانه وأصحابه بما يفرحهم ويزيح الهمَّ والأحزان عن قلوبهم، ويراعي أن يكون المزاح موافقاً للدين فلا يكذب ولا يؤذي ولا يروِّع ولا يُكثِر بحيثُ يصير عادةً له.

10- أن يوقر الشيوخ والمشايخ ويرحم الصبيان، وفي الحديث قال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا (1) مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيُوقِرْ كَبِيرَنَا» (2).

11- أن يبدأ من يلقى بالسلام قبل الكلام، قال ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ» (3)، وقد سبق التعليق على معنى هذا الحديث فانظره.

12- الكلمة الطيبة، فهي تقوِّد القلوب إلى محبة صاحبها.

13- الهدية، وهي وسيلة ذات أثر كبير على القلوب، فقد قال ﷺ: «تَهَادَوْا تَحَابُّوا» (4).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَفْسُ السَّلَامِ، وَلَوْ عَلَى قَوْمٍ لَنَا».

الشرح: وصيةٌ فيها توثيق عرى المحبة بين المسلمين، وهي من علاقة العالم بغيره، ويستفاد منها الأمر بإفشاء السلام.

وأما بالنسبة لمعنى «السلام عليكم» فهو دعاء بالسلامة من الآفات في الدين والنفس. قال تعالى: { فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا

فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [النور: 61]. وقال نبيُّ الله ﷺ:

«حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قيل: ما هُنَّ يا رسول الله؟ قَالَ: «إِذَا لَقَيْتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَاجِبْهُ، وَإِذَا

اسْتَنْصَحَكَ فَانصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدِ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدَّهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ».

(1) أي: ليس على طريقتنا الكاملة.

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (321/4)، حديث (1919).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (74/1)، حديث (93).

(4) شعب الإيمان، البيهقي، (301/11)، حديث (8568).

وقد عدَّ النبي ﷺ ردَّ السلام من حقِّ الطريق، قال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطَّرِيقَاتِ»، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا»، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: «غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَهَيِّ عَنِ الْمُنْكَرِ»⁽¹⁾.

وقد رغبت النصوص في إفشاء السلام، فهذه تحية للمسلمين في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ قَالَ أَذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَيَّ أَوْلِيكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَاسْتَمِعَ مَا يُحْيُونَكَ، تَحِيَّتِكَ وَتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ»⁽²⁾.

وأما في الآخرة فلأنَّ السلام تحية الملائكة للمؤمنين في الجنة، قال تعالى: {جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: 23، 24]، وقال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ} [الزمر: 73].

وهو تحية أهل الجنة في الجنة، قال الله عزَّ وجلَّ: {تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ} [الأحزاب: 44]، وقال تعالى: {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا} [الواقعة: 25، 26]، وقال عزَّ وجلَّ: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم: 23].

ومن ثمرات إفشاء السلام:

1- السلامة من الحقد، وسلامة الصدر، فعن البراء بن عازب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أَفْشُوا السَّلَامَ تَسَلَّمُوا»⁽³⁾.

2- الأجر الكبير، فقد ثبت عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، فَإِنْ قَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عِشْرِينَ حَسَنَةً، فَإِنْ قَالَ: وَبَرَكَاتُهُ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلَاثِينَ حَسَنَةً»⁽⁴⁾.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (132/3)، حديث (2465).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (131/4)، حديث (3326).

(3) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (245/2)، حديث (491).

(4) شعب الإيمان، البيهقي (244/11)، حديث (8485).

3- اغتياظ اليهود، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «مَا حَسَدَتْكُمْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ مَا حَسَدَتْكُمْ عَلَى السَّلَامِ وَالْتَأَمِينَ»⁽¹⁾.

4- علو المسلمين، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَفْشُوا السَّلَامَ كَيْ تَعْلُوا». قال المناوي: «أي: يرتفع شأنكم، فإنكم إذا أفشيتموه تحاببتم فاجتمعت كلمتكم فقهرتم عدوكم وعلوتم عليه».

5- إفشاء السلام من خير الأعمال، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ»⁽²⁾. وكل الإسلام خير، وإنما سؤاله هنا عن ما هو من خصال الإسلام، أي من خيرها وأفضلها إفشاء السلام.

6- رحمة الله، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِاللَّهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ»⁽³⁾ والمعنى أطوعهم لله كما في رواية أخرى. قال الطيبي: «أي أقرب الناس من المتلاقين إلى رحمة الله من بدأ السلام».

7- سبب البركة، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا بُيَّ إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُونُ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ»⁽⁴⁾.

8- سبب لمغفرة الذنوب، قال ﷺ: «إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْمَغْفِرَةِ بَدْءَ السَّلَامِ، وَحُسْنَ الْكَلَامِ»⁽⁵⁾.

9- سبب لدخول الجنات بسلام، فعن أبي شريح أنه سأل رسول الله ﷺ أخبرني بشيء يوجب لي الجنة فقال: «طِيبُ الْكَلَامِ وَبَدْءُ السَّلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ»⁽⁶⁾.

تنبيهه: قوله: «يوجب لي الجنة» معناه: يكون سبباً لي أن أدخل الجنة بسلام، وليس معناه أن هذا العمل يوجب على الله إدخاله الجنة، إذ إن الله تعالى لا يجب عليه شيء. قال ابن رسلان: «وما على الإله شيء يجب».

فالمسلمون يعتقدون أن إدخال الله للمؤمنين الجنة هو محض فضل وتكرم وإحسان منه عز وجل، وإدخال الكافرين وبعض عصاة المسلمين النار محض عدلٍ منه ليس ظلماً. فالله لو عذب أهل أرضه بما فيهم الأنبياء وأهل سماواته يعني الملائكة

(1) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (278/1)، حديث (856).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (12/1)، حديث (12).

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (351/4)، حديث (5197).

(4) سنن الترمذي، الترمذي، (59/5)، حديث (2698).

(5) المعجم الكبير، الطبراني، (180/22)، حديث (469).

(6) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (258/2)، حديث (504).

لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم لأنّ أعمالهم كما تقدّم لا توجب على الله إدخالهم الجنة، فرحمته سبحانه خيراً لهم من أعمالهم، وهذا لا يتناقض ولا يتناقض مع وعد الله تعالى للمؤمنين بالجنة والكافرين بالنار، فوعده سبحانه تفضلاً منه، ولا يتخلف، بل تخلفه مستحيل، وكذلك وعيده.

وانتبه أيها المسلم من البخل بالسلام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ فِي الدُّعَاءِ، وَإِنَّ أَبْجَلَ النَّاسِ مَنْ بَجَلَ بِالسَّلَامِ»⁽¹⁾، والمعنى من أعجزهم وأبجلهم، ومعناه إن ترك التسليم على الناس يخسر خيراً عظيماً لا أنه عصى الله.

ثم إنّ للمسلم آداباً وأحكاماً ما أجمل الالتزام بها:

1- أن يكون التسليم بصوتٍ مسموعٍ يسمعه اليقظان ولا ينزعج منه النائم، فقد روى مسلم في صحيحه⁽²⁾ عن المقداد رضي الله عنه قال: «فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ نَصِيبَهُ، وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ ﷺ نَصِيبَهُ، فَيَجِيءُ مِنْ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيمًا لَا يُوقِظُ نَائِمًا، وَيُسْمِعُ الْبَيْظَانَ».

2- أن يُسَلِّمَ الرَّابِطُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ⁽³⁾: «يُسَلِّمُ الرَّابِطُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ».

وقد نقل الحافظ ابن حجر⁽⁴⁾ عن المازري قوله: «لو ابتداء الماشي فسلم على الراكب لم يمتنع لأنه ممثّل للأمر بإظهار السلام وإفشائه غير أن مراعاة ما ثبت في الحديث أولى، وهو خير بمعنى الأمر على سبيل الاستحباب ولا يلزم من ترك المستحب الكراهة بل يكون خلاف الأولى، فلو ترك المأمور بالابتداء فبدأ الآخر كان المأمور تاركًا للمستحب والآخر فاعلاً للسنة إلا إن بادر فيكون تاركًا للمستحب أيضاً».

3- أن يعيد إلقاء السلام إذا فارق أخاه ولو يسيراً لقوله عليه الصلاة والسلام: «إِذَا لَقِيَ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَإِنْ خَالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَوْ جِدَارٌ، أَوْ حَجَرٌ ثُمَّ لَقِيَهُ فَلْيُسَلِّمْ عَلَيْهِ أَيْضًا»⁽⁵⁾.

4- أن يسلم على أهل بيته عند الدخول عليهم.

(1) شعب الإيمان، البيهقي، (193/11)، حديث (8392).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1625/3)، حديث (2055).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (52/8)، حديث (6232).

(4) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (17/11).

(5) سنن أبي داود، أبو داود، (351/4)، حديث (5200).

5- وليحذر التشبه باليهود والنصارى في السلام، فقد الترمذي في السنن أن رسول الله ﷺ قال: «لَيْسَ مِنَّا (1) مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى، فَإِنَّ تَسْلِيمَ الْيَهُودِ الْإِشَارَةُ بِالْأَصَابِعِ، وَتَسْلِيمَ النَّصَارَى الْإِشَارَةُ بِالْأَكْفِ» (2). وهذا التشبه هو أن يشير بيده من غير نطق باللسان بالسلام مع أن الذي يريد أن يسلم عليه قريب منه بالمسافة، أما إذا كان الشخص بعيداً بحيث لو سلمت عليه بلسانك لا يسمع فأشرت إليه فلا كراهة في ذلك.

6- السلام في بداية المجلس وعند مفارقتة لقوله ﷺ: «إِذَا أَنْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ، فَلْيُسَلِّمْ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ، فَلْيُسَلِّمْ فَلَيْسَتْ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ» (3).

7- أن يسلم على الصبيان إذا لقيهم، فقد روى أبو داود في السنن (4) عن أنس قال: «أتى رسول الله ﷺ على غلمان يلعبون فسلم عليهم».

8- البشاشة وطلاقة الوجه والمصافحة، فعن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ، إِلَّا غُفِرَ لهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا» (5).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا لَقِيَ الْمُؤْمِنَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَدَهُ، فَصَافَحَهُ، تَنَافَحَتْ خَطَايَاهُمَا، كَمَا يَتَنَافَرُ وَرَقُ الشَّجَرِ» (6).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل الذي ينزع» (7).

9- أن لا يبدأ الكافر بالسلام، فإن سلم عليه أحد من أهل الكتاب قال: وعليكم. ويجوز عند ابن عباس رد السلام وعند المالكية البدء به والرد مع الكراهة.

10- سلام الرجل على المرأة والعكس: قد ذكر أهل العلم أن الرجل يسلم على المرأة الأجنبية ويرد عليها السلام، وكذا المرأة تسلم على الرجل وترد عليه السلام من باب الجواز، بشرط أمن الفتنة وعدم المصافحة وترك الخضوع بالقول.

(1) أي ليس على طريقتنا الكاملة.

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (56/5)، حديث (2695).

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (353/4) حديث (5208).

(4) سنن أبي داود، أبو داود، (352/4)، حديث (5202).

(5) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1220/2)، حديث (3703).

(6) المعجم الأوسط، الطبراني، (84/1)، حديث (245).

(7) سنن الترمذي، الترمذي، (654/4)، حديث (2490).

وقد سئل الإمام مالك رضي الله عنه: هل يُسَلَّم على المرأة؟ فقال: أما المُتَحَالَّةُ⁽¹⁾ فلا أكره ذلك، وأما الشابة فلا أحب ذلك. وعلل الزرقاني في شرحه على الموطأ عدم محبة مالك لذلك بخوف الفتنة بسماع رَدِّها السلام.

وذكر ابن مفلح أن ابن منصور قال للإمام أحمد: التسليم على النساء؟ قال: إذا كانت عجوزًا فلا بأس به، وقال صالح ابن الإمام أحمد: سألتُ أبي: يُسَلَّم على المرأة؟ قال: أما الكبيرة فلا بأس، وأما الشابة فلا تُسْتَنْطَقُ، يعني لا يُطلب منها أن تتكلم برد السلام.

وإذا كانت النساء جمعًا فسَلِّمَ عليهنَّ الرجلُ أو كان الرجالُ جمعًا فسَلِّموا على المرأة الواحدة جاز بلا كراهةٍ إذا لم يخف عليه ولا عليهن ولا عليها أو عليهم فتنة.

روى أبو داود⁽²⁾ عن أسماء بنت يزيد قال: مرَّ علينا النبي ﷺ في نسوة فسَلِّمَ علينا.

ولا شكَّ أنَّ النبي ﷺ كان من الفتنة معصومًا إن سلَّم أو سلِّم عليه. وفي فعله دليلٌ على جواز ذلك وهو تعليمٌ للأمة. والصواب والحق والمعتمد الذي لا محيد عنه أنَّ صوتَ المرأة ليس عورة.

11- قال النووي رحمه الله: «والأكمل أن يقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فيأتي بالواو، فلو تركها جازَ وكان تاركًا للأفضل، ولو اقتصر على «عليكم» لم يُجْزِه بلا خلافٍ، ولو قال: «وعليكم» بالواو ففي إجزائه وجهان لأصحابنا، قالوا: وإن قال المبتدئ: سلام عليكم أو السلام عليكم فقال المجيب مثله: سلام عليكم أو السلام عليكم كان جوابًا وأجزأه»، قال الله تعالى: { قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ } [هود: 69]، ولكن بالألف واللام أفضل.

12- ومن كان في صلاةٍ فسَلِّمَ عليه ردًّا بالإشارة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «خرج رسول الله ﷺ إلى قباء يصلي فيه»، قال: «فجاءته الأنصار، فسلموا عليه وهو يصلي»، قال: «فقلت لبلال: كيف رأيت رسول الله ﷺ يرد عليهم حين كانوا يسلمون عليه وهو يصلي؟»، قال: «يقول هكذا، وبسط كفه»، وبسط جعفر بن عون كفه، وجعل بطنه أسفل، وجعل ظهره إلى فوق⁽³⁾.

13- إذا دخل بيتًا خاليًا قال: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، فقد روى البخاري في «الأدب المفرد» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «إذا دخل البيت غير المسكون فليقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين». وقال مجاهدٌ: «إذا

(1) هي العجوز.

(2) سنن أبي داود، أبو داود، (352/4)، حديث (5204).

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (243/1)، حديث (927).

دخلت المسجد فقل: السلام على رسول الله، وإذا دخلت على أهلِكَ فسَلِّمْ عليهم، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحدٌ فقل: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

14- ثبت عند مسلم أنّ النبي ﷺ زار المقابر فسَلِّمْ بقوله: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لِلْحَقُونِ، أَسْأَلُ اللَّهَ لَنَا وَلَكُمْ الْعَافِيَةَ»⁽¹⁾.

15- ولا يقال عند ابتداء السلام: عليك السلام، فقد روى أبو داود في سننه⁽²⁾ عن أبي جري جابر بن سليم قال: رأيت رجلاً يصدر الناس عن رأيه، لا يقول شيئاً إلا صدروا عنه، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا رسول الله ﷺ، قلت: عليك السلام يا رسول الله، مرتين، قال: «لَا تَقُلْ: عَلَيْكَ السَّلَامُ، فَإِنَّ عَلَيْكَ السَّلَامُ تَحِيَّةُ الْمَيِّتِ».

16- ومن أرسل رسالةً سَلِّمْ على المرسل إليه فيها، وردَّ القارئ بعد قراءة السلام: وعليه السلام.

17- ولا يقول للمسلمين: السلام على من اتبع الهدى، فإنَّ النبي ﷺ كتبها إلى أهل الكتاب.

18- وإذا سلم على جماعة وردَّ واحدٌ أجزاءه، وإن اشتركوا في ذلك أُجزوا. وإذا دخل رجلٌ على جماعة فقال: السلام عليكم جميعاً أو فرداً فرداً، كفى ردُّ أحد الحاضرين.

19- وإذا قال لك أحدٌ: إن فلاناً يقرأ عليك السلام، فالسُّنَّة أن تقول: عليك وعليه السلام⁽³⁾.

20- ويسلم على الأنبياء إذا ذكرهم كما علمنا ربنا في كتابه حيث قال: {سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ} [الصفات: 120]،

وقال عزَّ وجلَّ: {سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ} [الصفات: 130]. وإذا ذكر نبينا محمداً ﷺ قال ﷺ للآية: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللَّهُمَّ فَهِّنَا فِي دِينِنَا، واجعلنا من ورثة أنبيائك والمفتفين لأثارهم ومن السالمين يوم الدين.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومتى جمعك وغيرك مجلس، أو ضمك وإياهم مسجد، وجرت المسائل،

وحاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تُبد لهم منك خلافاً.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (671/2)، حديث (975).

(2) سنن أبي داود، أبو داود، (56/4)، حديث (4084).

(3) والسُّنَّة في زيادة: عليك، وإلا فردُ السلام واجبٌ.

فإن سُئِلَتْ عنها! أجبَتْ بما يَعْرِفُهُ القَوْمُ، ثم تقول: وفيها قولٌ آخر كذا، وُحِجَّتْ كذا، فإذا سَمِعُوا مِنْكَ عَرَفُوا قَدْرَكَ ومِقْدَارَكَ، وإن قالوا: هذا قول مَنْ؟ فقل: قول بعض الفقهاء.

وإن استقرُّوا على ذلك، وألفوه، وعرفوا مقدارك وعظّموا محلك، فأعط كل مَنْ يَخْتَلِفُ إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه، ويأخذ كلٌّ منهم بحظٍّ شيءٍ مِنْ ذلك».

الشرح: وصية جلييلة تنبئ عن فهم عميقٍ من إمامٍ ملاً فضله بطون الكتب، ولكن لقوة عبارات هذا الإمام كانت هذه الوصية تشتمل على وجوه، فينبغي العناية بشرحها لفهم معناها على ما ينبغي.

فتقول وبالله التوفيق:

أولاً: قد بين لنا النبي ﷺ أنّ الناس مراتب، ليسوا كلهم في طبقة واحدة حيث قال ﷺ: «نَصَرَ اللهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا، فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ، فَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، وَرُبَّ حَامِلٍ فِقْهِهِ لَيْسَ بِفِقْهِهِ»⁽¹⁾ فأفهمنا رسول الله ﷺ أنّ الناس بين مجتهدين وعوام وأمرنا الله سبحانه وتعالى باستفتاء العلماء عند طرود المسائل، فقال سبحانه: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: 7].

ثانياً: علم الدين أيضاً ليست كلُّ مسائله في مرتبة واحدة، إذ إنّ من العلم ما يتعلّق بأصل الدين وأصل العقيدة، ومنه ما يتعلّق بفروع الشريعة، فالأول مثل: توحيد الله، والثاني: مثل مسألة في الوضوء أو الصلاة.

ثالثاً: الكلام على مذاهب العلماء المجتهدين التي عليها عمل الناس، قال ابن قدامة في «المغني»⁽²⁾: «وجعل في سلف هذه الأمة أئمة من الأعلام، مهّد بهم قواعد الإسلام، وأوضح بهم مشكلات الأحكام، اتفاهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة».

وقال ابن العربي في «أحكام القرآن»⁽³⁾: «والذي يسقط لعدم بيان الله سبحانه فيه وسكوته عنه⁽⁴⁾ هو باب التكليف فإنه بعد موت النبي ﷺ تختلف العلماء فيه، فيحرم عالم، ويحلّ آخر، ويوجب مجتهد، ويسقط آخر؛ واختلاف العلماء⁽⁵⁾ رحمة للخلق، وفسحة في الحق، وطريق مهّيع إلى الرفق».

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (322/3)، حديث (3660).

(2) المغني، ابن قدامة، (4/1).

ونزيد الأمر تفصيلاً فنقول: إنَّ قواعد الإسلام وأصوله العقديّة لا تختلفُ بين عالمٍ وآخر بين المجتهدين، ولا بين فقيهٍ وعامي، فلا تختلفُ بين أهل السنّة والجماعة أنفسهم، وبناء على هذا نقولُ: إنَّ ما نشهده من المسلمين من انتساب إلى أشاعرة وماتريديّة ليس معناه أنَّ المسلمين منقسمون في أصول العقائد، وليس معناه أنَّ الإمام أبا الحسن الأشعري والإمام أبا منصور الماتريدي رضي الله عنهما اختلفا في أصل الدين.

والحقُّ أنَّ فرقتي المسلمين الأشاعرة والماتريديّة متفقان في أصول الدين كتوحيد الله تعالى وترك الإشراك به شيئاً وتنزيهه سبحانه عن الخيز والمكان والجهة واللون والشكل والصورة والخيال والحركة والسكون والاتصال والانفصال والدخول والخروج والإحساس والشعور والشم والذوق واللمس والجسم والحجم والكيفيّة والكميّة والأعضاء والجوارح وسائر الكيفيات. وكلهم مجمعون على اتصاف الله تعالى بالوجود، والوحدانية، والقدم، والبقاء، والقيام بالنفس، والقدرة، والإرادة، والعلم، والسمع، والبصر، والحياة، والكلام، والمخالفة للحوادث.

وعلماء الأشاعرة والماتريديّة هم الذين قرّروا في كتبهم قاعدة من أنكر ما علم من الدين بالضرورة أي ما علم ظاهراً يشترك في معرفته العلماء والعامّة من المسلمين كفر، لكن من كان قريب عهدٍ بإسلامٍ أو كان يشبه قريب العهد بالإسلام كأن نشأ في بادية بعيدة عن العلماء أو نشأ بين المسلمين ولكن لم يتردد على سمعه الحكم الذي أنكره فإنه لا يكفر بشرط أن يكون غير عالمٍ بورود الحكم الذي أنكره في دين الإسلام، وقالوا: هذا كله في إنكار حكمٍ فرعيٍّ أي إن لم يكن الأمر الذي أنكره نحو تنزيه الله عن الشبيه وتنزيهه عن التحيز في الجهة والمكان وتنزيهه عن الصورة والهَيْئَة والشكل واللون والحد والعجز والسّفه وصفات المخلوقين، ونحو تبرئة الأنبياء من الخيانة والسفاهة والردالة ونحو ذلك من الصفات الحسية، وقالوا: من نسب إلى الله المكان أو الجهة أو الجسم أو أي صفة من صفات المخلوقين، أو نسب إلى الأنبياء الفسوق بارتكاب الكبائر أو الردالة أو الخيانة أو السفاهة قبل النبوة أو بعدها فإنه يكفر ولو كان حديث عهدٍ بإسلامٍ أو متأولاً بعض الآيات أو الأحاديث على غير معناها لضعف فهم أو علم لأن تجويز النقائص المذكورة على الله تعالى ينقض الإيمان به سبحانه، إذ من جوّز ذلك لم يعرف الله تعالى على ما يجب، فلا يكون مؤمناً به عزّ وجلّ، ولأنَّ تجويز النقائص الآتفة الذكر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ينقض الإيمان برسول الله فلا يكون عارفاً بالرسول على ما يجب.

(3) أحكام القرآن، ابن العربي، (214/2).

(4) أي: لم يُبيّن حكمه، وليس معناه السكوت الذي هو في مقابل الكلام لأنَّ الله منزّه عن صفات المخلوقين.

(5) أي: المجتهدين.

وعمد هؤلاء الأعلام في كتبهم إلى القول بأن أصول الدين أي العقائد قسمٌ متعلِّقٌ بأصل معنى الشهادتين، فمن خالفه ولو مع الجهل بوروده في الشرع لا يصح إيمانه بالله أو برسول الله ﷺ.

وهنا تنبيه مهمٌ جداً: ما رواه يونس بن عبد الأعلى عن الشافعي أن الله أسماء وصفات لا يسع أحدٌ ردها ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فقد كفر وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا الروية والفكر، فنثبت هذه الصفات ونفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، فمراده أن صفات الله تعالى قسمان: قسمٌ يدرك ثبوته لله بالعقل كالصفات الثلاث عشرة، والقسم الثاني: ما لا يدرك بالعقل والروية والفكر.

فالقسم الأول يكفر جاحده والشاك فيه والمتردد والمتوقف فيه، والقسم الثاني لا يكفر جاحده قبل العلم بالحجة التي علم بها لأنه يتعلّق بالسمع بدليل قوله: «لا يدرك بالعقل والروية والفكر».

وليس مراد الشافعي بقوله: «يعذر بالجهل» ما كان من تلك الصفات الثلاث عشرة، فإن الصفات الثلاث عشرة يُدرك ثبوتها لله بالعقل والسمع ولو لم يرد بها نصٌّ قرآنيٌّ أو حديثيٌّ فإنَّ العقل يدل على أن الله قادرٌ على كلِّ شيء عالمٌ بكلِّ شيء بلا استثناء. فمن جهل شيئاً منها فنفي فلا عذر له ولو أسلم من جديد لأنها شرطٌ للألوهية، قال الحافظ ابن الجوزي: «من نفى قدرة الله على كلِّ شيء كافر بالاتفاق» أي: بلا خلاف. قاله في كتابه «كشف المشكل على صحيح البخاري»، ونقله عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه على البخاري⁽¹⁾.

فإدًا لا خلاف بين العلماء في الأصل، وهنا يقع السؤال: ما هو الخلاف الذي أرادته الإمام في هذه الوصية؟

ليعلم أنه قد وقع خلافات بين الأشاعرة والماتريدية كان بعضها مجرد خلاف لفظي بينهما، وأما في الحقيقة فلا خلاف بينهم، وبعضها كان الخلاف فيها متحققاً موجوداً إلا أن هذه الخلافات إنما هي في فروع العقيدة لا أصولها. كما وقع مثل ذلك بين مذاهب العلماء في الأمور الفقهية كالخلافات الحاصلة بين الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد. لكن هذه الخلافات لا توجب تكفيراً ولا تفسيقاً ولا تبديعاً. كيف يكون ذلك وقد وقع الخلاف في مسائل بين صحابة النبي ﷺ.

فكلام الإمام لتلميذه في الوصية: «ثم تقول وفيها قول آخر كذا» محمولٌ على هذين النوعين من الخلاف بدليل قوله

بعد في الوصية: فقل قول بعض الفقهاء.

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (523/6).

فالفقهاء يجتهدون حيث كان للاجتهاد محل، وحيث كان للرأي فيه مجال، فلا يكون للاجتهاد مدخل في الأصول والقطعيات، ولذا نصّ العلماء أنّ من اجتهد فأخطأ فيها كفر، ولا اجتهاد إذا ورد النصّ وجاء الخبر. ولذا قد قال الحافظ ابن المنذر: إذا جاء الخبر ارتفع النظر.

وحيث لم يرد النصّ فالاجتهادُ المبنيُّ على الأسس الصحيحة مقبولٌ، وإلا فلا:

وليسَ كلُّ خلافٍ جاء معتبرًا إلا خلافٌ حظُّ من النظر
وفي الختام فائدةٌ جلييلة:

بما أنّ الكلام قد مرَّ في مراتب الناس، نقول: قد ذكر العلماء أن المشايخ في المذهب الفقهي على مراتب:

الأولى: المجتهد المطلق، وهو إمام المذهب كالشافعيّ وأبي حنيفة، وهذا وظيفته استنباط الأحكام من الكتاب والسنة.

الثانية: أصحاب الوجوه وهؤلاء وظيفتهم استنباط الأحكام من كلام الإمام، فقد ورد عن الشافعيّ قوله مثلاً: «لا تقام جمعان ببلدٍ وإن كبرت»، قال بعض أصحاب الوجوه: «كلام الشافعي على ظاهره، فلو تعددت الجمع في بلدٍ واحدٍ صحت السابقة دون المسبوقه وإن شقَّ الاجتماع»، وقال بعضهم: «كلام الإمام محمولٌ على ما إذا لم يشق الاجتماع وإلا صحت السابقة والمسبوقه».

الثالثة: أهل الترجيح، وهؤلاء وظيفتهم ترجيح أحد أقوال الإمام على الآخر، أو أحد أصحاب الوجوه على الآخر، وذلك لأنّه معلومٌ عند الفقهاء أنه إذا قيل: «وفي المسألة قولٌ» معناه لإمام المذهب، وإذا قيل: «وجه» معناه لأصحاب الوجوه.

الرابعة: النقلة، وهؤلاء حظهم نقل المذهب لغيرهم، فليس لهم أهلية الاجتهاد، ولا حتى الترجيح، وذلك كابن العماد الأقفهسي وابن حجرٍ الهيتمي والخطيب الشرييني وكثير من المتأخرين عند الشافعية.

وعليه نقول: إذا لم يكن للناقل مخالفة قول إمام المذهب في الفروع، فكيف في الأصول؟! وبناءً عليه إذا وُجد في كتابٍ من هو من النقلة عدم تكفير المجسم أو المعتزلي الذي ثبتت في حقه قضية مكفرة فلا عبرة بذلك، وعلى أنه قد ثبت عن الأئمة الأربعة تكفيرهم للمجسم والمعتزلي القائل بخلق أفعال العباد أو المكذب بالقدر. فأهل الإسلام أجمعوا على أنّ من نسب الجسمية أو الحدّ لله تعالى أو وصفه بصفةٍ من صفات خلقه بأنه خارجٌ من الإسلام بقوله أو اعتقاده هذا، وهاك سرد نقولٍ لعلماء وفقهاء ومصنفين ذكروا لفظ الإجماع في تكفير المجسم، فالمجسم لا خلاف في تكفيره، وإليك بيان النقول:

- النقل الأول: قال الحافظ النووي في كتاب «روضة الطالبين»⁽¹⁾ ما نصه: «وأن من دافع نصّ الكتاب أو السُّنَّة المقطوع

بها المحمول على ظاهره فهو كافرٌ بالإجماع»⁽²⁾.

والمجسم كذب قوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} [الإخلاص: 1]، وقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]،

وقوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} [النحل: 60] تكذيباً صريحاً فهو كافرٌ بالإجماع بنص الحافظ النووي هذا.

وكذلك قال ابن حجر الهيتمي في كتابه «الإعلام بقواطع الإسلام»⁽³⁾ ما نصه: «وأن من دفع نص الكتاب أو السُّنَّة

المقطوع بها المحمول على ظاهره فهو كافرٌ بالإجماع».

- النقل الثاني: قال الفقيه الشافعي أبو العباس نجم الدين أحمد بن محمد بن الرفعة في كتابه «كفاية النبيه شرح التنبيه»⁽⁴⁾

في فقه الإمام الشافعي ما نصه: «ولا تجوز الصلاة خلف كافرٍ لأنه لا صلاة له، فكيف يُقتدى به، وهذا ينظم من

كفره مجمعٌ عليه ومن كُفِّرناه من أهل القبلة كالفائلين بخلق القرءان وبأنه لا يعلم المعدومات قبل وجودها، ومن لا يؤمن

بالقدر وكذا من يعتقد أن الله جالسٌ على العرش، كما حكاه القاضي حسين هنا عن نص الشافعي».

وانظر إلى قول ابن الرفعة «من كفره مجمعٌ عليه» وذكر فيهم المحسمة والمعتزلة. وأكد أن تكفير المجسم هو نص الشافعي

كما نقله القاضي حسين رحمه الله تعالى.

- النقل الثالث: قال الإمام الأستاذ عبد القاهر بن طاهر أبو منصور البغدادي التميمي في كتابه «تفسير الأسماء

والصفات»⁽⁵⁾: «فأما أصحابنا فإنهم وإن أجمعوا على تكفير المعتزلة والغلاة من الخوارج والنجارية والجهمية والمشبهة

فقد أجازوا لعامة المسلمين معاملتهم في عقود البياعات والإجازات».

(1) روضة الطالبين، النووي، (70/10).

(2) وهذا ما ذكره محمد عيش المالكي وغيره. منح الجليل شرح على مختصر خليل، محمد عيش، (210/9). فتاوى السبكي، السبكي،

(38/5). الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، علاء الدين ابن العطار، (169/1). الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض،

(457/1).

(3) الإعلام بقواطع الإسلام، ابن حجر الهيتمي، (ص74، 75).

(4) كفاية النبيه شرح التنبيه، ابن الرفعة، (24/4).

(5) تفسير الأسماء والصفات، أبو منصور البغدادي، (ص228، 229).

وهذا إجماعٌ صريحٌ على تكفير المشبهة، والمجسمة مشبهة بلا شك، ومراده بأصحابنا جمهور الشافعية والأشاعرة لأنه رحمه الله كان رأسًا مشهورًا فيهم.

وقال الإمام الأستاذ الفقهي المؤرخ الخبير بالفرق والتحلل الذي كان رأسًا في الأشاعرة الشافعية أبو منصور البغدادي في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»⁽¹⁾: «إجماع الأمة على إكفار من أنكر النبوات أو شكَّ في عقائد الأنبياء، وإذا كان شكُّه في صفات بعض الناس يورثه الكفر فشكُّه في صفة لازمة لله عزَّ وجلَّ أو جهله بما أولى بأن يوجب تكفيره».

وهنا نقل البغدادي الإجماع على كفر من جهل صفةً لازمةً لله، ولا شكَّ أن الجسم جاهل بالله، وليس مجرد صفةً لازمةً له فقط، فيكون كافرًا بالإجماع.

وقد قال إمام أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري رحمه الله⁽²⁾: «فكذلك اعتقاد من اعتقد أن الباري تعالى أجزاء متصلة وأبعض متلاصقة كفرٌ به وجهلٌ».

وقال رحمه الله: «والجهل بصفة لله تعالى كفرٌ». ومعناه أن إنكار صفةٍ من صفات الله الثلاث عشرة أو الشك فيها أو في واحدةٍ منها كفرٌ وخرج من الإسلام.

وهذا إجماعٌ على كفر المجسم والجهوي الذي يثبت الجهة لله، لأنه بذلك أنكر صفة المخالفة للحوادث التي هي ثابتة لله عزَّ وجلَّ، وجعله جسمًا يفتقر إلى موجدٍ، وجعله محتاجًا إلى المكان وإلى مخصصٍ يخصه بذلك.

- النقل الرابع: قال الفقيه الشافعي أبو بكر تقي الدين الحصني الشافعي في كتابه «دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد»⁽³⁾ ما نصه: «لأن الكيف من صفات الحادث، وكل ما كان من صفات الحادث، فالله عزَّ وجلَّ منزَّه عنه، فإثباته له سبحانه كفرٌ محققٌ عند جميع أهل السنة والجماعة».

وهذا إجماعٌ صريحٌ على كفر المجسمة لأنهم وصفوا الله بصفات الحوادث التي هي الجسمية.

(1) تفسير الأسماء والصفات، أبو منصور البغدادي، (ص46).

(2) مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، ابن فورك، (ص228).

(3) دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك إلى السيد الجليل الإمام أحمد، تقي الدين الحصني، (ص18).

وقال أيضاً في كتابه «كفاية الأختيار في حل غاية الاختصار» ما نصه⁽¹⁾: «إلا أن النووي جزم في صفة الصلاة من

شرح المذهب بتكفير المجسمة.

قلت - أي: الحصني -: وهو الصواب الذي لا محيد عنه، إذ فيه مخالفة صريح القرآن قاتل الله المجسمة والمعطلة، ما

أجراهم على مخالفة من ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير. وفي هذه الآية ردُّ على الفريقين».

وانظر إلى قوله: «وهو الصواب الذي لا محيد عنه إذ فيه مخالفة صريح القرآن»، وتكذيب القرآن كفرٌ بإجماع الأمة،

فالمجسم كافراً بإجماع الأمة.

- النقل الخامس: قال تقي الدين الحصني ما نصه: «خرج - أي: ابن تيمية - عن الاتباع إلى الابتداع وشدَّ عن جماعة

المسلمين بمخالفة الإجماع وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدس».

- النقل السادس: قال الشيخ ملا علي بن سلطان محمَّد القاري الحنفي في كتابه «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة

المصابيح»⁽²⁾ ما نصه: «قال النووي في شرح مسلم في هذا الحديث (أي: حديث النزول) وشبهه من أحاديث الصفات

وآياتها مذهبان مشهوران، فمذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين الإيمان بأنها حقٌّ على ما يليق بالله تعالى وأن

ظواهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا نتكلم في تأويلها مع اعتقادنا تنزيه الله سبحانه عن صفات المخلوق وعن الانتقال

والحركات وسائر سمات الحدوث. والثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعة من السلف وهو محكيٌّ عن مالك والأوزاعي أنها

تُتأول على ما يليق بما بحسب مواطنها. فعليه: الخبر مؤول بتأويلين، أي المذكورين، وبكلامه وبكلام الشيخ الرباني أبي

إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين والغزالي وغيرهم من أئمتنا وغيرهم يعلم أن المذهبين متفقان على صرف تلك الظواهر -

كالجحيء والصورة والشخص والرَّجل والقَدَمَ واليد والوجه والغضب والرحمة والاستواء على العرش والكون في السماء وغير

ذلك - مما يفهمه ظاهرها لما يلزم عليه من محالات قطعية البطلان تستلزم أشياء يحكم بكفرها بالإجماع فاضطر ذلك

جميع الخلف والسلف إلى صرف اللفظ عن ظاهره».

(1) كفاية الأختيار في حل غاية الاختصار، تقي الدين الحصني، (ص382).

(2) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ملا علي القاري، (2/136).

وانظر هنا إلى قوله: «يُحْكَمُ بِكُفْرِهَا بِالْإِجْمَاعِ»، فإذا كان من يصف الله تعالى بظاهر هذه الأشياء المذكورة هنا كافرًا بالإجماع، فكيف بالمجسم؟! فهو داخلٌ في هؤلاء الذين ينسبون لله المكان ويصفه بظواهر الآيات والأحاديث المتشابهة، فلا خلاف في كفره!!

- النقل السابع: قال الإمام الحافظ الفقيه أحمد بن سلامة أبو جعفر الوراق الطحاوي المصري في عقيدته المشهورة بالعقيدة الطحاوية: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

وهذه العقيدة تلقتها الأمة سلفًا وخلفًا بالقبول والفرح والسرور، فأقبلوا عليها حفظًا ودرسًا وشرحًا وتعلّمًا وتعليمًا واستحسانًا بلا تكبير ولا خلاف.

ويقول الطحاوي رحمه الله: «إن هذه الرسالة هي ذكر عقيدة أهل السنّة والجماعة على حسب ما قرره أبو حنيفة وأبو يوسف يعقوب بن إبراهيم وأبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني أي من حيث سبك العبارات أضع هذه الرسالة على أسلوب هؤلاء الأئمة الثلاثة، أما من حيث المعنى فهو مذهب أهل الحق أهل السنّة والجماعة كلهم بلا استثناء». وأهل السنّة والجماعة هم الصحابة ومن تبعهم في المعتقد⁽¹⁾.

وانظر إلى قوله: «فهو مذهب أهل الحق، أهل السنّة والجماعة كلهم بلا استثناء»، أي: هذا إجماع... وقد سبقت عبارة الطحاوي «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر»، إذاً هو إجماع صريح ظاهر على كفر المشبهة المجسمة.

- النقل الثامن: قال الإمام الحافظ المجتهد المجدد الشيخ عبد الله بن محمد بن يوسف الهرري المعروف بالحبيشي رضي الله عنه وأرضاه في كتابه التعاون⁽²⁾: «والمجسم كافر بإجماع الأئمة الأربعة وغيرهم لأن من جسّم الله تعالى كذب قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، فإنه جعل لله أمثالا كثيرة لا تُحصى».

وقال بعد أسطر قليلة: «وقد اتفق الأئمة الأربعة وغيرهم على أن المجسم كافر».

وهذا تصريحٌ من إمام أهل السنّة في عصرنا بوجود الإجماع على كفر المجسم.

(1) إظهار العقيدة السنية، الهرري، (ص31).

(2) التعاون على النهي عن المنكر، الهرري، (ص59).

- النقل التاسع: وقال الإمام الولي الشيخ عبد الله بن محمد الهرري المعروف بالحبيشي في كتابه «التحذير الشرعي الواجب»⁽¹⁾: «فقد نقل الإمام أبو منصور البغدادي إجماعهم على تكفير المجسم، وثبت عن الإمام أبي الحسن الأشعري أنه قال: المجسم غير عارف بالله فهو كافر به، كذلك في المعتزلة وغيرهم، فدفع التكفير عنهم يؤدي إلى إبطال الشريعة».

- النقل العاشر: قال الإمام الحافظ شيخ السنّة عبد الله بن محمد بن يوسف الهرري المعروف بالحبيشي في كتابه «التعاون على النهي عن المنكر»⁽²⁾: «وأما الوهابية فهم مجسمون وهم كفار لأن الإمام الشافعي رضي الله عنه قال: «المجسم كافر»⁽³⁾.

والإمام أحمد قال: «من قال الله جسم لا كالأجسام كفر»⁽⁴⁾.

وكذلك الإمام مالك رضي الله عنه كفر المجسم.

قال ابن حجر الهيتمي في كتابه المنهاج القويم شرح المقدمة الحضرمية: «واعلم أن القراني وغيره حكوا عن الشافعي ومالك وأحمد وأبي حنيفة رضي الله عنهم القول بكفر القائلين بالجهة والتجسيم وهم حقيقون بذلك».

- النقل الحادي عشر: تفطن الطبري رحمه الله لهذه الطائفة الخبيثة التي جوزت أن يكون ذاته تعالى محلاً للخلق والتغير بالانتقال والزوال من مكان إلى مكان، فصرح بكفرها في معرض بيان عقيدة أهل السنّة في الكلام وكونها صفة وجودية قديمة قائمة بذاته تعالى، وأنه ليس حروفاً وأصواتاً يخلقها الله تعالى ويوجدتها في ذاته بإرادته واختياره كما يصرح التيمية والوهابية ويثبتون حلول الصفات الحادثة بذات الله تعالى ويسمون ذلك قيام الصفات الاختيارية به، وقد ردّ الإمام الطبري كل ذلك قائلاً: «من أبي ما قلنا في ذلك قيل له⁽⁵⁾: أخبرنا عن الكلام الذي وصفت أن القديم به متكلم مخلوق، أخلقه إذ كان عندك مخلوقاً في ذاته، أم في غيره، أم قائم بنفسه؟ فإن زعم خلقه في ذاته، فقد أوجب أن تكون ذاته محلاً للخلق، وذلك عند الجميع كفر».

(1) التحذير الشرعي الواجب، الهرري، (ص134).

(2) التعاون على النهي عن المنكر، الهرري، (ص34).

(3) الأشباه والنظائر، السيوطي، (ص488).

(4) ذكره صاحب الخصال وهو من مشاهير الحنابلة.

(5) التبصير في معالم الدين، الطبري، (ص202).

فالطبري نص على أن الفوقية مصروفة عن ظاهرها حيث إن الله عزّ وجلّ منزّه عن الفوقية المكانية لقول الله تعالى:

{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى: 11]، فمن اعتقد أن الله تعالى مكاناً فقد كفر بإجماع العقلاء⁽¹⁾.

- **النقل الثاني عشر:** قال القاضي عبد الوهاب البغدادي المالكي ما نصه⁽²⁾: «واعلم أن الوصف له تعالى بالاستواء اتباع للنص وتسليم للشرع وتصديق لما وصف به نفسه تعالى به، ولا يجوز أن يثبت له الكيفية لأن الشرع لم يرد بذلك ولا أخبر النبي عليه السلام فيه بشيء ولا سألته الصحابة ولأن ذلك يرجع إلى التنقل والتحول وإشغال الحيز والافتقار إلى الأماكن وذلك يؤول إلى التجسيم وإلى قدم الأجسام وهذا كفر عند كافة أهل الإسلام».

وأقره عليه الأستاذ الدكتور الشيخ أحمد محمّد نور سيف مدير عام دار البحوث ورئيس مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية - دبي⁽³⁾.

- **النقل الثالث عشر:** قال شارح سنن أبي داود محمود خطاب السبكي ما نصه⁽⁴⁾: «فمن اعتقد أن الله عزّ وجلّ متصف بالاستقرار على العرش أو التمكن فيه فهو كافر بالإجماع».

- **النقل الرابع عشر:** قال الشيخ أبو بكر محمّد بن سابق الصقلي ما نصه⁽⁵⁾: «ومن قال إن الله عزّ وجلّ يحدث فيه الحرف بعد الحرف، فقد جعل ربّه محلاً للحوادث وشبّهه بمخلوقاته وشبّهه بمخلوقاته به، وهذا كفر بإجماع، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً».

- **النقل الخامس عشر:** قال الغزالي في كتابه المسمى «إلجام العوام عن علم الكلام» ما نصه⁽⁶⁾: «الوظيفة الأولى: التقديس ومعناه أنه إذا سمع اليد والإصبع في قوله ﷺ: «إن الله خمر طينة آدم بيده» و«إن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»، فينبغي أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين أحدهما هو الوضع الأصلي وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص بصفات مخصوصة والجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع

(1) إتحاف الكائنات، محمود خطاب السبكي، (ص115).

(2) شرح عقيدة الإمام مالك الصغير، عبد الوهاب البغدادي، (ص28).

(3) سلسلة الدراسات العقدية، 2، أحمد محمد نور سيف، (ص68).

(4) إتحاف الكائنات، محمود خطاب السبكي، (ص60).

(5) كتاب الحدود الكلامية والفقهيّة على رأي أهل السنّة الأشعرية، الصقلي، (ص215).

(6) إلجام العوام عن علم الكلام، الغزالي، (ص209).

غيره من أن يوجد بحيث هو إلا بأن ينتحي عن ذلك المكان، وقد يستعار هذا اللفظ أعني اليد المعنى ءاخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلاً كما يقال: البلدة في يد الأمير فإن ذلك مفهوم وإن كان الأمير مقطوع اليد مثلاً. فعلى العامي وغير العامي أن يتحقق قطعاً وبقيناً أن الرسول ﷺ لم يرد بذلك جسمًا هو عضو مركب من لحم ودم وعظم، وأن ذلك على الله تعالى محال وهو عند مقدس، فإن خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم فإن كل جسم هو مخلوق، وعبادة المخلوق كفر وعبادة الصنم كفر لأنه مخلوق، وكان مخلوقًا لأنه جسم فمن عبد جسمًا فهو كافر بإجماع الأمة السلف منهم والخلف».

- النقل السادس عشر: نقل القرابي اتفاق الأئمة الأربعة على تكفير المجسم كما نقل ذلك عنه ابن حجر الهيتمي قال: «وهم حقيقون بذلك».

- النقل السابع عشر: قال القرطبي ما نصه⁽¹⁾ وإن إثبات الجهة لله تعالى كفر عند الأئمة الأربعة كما نقل عنهم العراقي على ما في شرح المشكاة لعلي القاري⁽²⁾.

- النقل الثامن عشر: قال محمود خطاب السبكي ما نصه⁽³⁾: «سألني بعض الراغبين في معرفة عقائد الدين والوقوف على مذهب السلف والخلف في المتشابه من الآيات والأحاديث بما نصه: ما قول السادة العلماء حفظهم الله تعالى فيمن يعتقد أن الله عزّ وجلّ له جهة وأنه جالس على العرش في مكان مخصوص ويقول ذلك هو عقيدة السلف ويحمل الناس على أن يعتقدوا هذا الاعتقاد، ويقول لهم: من لم يعتقد ذلك يكون كافرًا مستدلًا بقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: 5]، وقوله عزّ وجلّ: {ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ} [الملك: 16]، أهذا الاعتقاد صحيح أم باطل؟ وعلى كونه باطلًا أيكفر ذلك القائل باعتقاده المذكور ويبطل كل عمله من صلاة وصيام وغير ذلك من الأعمال الدينية وتبين منه زوجه، وإن مات على هذه الحالة قبل أن يتوب لا يغسل ولا يصلي عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، وهل من صدقه في ذلك الاعتقاد يكون كافرًا مثله؟ فأجبت بعون الله تعالى، فقلت: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الهادي إلى الصواب، والصلاة والسلام على من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وعلى ءاله وأصحابه الذين هداهم الله ورزقهم

(1) التذكار في أفضل الأذكار، القرطبي، (ص208).

(2) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، القاري، (137/2).

(3) إتخاف الكائنات، محمود خطاب السبكي، (ص3، 4).

التوفيق والسداد. أما بعد: فالحكم أن هذا الاعتقاد باطل ومعتقده كافر بإجماع من يعتد به من علماء المسلمين، والدليل العقلي على ذلك قَدَمَ اللهُ تعالى ومخالفته للحوادث، والنقلي قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11]، فكل من اعتقد أنه تعالى حلّ في مكان أو اتصل به أو بشيء من الحوادث كالعرش أو الكرسي أو السماء أو الأرض أو غير ذلك فهو كافر قطعاً، ويبطل جميع عمله من صلاة وصيام وحج وغير ذلك، وتبين منه زوجه، ووجب عليه أن يتوب فوراً، وإذا مات على هذا الاعتقاد والعياذ بالله تعالى لا يغسل ولا يصلّى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومثله في ذلك كله من صدّقه في اعتقاده أعادنا الله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. وأما حمله الناس على أن يعتقدوا هذا الاعتقاد المكفر، وقوله لهم: من لم يعتقد ذلك يكون كافراً، فهو كفر وبهتان عظيم».

ونقل رحمه الله⁽¹⁾ عن الإمام عماد الدين الكندي أنه نص على أن الله تعالى يستحيل عليه الحلول في الأماكن أو اتصاله بالأجسام أو مقابلته لها أو تحيزه في جهة لأن ذلك كله من صفات الحوادث، فمن اعتقد أنه تعالى حل في عرش أو سماء أو حاذى شيئاً من مخلوقاته أو حل في أي جهة من الجهات الست كفرٌ بإجماع العقالين.

- النقل التاسع عشر: يقول علاء الدين البخاري بعد كلامٍ عن مسألة لازم المذهب⁽²⁾: «فإذا؛ يكون القول بأن الله متمكّن على العرش، متحيزٌ فيه، وأنه في جهة فوق قولاً بأنه جسمٌ لأن الجسمية من اللوازم العقلية للمتحيز ولذي الجهة، ومن قال بأن الله جسمٌ فهو كافرٌ إجماعاً. ولهذا قال إمام الحرمين في الإرشاد: إثبات الجهة لله كفرٌ صراح».

- النقل العشرون: قال الشيخ الكوثري ما نصه⁽³⁾: «إن القول بإثبات الجهة له تعالى كفر عند الأئمة الأربعة هداة الأمة كما نقل عنهم العراقي على ما في «شرح المشكاة» لعلي القاري».

- النقل الحادي والعشرون: قال الشيخ أحمد بالعبت الوقراوي محتجاً بكلام السبكي ما نصه⁽⁴⁾: «فتوى شيخ الأزهر السبكي: الحمد لله رب العالمين المنزه عن صفات المخلوقين كالجهة والجسمية والمكان والفوقية، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاء بمحو الشرك والإلحاد وأمرنا بتزيه الله تعالى عن صفات العباد والمنزل عليه {قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ* اللهُ

(1) إتحاف الكائنات، محمود خطاب السبكي، (ص125).

(2) ملجمة الجسمة، علاء الدين البخاري، (ص61).

(3) مقالات الكوثري، الكوثري، (ص321).

(4) مختصر التيسير في التحكيم أهل التفسير، أحمد الوقراوي، (ص29 - 32).

الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ* وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ* {الإخلاص: 1- 4}، وقوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] وعلى ءاله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين. أما بعد، فيقول محمود بن محمَّد بن أحمد السبكي: قد سألتني بعض الراغبين في معرفة - عقيدة - الدين، والوقوف على مذهب السلف والخلف في المتشابه من الآيات والأحاديث بما نصه: «ما قول السادة العلماء حفظهم الله تعالى فيمن يعتقد أن الله عزَّ وجلَّ له جهة وأنه جالس على العرش في مكان مخصوص.. فأجبت بعون الله تعالى... فالحكم أن هذا الاعتقاد باطل ومعتقده كافر بإجماع من يعتد به من علماء المسلمين. والدليل العقلي على ذلك: قدم الله تعالى ومخالفته للحوادث. والنقل قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الشورى: 11] فكل من اعتقد أنه تعالى حلَّ في كان أو اتصل به أو بشيء من الحوادث كالعرش أو الكرسي أو السماء أو الأرض أو غير ذلك فهو كافرٌ قطعاً ويطل جميع عمله من صلاة وصيام وحج وغير ذلك، وتبين منه زوجته ووجب أن يتوب فوراً - بنطقه بالشهادتين للدخول في دين الإسلام - وإذا مات على هذا الاعتقاد لا يغسل ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، ومثله من صدقه في اعتقاده أعادنا الله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا».

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَخَذَهُمْ بِجَلِيِّ الْعِلْمِ دُونَ دَقِيقِهِ».

الشرح: هي لفظة نظرٍ من الإمام ووصيةٌ منه وإرشادٌ له كيف هي الطريقُ لتدريس الناس، وفي الحقيقة: من تأمل الكلمات وفهم فحواها ومغزاها يعرف ويفهم أنَّ الإمام أبا حنيفة يعلمه ويربيه ليكون ربانياً.

ما معنى الرباني؟ وما هو؟ وما هي صفاته؟ أسئلة تطرح وفيما يأتي جوابٌ شافٍ بإذن الله تعالى، وقد قال ﷺ: «فَإِنَّمَا

شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ»⁽¹⁾.

يقول الله سبحانه وتعالى في محكم تنزيله: {مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا

لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ} [آل عمران: 79].

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (93/1)، حديث (336).

ويقول عزّ من قائل: { إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاحْشَوُا اللَّهَ } [المائدة: 44]. ويقول أصدق القائلين: { لَوْلَا يَنْهَاهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ } [المائدة: 63].

قال الرازي في تعريف الربانيين: «أن يكون الداعي له في جميع الأفعال طلب مرضاة الله، والصارف له عن كل الأفعال الهرب من عقاب الله».

وأورد الطبري عدة أقوال في تعريف الربانيين، فقال عن أبي رزين: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ } [آل عمران: 79]، حكماء، علماء. وعن الحسن في قوله: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ } قال: كانوا فقهاء علماء. وعن السدي في قوله: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ } أما الربانيون فالحكام الفقهاء، وعن ابن وهب قال: سمعتُ ابن زيد يقول في قوله تعالى: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ } قال: الربانيون الذين يريون الناس، ثم قال الطبري: فالربانيون إذا هم عماد الناس في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا. ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحرار لأنّ الأحرار هم العلماء، والرباني الجامع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمور الرعية وما يصلحهم في دنياهم ودينهم.

وقال القرطبي⁽¹⁾ «قال الضحاك في قوله تعالى: { وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ } قال: حق على كل من تعلم القرآن أن يكون فقيهاً».

وقد قال محمد ابن الحنفية: «لما مات عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لقد مات هذا اليوم رباني هذه الأمة».

والربانيون هم: { الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفُرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [المؤمنون: 2 - 11].

والربانيون هم الذين { إِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَحْمِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يَتَّقُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ } [الأنفال: 2 - 4].

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (22/1).

وهم الذين قال الله فيهم: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا* وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا* إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا* وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَمِمَّا يُنْفِقُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا* وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا} [الفرقان: 63 – 68].

وهم الذين قال الله فيهم: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا* وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا* وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا* أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا* خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا} [الفرقان: 72 – 76].

فالربانيون هم أولئك الذين أخلصوا الله في عبادتهم فعبدوه وحده بحقٍ وصدق امتثالاً لقوله سبحانه: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} [الزمر: 2]، وامتثالاً لقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا وَابْتِغَىٰ بِهِ وَجْهَهُ»⁽¹⁾.

والربانيون هم العلماء العاملون الذي يخشون الله حق خشيته، قال سبحانه: {وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ⁽²⁾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ* إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ* لِيُؤْتِيَهُمُ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ} [فاطر: 28 – 30].

والعلماء الربانيون هم الذين يعلمون الحلال من الحرام، قال البغوي: «الربانيون العلماء بالحلال والحرام».

فهم يطلبون رضا الله سبحانه وتعالى بعلمهم فيطابق قولهم فعلهم، قال أبو عمر الزاهد: سألت ثعلباً عن هذا الحرف وهو الرباني، فقال: سألت ابن الأعرابي فقال: إذا كان الرجل عالماً عاملاً معلماً قيل له: هذا رباني، فإن خرم عن خصلةٍ منها لم نقل له رباني.

قال النووي: «العلماء الربانيون الذين ورثوا النبي ﷺ علماً وعبادةً وأخلاقاً ودعوةً، وهؤلاء هم أولو الأمر حقيقة لأن هؤلاء يباشرون العامة ويباشرون الأمراء ويبينون دين الله ويدعون إليه».

(1) السنن الكبرى، النسائي، (286/4)، حديث (4333).

(2) أي: أن العلماء الأتقياء هم أشد خشية له من غيرهم، وليس الأمر كما ادعى بعض جهلة المتصوفة الزنادقة فقالوا - والعياذ بالله -: «الله يعتذر من العلماء»، فالله تعالى لا يخشى العلماء ولا يخافهم ولا يعتذر منهم ولا من غيرهم، تعالى الله عن ذلك.

ومع إخلاصهم فهم يتحلّون بالحكمة فيدعون إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة ويرفقون بمن يعلموهم، قال الحافظ

ابن حجرٍ في تعريف العالم الرباني: «الرباني الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره».

وهذه العبارة وردت أيضاً عن الإمام البخاري رضي الله عنه.

فالعالم الرباني حكيم في علمه، يضع العلم في موضعه، ولا يصرف دقيق العلم لمن لا يفهمه، فمثلاً عامّة الناس يحتاجون

إلى حكمة في إيصال العلم الذي يجب أن يتعلموه، فيسهل ويسر العلم الشرعي لهم حتى يتمكن من الوصول إلى العوام من

الرجال والنساء والكبار والصغار.

ومن الحكمة أن لا تصدم بعض الناس بما هو أكبر من عقولهم، فقد يؤدي ذلك إلى ردهم وتكذيبهم، وفي الأثر عن

سيدنا علي رضي الله عنه قال: «خاطبوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

ويقول الفقيه الغزالي في «إحياء علوم الدين»⁽¹⁾: «كَيْلٌ لكل عبد بمعيار عقله وَزَنٌّ له بميزان فهمه حتى تسلم منه وينتفع

بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار».

وكم من إنسانٍ خُطِيءَ وُبدِعَ ورُبِّمًا ضُلِّلَ وهو على حقٍّ، لأنه تكلم وسط قوم لا تتسع عقولهم لما قال.

ومن الحكمة أن يبدأ بالأهم قبل المهمّ، فيشتغل بالعلوم الضرورية قبل غيرها، ومن ذلك تعليم الناس العقيدة، عقيدة

النبي ﷺ، وبيان أنّ الله موجودٌ لا كالموجودات، شيء لا كالأشياء، متصفٌ بصفاتٍ تليقُ بجلاله وعظمته، موجود قبل المخلوقات،

وهو مقدسٌ عن صفاتها، لا جسم ولا حجم ولا جثة له، ولا كمية ولا كيفية له، ولا أدوات ولا أعضاء له، ولا زوجة ولا ولد له،

موجودٌ أزلاً وأبداً بلا مكان ولا جهة. والتحذير من الكفر بأقسامه الثلاثة: القولي والفعلي والاعتقادي، والتحذير من أهل

الضلال.

فهؤلاء الربانيون لهم سماتٌ واضحة في تعليمهم منها:

1- أن يكونوا ربانيين حقاً، أي: يربون الناس بالعلم، ويراعون في ذلك التدرج في التعليم، فلا ينقلون الإنسان في طفرات

متسارعة تجعله غير منضبط في علمه وتعليمه.

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي، (57/1).

2- بذل العلم للعامة بسهولة العبارة ووضوحها، لأنَّ المقصودَ ليس التعرُّ بالقول وإظهار القدرة على الناس؛ بل المقصود

تبليغ السامع الحق مع الإخلاص، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: 4].

يقول الشاطبي رحمه الله: وبهذا كان السلفُ الصالحُ يعملون في تبليغ الشريعة للمؤلف والمخالف، ومن نظر في استدلالهم

على إثبات الأحكام التكليفية على أهم قصدوا أيسر الطرق وأقربها إلى عقول المخاطبين والطالبين من غير ترتيب متكلف ولا نظم

مؤلف، بل كانوا يرمون الكلام على عواهنه⁽¹⁾ ولا يباليون كيف وقع الكلام في ترتيبه إذا كان سهلاً المأخذ قريب الملمس.

فتراع أيها المدرس التبسيط والتسهيل والتيسير، فالمهم أن يصل الحق إلى الناس ولا يمنع أنَّ الإنسان قد يخصُّ أقوامًا بمزيد

من العناية والترتيب والتبويب لأنهم طلبة علم مختصون لهم عقم ودقة في البحث أو ما شابه ذلك، ولهذا اختصَّ الخطيب بأهمية

تسهيل العلم للناس.

فهذه بعضُ صفات العلماء الريانيين الهداة المهديين، جعلنا الله منهم وأسلكتنا سبلهم، إنه كريم وعلى ما نسأله قدير.

قَالَ الإمامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وَأَنْسَهُمْ وَمَا زَحَّهُمْ أَحْيَانًا».

الشرح: فلنقدِّم لهذه الوصية مقدمة لطيفة مهمة وهي جليلة النفع عظيمة الفائدة.

ليعلم أنَّ للأعمالِ ضوابطَ تُضَبِّطُ بها حتى تكون موافقة للمشروع، ومتى فقدت هذه الضوابطُ كان ذلك العمل ممنوعًا،

وكم من إنسانٍ غفل عن تلك الضوابطِ فوقع في الممنوعِ من حيثُ يشعرُ أو لا يشعر، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «من عمل

عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ».

ومن تلك الأعمال التي لا بدَّ أن تضبطَ بضوابطِ الشرعِ المزاح الذي يكثر في هذه الأزمنة ويقل من يضبطه بضوابط

الشرع.

وإنَّ هذه الوصية التي كما قد عُلِّمَ تتعلقُ بأدابِ العالم والمتعلم، ومفهوم أنَّ هذه النصيحة بالخصوص تندرج تحت كيفية

تعامل الشيخ والعالم مع طلبته وتلاميذه، وبناء على ذلك لتتكلم على المزاح بالتفصيل ولنحاول استيعاب الموضوع وبيانه بيانًا شافيًا

بإذن الله.

(1) أي: أهم لا يتكلمون في تنميق وترتيب الكلام وصرف الوقت والجهد لذلك من غير حاجة؛ بل يتكلمون بالحق والصواب بما يفي بالغرض من غير

تحريف ولا تبديل.

معنى المزاح: المزاح مشتق من الفعل مَزَحَ، قال صاحب القاموس: مزح كمنع مزحًا ومزاحة ومزاحًا بضمهما: دعب⁽¹⁾.

فإذًا المزاح بالضم هو وسيلة يراد بها المباشطة والملاطفة والمؤانسة بحيث لا يفضي إلى أذى، فإذا بلغ الإيذاء فإنه يفضي

إلى السخرية، والمزاح بكسر الميم: مصدر «مَزَحَ».

ومما يُطلب في المزاح:

1- أن يكون على سبيل المباشطة وتطبيب خاطر وإدخال السرور إلى قلب المسلم، فقد قال رسول الله ﷺ: «وَتَبَسُّمُكَ فِي

وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»⁽²⁾. وعن عبد الله بن الحارث قال: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ تَبَسُّمًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»⁽³⁾.

ومن فوائده: أنه أنس للمتصاحبين وطرده للوحشة وتأليف للقلوب وتوطيد لعلاقة الأخوة والوفاء.

وفيه أحياناً تخليص من الخوف والغضب والقلق وغيره.

وفيه أحياناً تخليص من السأم والملل، وذلك كأن يعطي الشيخ طلابه سؤالاً أو لغزاً كي يذهب الملل عنهم.

ومن مشكاة النبوة أن رسول الله ﷺ كان يدعو إلى الرفق، فقد روى البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال⁽⁴⁾: «يَا

عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ»⁽⁵⁾ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ».

والرفق هو لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل.

والمزاح الممدوح وما يتبعه من لين القول والتبسم وانشرح الصدر مظهر من مظاهر الرفق.

ففي الحديث: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّعَيْرُ»⁽⁶⁾. والنخير طائر كان أخو أنس يلعب به.

وعند الترمذي في سننه⁽⁷⁾ عن أنس بن مالك أن رجلاً استحلم رسول الله ﷺ فقال: «إِنِّي حَامِلُكَ عَلَى وَلَدِ النَّاقَةِ»،

فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «وَهَلْ تَلِدُ الْإِبِلَ إِلَّا التُّوقُ؟».

(1) تاج العروس، الفيروزآبادي، (241/1).

(2) شعب الإيمان، البيهقي، (66/5)، حديث (3105).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (601/5)، حديث (3641).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (2003/4)، حديث (2593).

(5) قال القرطبي: الرفيق هو الكثير الرفق. الكوكب الوهاج، محمد الأمين المرري، (379/24).

(6) صحيح البخاري، البخاري، (30/8)، رقم الحديث (6129).

(7) سنن الترمذي، الترمذي، (357/4)، حديث (1991).

وفي الحديث عن جابر بن سمرة أنهم كانوا يتحدثون فأخذون في أمر الجاهلية فيضحكون ويتبسم.

وأورد الحافظ البخاري حديثين ذكرهما في باب «السمر في العلم» واستنبط منهما جواز السمر في العلم والقياس على ذلك في الموانسة مع الأهل وكذلك لتحصيل فائدة مع الإخوان والمُتَلَان. وكذا إن كانت مصلحة دعوية في بذل نصح وتقريب قلوب وزيادة محبة ومودة وإزالة الكدر.

التوازن مطلبٌ أساس:

لقد كان رسول الله ﷺ يعيش بين الصحابة وفيهم الحازم من أمثال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد كان رجلاً مهيباً ومنهم المزاح. والأصل هو في إنكار الضحك المتكلف في القهقهة أو الضحك في مواطن الجد أو الإفراط.

ولقد سئل ابن عمر رضي الله عنهما هل كان أصحاب رسول الله ﷺ يضحكون؟ قال: نعم. والإيمان في قلوبهم مثل الجبل.

يقول الحافظ النووي: «المزاح المنهي عنه هو الذي فيه إفراطٌ ويداوم عليه فإنه يورث الضحك وفسوة القلب ويشغل عن ذكر الله، ويؤول في كثير من الأوقات إلى الإيذاء ويورث الأحقاد ويسقط المهابة والوقار. فأما من سلّم من هذه الأمور فهو المباح الذي كان رسول الله ﷺ يفعله».

الضوابط الشرعية في المزاح:

1- أن لا يكون فيه شيء من الاستهزاء بالدين فيعد هذا من نواقض الإسلام، قال الله تعالى: {وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا

نُحُوضٌ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ* لَا تَعْتَدِرُوا قَدَ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ} [التوبة: 65، 66].

ولقد قيل: من عصى الله وهو يضحك أدخله الله النار وهو يبكي، ومن أطاع الله وهو يبكي أدخله الله الجنة وهو يضحك.

2- أن لا يكون إلا صدقاً لا كذب فيه:

روى الإمام أحمد في مسنده أن رسول الله ﷺ قال: «وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ بِالْحَدِيثِ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ فَيَكْذِبُ، وَيَيْلٌ لَهُ وَيَيْلٌ لَهُ»⁽¹⁾.

وقوله ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ، لَا يَرَى بِهَا بَأْسًا، فَيَهْوِي بِهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ سَبْعِينَ خَرِيفًا»⁽²⁾.

3- أن يتجنب السخرية والاستهزاء بالآخرين: فذلك حرام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِغَسِّ الْأَسْمَاءِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:11]، والمراد بذلك احتقارهم واستصغارهم والاستهزاء بهم.

يقول الطبري: «اللمز باليد والعين واللسان والإشارة، والهمز لا يكون إلا باللسان»⁽³⁾، ويُنحَى على المستهزئ أن تعود عليه تلك الخصلة التي يسخر من غيره فيها فيتصف بها ويتلى بفعالها لقوله ﷺ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»⁽⁴⁾.

ولقد نهي النبي ﷺ عن السخرية بالمسلمين فقال: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَىٰ هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَىٰ صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ إِمْرِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرَضُهُ»⁽⁵⁾.

4- أن لا يروغ أخاه، فقد أورد أبو داود في سننه⁽⁶⁾ أن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: حدثنا أصحاب محمد ﷺ، أنهم كانوا يسرون مع النبي ﷺ، فنام رجل منهم، فانطلق بعضهم إلى جبل معه فأخذه، ففرغ، فقال رسول الله ﷺ: «لَا يَجِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرْوَعَ مُسْلِمًا».

وكذلك قوله ﷺ: «لَا يَأْخُذَنَّ أَحَدُكُمْ مَتَاعَ أَخِيهِ لَاعِبًا، وَلَا جَادًّا»⁽⁷⁾.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (557/4)، حديث (2315).

(2) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1313/2)، حديث (3970).

(3) تفسير القرطبي، القرطبي، (327/16).

(4) سنن الترمذي، الترمذي، (662/4)، حديث (2506).

(5) صحيح مسلم، مسلم، (1986/4)، حديث (2564).

(6) سنن أبي داود، أبو داود (301/4)، حديث (5004).

5- عدم الانهماك والاسترسال والمبالغة والإطالة:

ينبغي أن لا يداوم على المزاح، يقول الغزالي: من الغلظ العظيم أن يتخذ المزاح حرفةً، وروي عن عمر بن عبد العزيز:

اتقوا المزاح فإنه يذهب بالمرءة.

6- أن ينزل الناس منازلهم:

فإنَّ العالم والمسلم الكبير في السنِّ لهم من المهابة والوقار منزلة خاصة، ولأنَّ المزاح قد يفضي إلى سوء الأدب معهما

غالبًا، فينبغي الابتعاد عن المزاح معهما خشية الإخلال بتوجيه النبي ﷺ حيث يقول: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ»⁽¹⁾.

ونقل طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من السنَّة أن يوقَّر العالم، وإذا مازحك شيخك فأتمَّ ذلك من باب

المباسة فلا تتجرأ عليه، ولا تتخذ ذلك سببًا لقلَّة الأدب معه، وليكن ذلك حافزًا لك على الجد والاجتهاد والعمل بلا كسل ولا توائٍ.

7- أن لا يكون مع السفهاء، فقد روي عن سعد بن أبي وقاص أنه قال لابنه: اقتصد في مزاحك فإنَّ الإفراط فيه يذهب

البهاء ويجرئ عليك السفهاء.

8- أن لا يكون فيه غيبة، فإنَّ الغيبة ومثلها النميمة كلتاها تصبَّان في مستنقع الفتنة، ولا يخلو من كثر مزاحه في الغالب من

هذه الآفة لأنَّ من كثر كلامه كثر سقطه، وقد لا يشعر أنه وقع في الإثم أصلاً، والبعض قد يقول: أنا أمزح، لا أقصد،

فهذا لم يبع تعريف النبي ﷺ للغيبة بقوله: «ذَكَرَكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ».

وقد أورد الترمذي في سننه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الْأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكْفِّرُهُ»⁽²⁾ اللِّسَانَ فَتَقُولُ:

اتَّقِ اللَّهَ فِينَا فِيمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنَّ اسْتَقَمَّتْ اسْتَقَمْنَا وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»⁽³⁾.

(7) سنن أبي داود، أبو داود، (301/4)، حديث (5003).

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (261/4)، حديث (4843).

(2) قال الشمس العلقمي: أي تذل وتخضع له، والتكفير هو أن ينحني ويطأ رأسه قريباً من الركوع. وفي نسخة: «تُفَكِّرُهُ».

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (605/4)، حديث (2407).

فبعد هذا كَلِّهِ يتضح لك تعريف المزاح ومتى يكون مذمومًا، ومتى يكون ممدوحًا. فالشيخ والعالم والمربي إذا مزح طلابه فإمَّا ذلك لغيناسهم وليبعد عنهم مللاً إن كان، وقد يكرهه العالم بين الفينة والفينة إذا رأى حاجةً إلى ذلك، وهذا مما يساعد الطالب على الاستمرار في تحصيل العلم ويحفز له همته، فإنَّ من جملة الأمور التي ينال العلم صحة أستاذ. وهنا ننبه أنَّ صحة الأكاير ينبغي أن تكون على وجهها لئلا يحرم الإنسان بركتهم، فافهم وتنبه.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَحَادِثُهُمْ، فَإِنَّهَا تَجْلِبُ الْمَوَدَّةَ وَتَسْتَدِيمُ بِهِ مَوَاطِبَةَ الْعِلْمِ».

الشرح: مما ينبغي الاعتناء به مجالسة أهل العلم والطلبة والإخوة والأصدقاء بقصد مذاكرة العلم معهم واستحضار ما مضى من الدروس والفوائد والمباحثة لتمكين المسائل والعمل بأحكامها. فإنَّ ذلك من أسباب ترسيخ العلم في نفس متلقيه إن كان شيخًا أو طالبًا.

ومن فوائد هذه المحادثة والمجالسة أنها مراجعة للعلم وتذكير بالعمل وتقوية للحفظ وكذلك مؤانسة الإخوة والترويح عنهم بشيءٍ من المواعظ وأخبار الصالحين وسيرة النبيين للاقتداء بهم والتمسك بهديهم والثبات على نهجهم، فقد قال الله تعالى لنبيه المصطفى ﷺ: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} [الذاريات: 55].

ومن فوائد هذه المجالس ملء الوقت بالنافع والمفيد وشغل الناس بالعلم والاستعداد للآخرة وتنشيط النفوس للاستزادة من الخيرات وتعويد للإخوة والأحبة على ما ينفعهم من الجالس العامرة بالطاعات والخيرات ولئلا يشتغل البعض بسبب الفراغ الذي عنده بالغبية أو النسيمة أو إساءة الظن بالمسلمين، ولئلا ينحرف بسبب الفراغ الذي عنده إلى مصاحبة الفسقة والفجرة والمخنثين والجهلة، فإنَّ من الناس من يجره الفراغ إلى الهلاك، وقد قال ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»⁽¹⁾، فالفراغ إن لم تشغله بما يعود عليك بالنجاح في الدنيا والسعادة في الآخرة قد تنساق بسببه إلى ما لا تحمد عقباه، والعاقل الذكي هو الذي يجعل لكل وقت عملاً ليرى بركة وثمره هذا الوقت والعمل. وكما قال العلماء قديمًا: الوقت كالسيف، إن لم تقطعه قطعك. والوقت أغلى من الذهب، إن لم تعتنمه في الخير عليك ذهب. ومن فوائد هذه المحادثة والمجالسة بين الإخوة والأحبة والطلبة والدعاة أنها تزيد الألفة والمودة والمحبة والترايط، وهذه من أسباب الوحدة والقوة والاجتماع.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (88/8)، حديث (6412).

فينتج عن ذلك عملٌ أكثر وقوةً للدين وهيبةً للمسلمين، وإغاظَةً لشياطين الإنس والجن باجتماع المؤمنين على ما يحبه

الله ويرضاه.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَطْعِمُهُمْ أَحْيَانًا».

الشرح: لماذا قد يوصي الإمام بالإطعام؟ ولم؟ وماذا في إطعام الطعام وما الذي يزرعه المرابي في نفوس طلبته إذا أطعمهم؟

وبيان الجواب المذكور في طَيِّبَات بَحْثَنَا الْمُخْتَصِرِ عَنِ إِطْعَامِ الطَّعَامِ.

نقول: إِنَّ من الصفاتِ الكريمة التي ندب إليها ديننا الحنيفُ إطعام الطعام، فقد أمر الله تعالى بذلك في آياتٍ منها:

قوله تعالى: {وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي

أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج: 27، 28]، وقوله تعالى: {وَأَطْعِمُوا

الْفُقَرَاءَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاَهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الحج: 36].

ومن هدي النبي ﷺ أنه كان يأمر أصحابه بذلك لا سيما إذا رأى أهل الفاقة، كما في حديث مسلم⁽¹⁾ عن المنذر بن

جرير عن أبيه قال: كنا عند رسول الله ﷺ في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف،

عامتهم من مضر؛ بل كلهم من مضر فتمعر وجه رسول الله ﷺ لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام،

فصلى ثم خطب فقال: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [النساء: 1]، والآية التي في الحشر: {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ} [الحشر: 18] «تَصَدَّقْ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ تَوْبِهِ، مِنْ

صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ - حَتَّى قَالَ - وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وإطعام الطعام كان معروفاً في الجاهلية، فعن مسلم عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن

جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذاك نافع؟ قال: «لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي

يَوْمَ الدِّينِ». وهذا دليلٌ على أنَّ شرط قبول الأعمال الصالحة الإسلام⁽²⁾.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (704/2)، حديث (1017).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (196/1)، حديث (365).

ونبي الله ﷺ في قصة بدء الوحي لما رجع إلى السيدة خديجة رضي الله عنها قالت له: «كلا، أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»⁽¹⁾.

فما هي فضائل إطعام الطعام؟

- إطعام الطعام من خير الأعمال: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي (2) الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ، وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ»⁽³⁾.

وقال ﷺ: «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الْأَعْمَالِ (4) إِلَى اللَّهِ سُورُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جُوعًا»⁽⁵⁾.

- فاعل ذلك من خير الناس: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ وَرَدَّ السَّلَامَ»⁽⁶⁾.

- فيه أجرٌ عظيم: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ⁽⁷⁾: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تُعُدَّهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»، أي: لوجدت الثواب.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (173/6)، حديث (4953).

(2) أي: خصال الإسلام، أي هذا من أفضل وخير خصال الإسلام، وإلا فالإسلام كله خير.

(3) صحيح البخاري، البخاري، (12/1)، حديث (12).

(4) أي: من أحبها إلى الله عز وجل.

(5) المعجم الصغير، الطبراني، (106/2)، حديث (861).

(6) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (348/39)، حديث (23926).

(7) صحيح مسلم، مسلم، (1990/4)، حديث (2569).

وفي سنن الترمذي⁽¹⁾ عن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاةً، فقال النبي ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتَفُهَا، قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتَفِهَا»، وقد تقدم.

- النجاة من أهوال يوم القيامة: قال تعالى: { وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا* إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا* فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا } [الإنسان: 9 - 11].

- سبب للنجاة من النار: فلقد قال رسولنا ﷺ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»⁽²⁾.

- من أسباب دخول الجنة: فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اعْبُدُوا الرَّحْمَنَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»⁽³⁾.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: «إِنَّ عِتْقَ النَّسَمَةِ أَنْ تَفَرَّدَ بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرِّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي عِتْقِهَا، وَالْمِنْحَةُ الْوَكُوفَ، وَالْفَيْءُ عَلَىٰ ذِي الرَّحِمِ الطَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ تُطَقْ ذَلِكَ، فَاطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمْنَ»⁽⁴⁾.

وفي سنن الترمذي⁽⁵⁾ قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَعُرْفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَنُطُورُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّىٰ لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»، وقد تقدم.

وفي صحيح مسلم⁽⁶⁾ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ صَائِمًا؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فَمَنْ تَبِعَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ جَنَازَةً؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فَمَنْ أَطْعَمَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَسْكِينًا؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: «فَمَنْ عَادَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ مَرِيضًا؟»، قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، فقال رسول الله ﷺ: «مَا اجْتَمَعَنَ فِي أَمْرِي، إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، وقد تقدم.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (644/4)، حديث (2470).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (109/2)، حديث (1417).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (287/4)، حديث (1855).

(4) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (600/30)، حديث (18647).

(5) سنن الترمذي، الترمذي، (673/4)، حديث (2527).

(6) صحيح مسلم، مسلم، (713/2)، حديث (1028).

فإذا سألتَ ماذا نُطعم؟

الجواب: كلّ ما يؤكل ويُتفَع به من حلال، ومن إطعام الطعام سقي الماء، فالماء طعامٌ لقول الله تعالى: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوثٌ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ} [البقرة: 249].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَيْسَ صَدَقَةٌ أَعْظَمَ أَجْرًا مِنْ مَاءٍ»⁽¹⁾.

وعن أنسٍ أنّ سعدًا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت، ولم توص، أفينفعها أن أتصدق عنها؟ قال: «نَعَمْ، وَعَلَيْكَ بِالْمَاءِ»⁽²⁾.

وتأمل هذه القصة التي أوردها المنذري في «الترغيب والترهيب»⁽³⁾: «قال البيهقي: وفي هذا المعنى حكاية شيخنا الحاكم أبي عبد الله رحمه الله فإنه فرح وجهه وعالجه بأنواع المعالجة فلم يذهب وبقي فيه قريبًا من سنة فسأل الأستاذ الإمام أبا عثمان الصابوني أن يدعو له في مجلسه يوم الجمعة فدعا له وأكثر الناس التأمين، فلما كان يوم الجمعة الأخرى ألفت امرأة في المجلس رقعة بأنها عادت إلى بيتها واجتهدت في الدعاء للحاكم أبي عبد الله تلك الليلة فرأت في منامها رسول الله ﷺ كأنه يقول لها: قولي لأبي عبد الله يوسع الماء على المسلمين فجئت بالرقعة إلى الحاكم فأمر بسقاية بنيت على باب داره، وحين فرغوا من بنائها أمر بصب الماء فيها وطرح⁽⁴⁾ الجمد في الماء وأخذ الناس في الشرب، فما مر عليه أسبوع حتى ظهر الشفاء وزالت تلك القروح وعاد وجهه إلى أحسن ما كان وعاش بعد ذلك سنين».

ومن نطعم؟

تعاهد جيرانك، فلقد قال رسول الله ﷺ لأبي ذرّ رضي الله عنه: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»⁽⁵⁾.

(1) شعب الإيمان، البيهقي، (67/5)، حديث (3106).

(2) المعجم الأوسط، الطبراني، (91/8)، حديث (8061).

(3) الترغيب والترهيب، المنذري، (42/2).

(4) قال الرازي: «(الجُمدُ) يوزن الفلّس ما جمد من الماء وهو ضدُّ الدُّوبِ». مختار الصحاح، الرازي، (ص60).

(5) صحيح مسلم، مسلم، (2025/4)، حديث (2625).

وعند الطبراني⁽¹⁾ قول رسول الله ﷺ: «مَا ءَامَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبَعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَىٰ جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ». أي: من كمال الإيمان إطعام الجار، وليس معناه أن من لم يفعل ذلك يكون كافرًا.

وحضنا ديننا على إطعام المسكين، ومن أطعم صائمًا فطره فله أجر شبيه بأجره، والمراد أجرٌ عظيم وإلا فتواب الصائم أعلى.

وبالجملة ففي كبدٍ رطبة أجر. فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أنزع في حوضي، حتى إذا ملأته لأهلي، ورد علي البعير لغيري فسقيتهن فهل لي في ذلك من أجر؟ فقال رسول الله ﷺ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرَىٰ أَجْرٌ»⁽²⁾.

وعند البخاري⁽³⁾ ومسلم⁽⁴⁾ أن النبي ﷺ قال: «غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُّوسِمَةٍ، مَرَّتْ بِكَلْبٍ عَلَىٰ رَأْسِ رَكْبٍ»⁽⁵⁾ يَلْهَثُ، كَادَ يَقْتُلُهُ الْعَطَشُ، فَتَزَعَتْ حُقْفَهَا، فَأَوْثَقَتْهُ بِخِمَارِهَا، فَتَزَعَتْ لَهُ مِنَ الْمَاءِ، فَغَفِرَ لَهَا بِذَلِكَ».

وبعد هذا كله يُعلم لم حض الإمام تلميذه يوسف على إطعام الطعام، فإن لذلك أثرًا بالغًا في تربية النفوس.

فائدة لطيفة: أحيانًا قد يكون إطعام الطعام أفضل من مجرد الصيام كأن كان في هذا الإطعام إنقاذٌ للمسلم الجائع من الموت. كما يجوز للمسلم أن يفطر أو أن يترك الصلاة المفروضة إن كان لإنقاذ مسلمٍ من الغرق، ولا يتحقق الإنقاذ إلا بترك ما ذكر.

ويشترط لحصول هذا الأجر والثواب أن يكون المطعم مؤمنًا مخلصًا يطعم طعامًا حلالًا، وأما إن كان كافرًا فلا أجر له، أو كان مرآئيًا أو كان من حرام فلا ثواب له.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاقْضِ حَوَائِجَهُمْ».

(1) المعجم الكبير، الطبراني، (259/1)، حديث (751).

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (47/11)، حديث (7075).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (130/4)، حديث (3321).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1761/4)، حديث (2245).

(5) أي: بفر.

الشرح: إن الكلام عن فضل قضاء حوائج المسلمين تسطر فيه الكتب والمجلدات، وقد مرّ الكلام على فضل ذلك في طيات هذه الوصية واستفضنا هناك، ولكن تكرر الإمام لها يدل على أهميتها، ونحن بالتالي سنخوض في الحديث عنها، ولكن هذه المرة عبر أقوال السلف:

1- قال حكيم بن حزام رضي الله عنه - وهو صحابيٌّ جليلٌ ممن ولد في الكعبة - : «ما أصبحت وليس ببالي صاحب حاجة إلا علمت أنها من المصائب التي أسأل الله الأجر عليها».

2- قال عطاء بن أبي رباح رضي الله عنه - وهو من أئمة وأجل التابعين الذي قال عنه أبو حنيفة: ما رأيت أفقه من عطاء -: «تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو كانوا نسوا فذكروهم».

3- جاء رجل إلى الحسن بن سهل رحمه الله يستشفع به في حاجةٍ فقضاها، فأقبل الرجل يشكره فقال له الحسن بن سهل: علام تشكرنا ونحن نرى أن للجاه زكاة كما أن للمال زكاة. كما يقال: زكاة العلم إخراجه للناس أو زكاة العلم أن يعلم.

4- قال عبيد الله بن العباس رضي الله عنهما لابن أخيه: «إن من أفضل العطية ما أعطيت الرجل قبل المسألة، فإذا سألك فإنما تعطيه ثمن وجهه حين بذله إليك».

5- قال عبد الله بن جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهما: «ليس الجواد الذي يعطيك بعد المسألة، ولكن الجواد الذي يتدئ لأن ما يبذله إليك من وجهه أشد عليه مما يعطى عليه»⁽¹⁾.

6- قال طاوس بن كيسان رحمه الله: «إذا أنعم الله على عبده نعمة ثم جعل إليه حوائج الناس، فإن احتمل وصبر وإلا عرض تلك النعمة للزوال».

7- قال محمد بن واسع رحمه الله - وهو من الأئمة المجتهدين كالشافعي رضي الله عنهما -: «ما رددت أحدًا عن حاجةٍ أقدر على قضائها ولو كان فيها ذهاب مالي».

8- قال محمد بن المنكدر رحمه الله: «لم يبق من لذة الدنيا إلا قضاء حوائج الإخوان».

9- قال عثمان بن واقد العمري: «قيل لمحمد بن المنكدر: أيُّ الدنيا أعجب إليك؟ قال إدخال السرور على المؤمن».

(1) مراده أن الكمال في الجود الابتداء قبل المسألة.

وهذا غييضٌ من فيضٍ، فكيف بمن جهز نفسه وأعد العدة لطلب العلم؟! فهذا إمام أهل السنة والجماعة أبو حنيفة النعمان رضي الله عنه يوصي تلميذه بقضاء حوائج تلاميذه وطلاب العلم والمسلمين لما في ذلك من الأثر الطيب الذي يزرع في قلب المحتاج، وبذلك تكتسب أيها الشيخ، أيها المعلم، أيها المدرس، أيها الداعية المودّة والودّ، وهذا طريق ومفتاح لقلوب الناس.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاعْرِفْ مَقْدَارَهُمْ».

الشرح: نكمل في شرحنا لهذه الوصية العظيمة النفع، فأنت ترى أيها القارئ كيف أنّ كلّ وصية منها ءأخذ بعضها بجزء بعض، وقد بلغ الكلام ووصل إلى قوله رضي الله عنه: «واعرف مقدارهم» وهي في الجملة تندرج تحت إنزال الناس منازلهم. وقد تكلم الإمام هذا في أكثر من وصية، فكّرر وأعاد فأفهمم وبينن. وها أوان الشروع في الشرح، فنقول وعلى الله التكلان:

قبساتٌ وهمسات، نفحات ولفحات، في زمنٍ زاد فيه ديب البغضاء مدارها شوائبُ تكدر الصفاء، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ} [الأنعام: 165]، وقال سبحانه وتعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ} [المجادلة: 11].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّ النبي ﷺ قال: «أَنْزَلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»⁽¹⁾ وذكر مسلمٌ تعليقاً في أول صحيحه عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنّها قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم⁽²⁾.

خصلة حميدة لمن أخذ بحقها فهي لم تزل سبباً عظيماً من أسباب تأليف القلوب ومظهرًا جلياً من مظاهر المعاملة الحسنة للناس بما يناسب أحوالهم ومنازلهم.

إنّ المتأمل لحال كثير من المسلمين اليوم يلحظُ تقصيراً بيّناً وواضحاً في جانبٍ مهمٍّ من جوانب الحياة وهو جانب الأدب والاحترام والتقدير والإكرام وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقه لكلٍّ من جعل له الإسلام منزلة.

إنّ إنزال الناس منازلهم مطلبٌ دينيٌّ وخلقٌ نبويٌّ قلٌّ من اتصف به، ومن يشار إليهم بالبنان ويشاد لهم باللسان، ورثة الأنبياء وهم العلماء الذين لهم التقدير والاحترام. فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتُ لَيَصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»⁽³⁾، أي: يدعون له.

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (261/4)، حديث (4842).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (6/1).

ومن لهم الاحترام والتلطفُ كبار السنِّ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا أَكْرَمَ شَابُّ شَيْخًا لِسِنِّهِ إِلَّا قَبِيضَ اللَّهِ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ»⁽¹⁾.

ومن هو جديرٌ بالرحمة والتقدير المسلم التقِيُّ ولو كان فقيرًا، وقد ثبت في صحيح مسلمٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ»⁽²⁾.

ومن هو جديرٌ بذلك أيضًا كلُّ من له يدٌ بيضاءٌ في الخير وإنفاقه، فهذا هو ﷺ ينزل عثمان بن عفان رضي الله عنه منزلةً تليق به، يقول عبد الرحمن بن سمرة: رأيت عثمان بن عفان رضي الله عنه جاء بألف دينار فصَبَّها في حجر النبي ﷺ حين جَهَّز جيش العسرة فقال النبي ﷺ: «مَا صَرَّ عُثْمَانُ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ، مَا صَرَّ عُثْمَانُ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ»⁽³⁾.

وقد مرَّ حديث النبي ﷺ: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ». قال المناوي: أي: احفظوا حرمة كلِّ واحدٍ على قدره وعاملوه بما يلائم حاله في عمر ودين وعلم وشرف.

وهذا التوجيه النبويُّ الكريمُ يرجع إلى أمورٍ عظيمةٍ منها: الحكمةُ والعدلُ، فالحكمةُ وضع الشيء في موضعه وتنزيله منزلته.

والعدلُ إعطاء كلِّ ذي حقِّ حَقَّهُ، فلا يسوَّى الجاهلُ بالعلم، ولا الفاجرُ بالتقي الصالح. ولهذا اعتمد أهل الحديث في الحكم على الرواة بنحو هذا الحديث، فحكموا على الرواة بناءً على هذا الأصل، فميَّزوا الضعيفَ من الثقة، وميَّزوا الحافظَ من غيره، وجعلوهم على مراتبٍ حسب درجة إتقانهم وضبطهم، وفي هذا إنزالٌ لكلِّ من الرواة منزلته. قال الله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا} [الأنعام: 152].

ويناسب هذا ذكر تفضيل من فضَّلهم الله، فأفضل هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَغَافِلُ عَنْ زَلَّاتِهِمْ».

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (50/5)، حديث (2685).

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (372/4)، حديث (2022).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (2024/4)، حديث (2622).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (626/5)، حديث (3701).

الشرح: يكرسُ لنا الإمام قاعدةً: عامل الناس كما تحب أن يعملوك. وهذه وصية جديدة فيها الحث على التغافل عن

أخطاء الآخرين وهذا في موضعه من الشيم.

يقول الله تعالى: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعراف: 199].

وقال تعالى: { قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ } [يوسف: 77]، مع أن

يوسف عليه الصلاة والسلام لم يحصل منه في صغره ما هو حقيقة السرقة بل للمفسرين في ذلك أقوال عديدة منها أنه أخذ صنماً

خفية لبعض أجداده من جهة أمه لئلا يعبد من دون الله، وهو بذلك لا يكون سارقاً حقيقة بل يُمدح ويشكر على ذلك، ومع

ذلك صبر على مقولة إخوته في ذلك ولم ينتقم منهم. والمراد بإخوته من سوى بنيامين.

وروى الإمام أحمد⁽¹⁾ والترمذي⁽²⁾ وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُبَلِّغُنِي

أَخَدٌ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِي شَيْئًا؛ فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أُخْرَجَ إِلَيْهِمْ وَأَنَا سَلِيمُ الصَّدْرِ». وليس معنى ذلك أنه ﷺ يحكم على صحابي

بقول من لا يثبت خبره، ولا يعني أنه يسيء الظن بهم لأنه ﷺ أبعد خلق الله عما يخالف دين الله، بل هو حث وحض على سلامة

الصدر وشفاء السريرة وتحسين الظن.

أخي القارئ، هناك خلقٌ منسيٌّ عند كثيرٍ منّا، وهذا ما يشير إليه الإمام رحمه الله رغم أنه خُلِقَ مريخٌ مسعد. وقد أوصانا

الله به وحثنا عليه رسول الله ﷺ وذلك لفوائده الكثيرة وخاصةً في هذا الزمان الذي كثر فيه السؤال والقبل والقال، وكثر فيه البحث

عما يخفيه الغير.

إنه خلق التغافل. فما التغافل؟ وكيف نحققه في حياتنا؟

التغافل معناه تعمد الغفلة، أي أن يُرَى الآخر أنه غافل مع علمه التام وإحاطته بما هو متغافل عنه ترفعاً عن الدنيا

وسفاسف الأمور.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «ما زال التغافل من فعل الكرام»، إذ به تبني العلاقات وتنمو المحبات وتزدهر.

وجاء في لامية ابن الوردي:

وَتَغَافَلُ عَنْ أُمُورٍ إِيَّاهُ لَمْ يُفُزْ بِالْحِمْدِ إِلَّا مَنْ غَفَلَ

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (302/6)، حديث (3759).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (710/5)، حديث (3896).

فالتغافل في موضعه دليلٌ قويٌّ على حسن خلق صاحبه كما روي عن الإمام أحمد رضي الله عنه أنه قال: «تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل».

وهنا تنبيه: ليس التغافل عن الزلات دليلاً على غباء صاحبه أو سذاجته بل هو من العقل والحكمة. فقد قال الشافعي رضي الله عنه: «الكيس العاقل هو الفطن المتغافل»؛ فإذا يلوح الفرق بين أن نقصد الغفلة وبين الغباء، فالأول في موضعه ممدوح محمود والثاني مذموم.

وكما قال القائل:

لَيْسَ الْعَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ لَكِنَّ سَيِّدَ قَوْمِهِ الْمُتَعَابِي
أي: الذي يتغافل فيظن به الغباء.

أيها المسلمون، إنَّ من أعظم فوائد التغافل أن المتغافل يُكسب صاحبه راحة في نفسه، ولقد أعطانا رسول الله ﷺ مثلاً عظيماً على ذلك كما في صحيح البخاري⁽¹⁾ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن المشركين كانوا يسبُّون النبي ﷺ فيقول رسول الله ﷺ لأصحابه: «أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ، يَشْتُمُونَ مُدْمًا، وَيَلْعَنُونَ مُدْمًا وَأَنَا مُحَمَّدٌ»، مع أنه ﷺ يعلم أنهم إنما قصدوه.

ولقد قال القائل:

وَلَقَدْ أَمَرُ عَلَى اللَّئِيمِ يَسْتُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثَمَّتَ قَلْتِ لَا يَعْنِينِي
وأما الَّذي يقف عند كلِّ كلمةٍ ويرد على كل خطأٍ ويحاسب على كل صغيرة وكبيرة فهو على شفا حفرة من تنغص عيشته؛ فكم من مشاكل وقعت في المجتمع كان سببها عدم التغافل؟ وكم وقع بين الزوجين أو بين الأقارب والأصحاب من مشاكل كان سببها تتبع الأخطاء والبحث عن الأخطاء، ولو أنهم رزقوا التغافل لزال عنهم نكدٌ كبيرٌ كما قال الأعمش رحمه الله: «التغافل يطفى شرّاً كثيراً».

وهنا فائدتان: ليس معنى التغافل ترك النصيحة والتنبيه على المخالفات للشرع، فقد جاء في الحديث عن تميم الداري أن

رسول الله ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»⁽²⁾، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَيِّمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ».

(1) صحيح البخاري، البخاري، (185/4)، حديث (3533).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (74/1)، حديث (95).

والفائدة الثانية: هل يكون التغافل مع المفسدين المتلونين المصبرين المستمرين على الفساد والإفساد؟ لا، بل يزيدهم ذلك

أحياناً انقلاباً وفساداً وتشجيعاً على الإفساد، فافهم رحمك الله.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَارْفُقْ بِهِمْ».

الشرح: إن المتأمل في كلام الإمام لتلميذه يدرك بعد إمعان النظر وقراءته للوصايا وصية بعد أخرى حرص الإمام على

مراقبة العالم لأفعاله وأن يحسنها فإنه مرءة. ويرى من خلال تكرار بعض الوصايا تأكيد الإمام وحرصه عليها. وهذه الوصية في

الرفق قد بسطنا الكلام قبل عليها لكننا هنا نعرض بعض الأحاديث التي وردت في ذلك لتكون تشجيعاً للمسلم على الالتزام

بالرفق والتخلق به:

1- روى البخاري⁽¹⁾ عن النبي ﷺ قال: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ».

2- وفي صحيح مسلم⁽²⁾ مَنْ يُجْرِمِ الرَّفْقَ، يُجْرِمِ الْخَيْرَ».

3- روى الترمذي⁽³⁾ عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ

الرَّفْقِ، فَقَدْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ».

4- عن ابن عدي أن النبي ﷺ قال: «يَا عَائِشَةُ مِنْ حَرَمِ حَظِّهِ مِنَ الرَّفْقِ حَرَمِ حَظِّهِ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ». قال المناوي:

«إِذْ بِالرَّفْقِ تَنَالِ الْمَطَالِبَ الْآخِرِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ، وَبِفُوتِهِ يَفُوتَانِ».

5- روى مسلم⁽⁴⁾ أن النبي ﷺ قال: «يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرَّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ،

وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ». والمعنى أن الله تعالى لطيف بعباده يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر فلم يكلفهم فوق

طاقاتهم وإن كان جائزاً، ولو أراد لكلفهم بذلك.

6- وفي الترغيب⁽⁵⁾ للمنزدي: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحِبُّ الرَّفْقَ وَيَرْضَاهُ وَيُعِينُ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْينُ عَلَى الْعُنْفِ».

7- وعند مسلم⁽⁶⁾: «إِنَّ الرَّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا رَأْنَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَأْنَهُ».

(1) صحيح البخاري، البخاري، (16/9)، حديث (6927).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (2003/4)، حديث (2592).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (367/4)، حديث (2013).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (2003/4)، حديث (2593).

(5) الترغيب، المنزدي، (279/3)، حديث (4052).

8- وفي الشعب⁽¹⁾ للبيهقي: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِأَهْلِ بَيْتٍ خَيْرًا، أَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الرَّفْقَ فِي الْمَعَاشِ».

9- وعند المنذري⁽²⁾: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لِيُعْطِيَ عَلَى الرَّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْخُرْقِ وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الرَّفْقَ مَا

من أهل بيت يجرمون الرفق إلا حرموا». قال المناوي: «والمراد إذا أراد الله بأحدٍ خيرًا رزقه ما يستعين به مدة حياته ووقفه في الأمور ولينه في تصرفه».

10- وعن أبي هريرة أن أعرابيا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَيَّ

بَوْلَهُ ذُنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجَلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُبَسِّرِينَ وَمَ تَبِعْتُوا مُعَسِّرِينَ»⁽³⁾. فهذه قاعدة عظيمة النفع كثيرة

الفوائد أخذها العلماء من هذا الحديث فقالوا: إذا تعين الوقوع في إحدى المفسدتين عدل إلى ارتكاب أخفهما ضررًا؛

لأن هذا الأعرابي لو أخرج حال خروج البول منه لتوسعت بقعة النجاسة في المسجد ولعمت وانتشرت فنهاهم الرسول

عن إخراجها في هذه الحال لئلا يحصل ما هو أشد ضررًا من توسع بقعة النجاسة في مسجد رسول الله ﷺ؛ وبحكمة

الرسول بقيت النجاسة في بقعة صغيرة ضيقة ثم أمرهم بصب الدلو الكبير من الماء على تلك البقعة. وبهذا يطهر المكان

وتذهب النجاسة في جوف الأرض. فما أعظم هذه القاعدة وكم تنجي من مهالك لمن عمل بها.

وتحكي السيدة عائشة رضي الله عنها عن رفق الرسول ﷺ فتقول⁽⁴⁾: «مَا خَيْرَ رَسُولٍ اللَّهُ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ قَطُّ إِلَّا أَحَدَهُ

أَيْسَرَهُمَا، مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ

بِهَا». وكان النبي ﷺ يقول لأصحابه: «يَسِّرُوا وَلَا تَعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلَا تُنْفِرُوا»⁽⁵⁾.

ونختم بدعاء رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ، مَنْ وَدِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْفُقْ عَلَيْهِ، وَمَنْ وَدِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي

شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»⁽⁶⁾. فالمسلم برفقه ولينه يصير بعيدًا عن النار، قال النبي ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ نُحْرِمُ عَلَيْهِ النَّارَ»، قالوا:

(6) صحيح مسلم، مسلم، (2004/4)، حديث (2594).

(1) شعب الإيمان، البيهقي، (497/8)، حديث (6140).

(2) الترغيب والترهيب، المنذري، (278/3)، حديث (4050).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (30/8)، حديث (6128).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (189/4)، حديث (3560).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (25/1)، حديث (69).

(6) صحيح مسلم، مسلم، (1458/3)، حديث (1828).

بلى يا رسول الله، قال: «عَلَى كُلِّ هَيْنٍ لَيْنٌ قَرِيبٌ سَهْلٌ»⁽¹⁾. وهذه الصفات هي من صفات المؤمن الكامل، فالأصل الإسلام، ولو اجتمعت هذه الصفات في غير المسلم ومات على غير الإسلام فالجنة عليه حرام وهو حطب جهنم.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَسَاغُحُهُمْ».

الشرح: لو تأمل الواحد مناكم مرةً يحث الإمام على هذا؛ وكم مرةً أعادها وكررها بعباراتٍ مختلفةٍ وجملٍ متنوعةٍ، فإنَّها كلّها تندرج تحت عنوان واحد ألا وهو: حسن الخلق. ومراده من هذا العفو والتجاوز عن الزلات والأخطاء، وهو الموصل إلى حسن الخلق.

وإن رمت السؤال عن تعريف حسن الخلق قلنا لك: إن حسن الخلق كما فسره أحد الصالحين: هو تحمل الأذى وبذل المعروف وكف الأذى، أي أن يعمل المسلم المعروف مع الناس في خطابه لهم ومعاملته لهم، أي: يوطّن نفسه أن يعمل المعروف مع الناس سواء عرفوا له ذلك المعروف أم لا، فيعم بخيره الجميع. وتقوى الله تعالى بأداء الواجبات واجتناب المحرمات تساعد على ذلك لأن المعاصي سبب لقسوة القلب. وقال بعضهم: «إن أبعَدَ الناس من رحمة الله هو صاحب القلب القاسي».

تنبيه مهم: إذا قيل: الكافر بعيد من الله أو المسلم الفاسق بعيد من الله، فالمراد به البعد المعنوي لا البعد الحسي أو المكاني لأن الله موجودٌ أزلاً وأبداً بلا جهةٍ ولا مكانٍ، على أنه لا مناسبة بين المسلم الفاسق والكافر؛ فالكافر إن مات على كفره مخلدٌ في جهنم، والمسلم الفاسق إن مات بلا توبةٍ وعذبه الله وأدخله النار فإنه لا يخلد فيها، بل مصيره ومآله إلى الجنة.

قال ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»⁽²⁾.

وسئل عليه الصلاة والسلام عن أكثر ما يدخل الجنة؟ قال: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»⁽³⁾.

وقال ﷺ: «إِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»⁽⁴⁾.

فخيار الناس هم الذين تعلّموا الشرع وطبقوه وحسنت أخلاقهم، وحسن الخلق من سمّ الأحوال، ويرفع درجات المؤمن

عند الله، قال ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»⁽⁵⁾.

(1) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (216/2)، حديث (470).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (355/4)، حديث (1987).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (363/4)، حديث (2004).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (13/8)، حديث (6035).

(5) سنن الترمذي، الترمذي، (458/3)، حديث (1162).

وهنا تنبيهه وفائدة: إطلاق القول بـ«اعف عنهم أو ساعهم أو اغفر لهم» للمخلوق ليس على اعتبار مغفرة الذنوب، فالمسلم لا يصرف هذه الأمور وهي اعتقاد مغفرة الذنوب، والخلق بمعنى الإبراز من العدم إلى الوجود، واعتقاد التحليل والتحرير إلا لله، وإلا لصار مشركاً، فالله هو الشارع على الحقيقة، أي هو الذي يفرض ما شاء ويحرم ما شاء، يوجب ما شاء، يفعل ما يريد ويحكم بما يشاء، وأما النبي ﷺ فهو الشارع مجازاً أي هو الذي بيّن لنا الأحكام التي أنزلها الله وليس هو الشارع على الحقيقة، فالنبوة سفارة بين الحق سبحانه وبين العباد.

ويجوز أن يتعبد أي يأمر الله سبحانه نبيه ﷺ بوضع الشرع فيقول: افرض وسن ما ترى أنه مصلحة للخلق خلافاً لأكثر القدرية، لأنه ليس في تجويز ذلك إحالة أي ما يحيله العقل، ولا إفساداً، فوجب أن يكون جائزاً بدليل حديث الشيخين⁽¹⁾: «لَوْلَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ». معناه - والله أعلم - أن الله قد خير نبيه ﷺ بين أن يفرض على أمته السواك عند الصلاة وعدم ذلك فاختر ﷺ ألا يفرض ذلك، فدلّ شاهد الوجود على صحة ما قلناه والله أعلم بالصواب.

فائدة في بيان شروط التوبة:

1- توبة الكافر المرتد تكون بالرجوع إلى الإسلام بالنطق بالشهادتين مع ترك ما هو سبب الردة أي الأمر الذي حصلت به الردة وكذا توبة الكافر الأصلي. وهذا إجماع لا خلاف فيه بين علماء الأمة الإسلامية، ودليله من قول الله تعالى: {فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ} [محمد: 19]، فهذا دليل على تقدم الأصل على الفرع. ومن الحديث المتواتر: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الْإِسْلَامِ، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ». والإجماع الذي نقله الحافظ الإمام أبو بكر بن المنذر في كتابيه «الإشراف» و«الإجماع»، فلا نقول لمن كفر قل: أستغفر الله، بل نقول له: قل: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وأما استحضار الندم والعزم حين التلفظ بالشهادتين فليس شرطاً لصحة الرجوع إلى الإسلام، إنما هو من كمال التوبة، فالشرط أن لا يعزم على الكفر في المستقبل ولا يتردد في ذلك فإنه إن نوى أن يعود إلى الكفر فلا تنفعه الشهادة لأن العزم على الكفر في المستقبل كفر في الحال. فلو لم يخطر بباله أنه لا يعود إلى الكفر بعد هذا ولا نوى الرجوع إلى الكفر ولا تردد في ذلك ولا

(1) صحيح البخاري، البخاري، (4/2)، حديث (887).

استحضر الندم إنما ترك الشيء الذي هو ردة وتشهد صح إسلامه، لكن يبقى عليه شرطان واجبان لكمال التوبة أحدهما الندم والشرط الثاني العزم على أن لا يعود للكفر، هذان واجبان لكن ليسا شرطا لصحة الرجوع إلى الإسلام.

2- **توبة العاصي:** تكون بالندم أسفًا على عدم رعاية حقِّ الله، وبالإقلاع عن الذَّنْبِ في الحال والعزم على أن لا يعود إلى الذنب. وأما التوبة من المعصية التي حصلت بترك فرض أو تبعة يزداد فيها قضاء ذلك الفرض، فإن كان المتروك صلاة قضاها فورًا، وإن كان ترك نحو زكاة مع الإمكان ففتتوقف صحة التوبة على إيصالها لمستحقيها، وإن كانت المعصية تبعة لأدمي ردَّ تلك المظلمة فيرد عين المال المغصوب إن كان باقيا وإلا فبدله.

قَالَ الإمام أَبُو حنيفة رضي الله عنه: «وَلَا تُبَدِّ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ ضِيقَ صَدْرٍ أَوْ ضَجْرًا».

الشرح: تدور هذه الوصية حول أمرين جليلين لطالما عبَّرَ عنهما الإمام بعناوين مختلفةٍ وعباراتٍ ونصائحٍ متنوعة، ألا

وهما:

1- كظم الغيظ.

2- ضبط النفس أو ما يعرف بالحلم.

وكلاهما يشملهما موضوع الوصية، وهو علاقة العالم بغيره.

ولنُحْضِرْ مضمار الكلام بشرح هذه الوصية المفيدة، ولنمشِ على ترتيبِ يُظْهِرُ للقارئ العزيز تماسك هذه الوصية

بموضوعها ومضمونها، ناهيك عن مدى ارتباطها الوثيق بالوصايا التي سبقتها.

أولاً: في كظم الغيظ:

أصل مادة (كظم) يدلُّ على معنَى واحدٍ وهو الإمساك والجمع للشيء.

وفي اللغة يقال: كظم غيظه إذا تجرعه واحتمل سببه وصبر عليه وسكت عليه ولم يظهره بقول أو فعل مع قدرته على

إيقاعه بعده.

وفي الاصطلاح قال ابن عطية: كظم الغيظ: رده في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته فضبطه ومنعه. وقال أيضاً: الغيظ

أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغيظ فعل النفس لا

يظهر على الجوارح والغضب حال لها معه ظهور في الجوارح وفعل⁽¹⁾، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم ولا يسند إليه تعالى غيظًا.

ثانيًا: الترغيب في كظم الغيظ:

قد مرّ أدلة كثيرة في هذا فليرجع إليها من شاء، ونورد هنا بعضها أو زيادة عليها للفائدة:

قال الله تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} [آل عمران: 133، 134].

قال ابن عاشور: الكاظمين الغيظ؛ وكظم الغيظ إمساكه وإخفاؤه حتى لا يظهر عليه وهو مأخوذ من كظم القرية إذا ملأها وأمسك فمها، قال المبرد: فهو تمثيل للإمساك مع الامتلاء.

قال الطيبي: وإنما حمد الكظم لأنه قهرٌ للنفس الأمانة بالسوء، ولذلك مدحهم الله تعالى بقوله: {وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ} [آل عمران: 134]. ومن نهي النفس عن هواه فإن الجنة مأواه والخور العين جزاؤه.

وهذا البناء الجميل والجزاء الجزيل إذا ترتب على مجرد كظم الغيظ، فكيف إذا انضم العفو إليه أو زاد بالإحسان عليه.

ويروى عن بعض السلف أنه قال: «من خاف الله لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد» أي: أنه يخالف هوى نفسه ولا يعطيها ما تريد لأنه إن اتبعها وأعطاه ما تأمره به أوصلته إلى النار، فإحياؤها وإكرامها بإماتتها ومخالفتها. ومن لا يخالف هواه لا يتقى. فمن كظم غيظه ورد غضبه أخزى شيطانه وسلمت مروءته ودينه.

والكظم يدفع محذور الندم كالماء يطفئ حر الضرم، ولقد قيل: كظم يتردد في حلقي أحب إلي من نقص أجده في

خُلقي.

وقال الغزالي⁽²⁾: «كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي: تكلف الحلم، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدّة، صار ذلك اعتيادًا، فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه، وانكسار قوة الغضب، وخضوعها للعقل».

(1) أما ما ورد في القرآن أو السنة الصحيحة من نسبة الغضب إلى الله تعالى فهو محمولٌ ومفسَّرٌ عند بعض أهل السنة والجماعة على إرادة الانتقام، إذ الله منزّه عن التأثير والانفعالات النفسانية وكل ما كان من معاني المحدثين المخلوقين.

(2) إحياء علوم الدين، الغزالي، (176/3).

ثالثاً: كيفية ضبط النفس عند الغضب:

- 1- استحضار أن الله هو المدبر لكل شيء بتدبيره الأزلي، وأنه يراك ومُطَّلِعٌ عليك، فاسعَ إلى مرضاته والتقرب إليه بالطاعة.
- 2- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم.
- 3- إذا كنت قائماً فاجلس، أو قاعداً فاضطجع أو غادر المجلس، فإنه أبعد عن تنفيذ ما يورثه الغضب في نفسك.
- 4- الوضوء، فإنَّ الغضب من الشيطان وهو حُلِقٌ من نار، والذي يطفئ النار الماء.
- 5- صلاة ركعتين، فالأنبياء والأولياء من شأهم أنهم إذا دخلوا في الصلاة حُقِّفَ عنهم وارتاحت نفوسهم للذة التي يجدونها. فالصلاة لذة المتقين، وقال سيد المرسلين ﷺ: «وَجَعَلْتُ قُرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»⁽¹⁾.
- 6- معاملة المخطئ بالرحمة والرأفة واللين والتأسي بالنبي ﷺ في هذه الصفات التي هي من أخلاقه، فالرد على التصرف المؤذي بالحسنى غالباً ما يجذب هذا الشخص وربما يؤدي إلى الاعتراف بخطئه وتغيير أسلوبه.

رابعاً: ثمار ضبط النفس:

- 1- الاتصاف بالإحسان والعفو.
- 2- كسب قلوب الآخرين وطول المودة والألفة.
- 3- اقتداء الناس بالشخص الذي يضبط نفسه، ومحاولتهم السير على طريقه مما يؤدي إلى تقليل البغضاء والتشاحن في المجتمع.
- 4- تجنب الندم على الموقف الذي يمكن اتخاذه أو الكلمة التي ستصدر عند الغضب. إلى هذا وأكثر أشار الإمام في هذه الوصية.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَكُنْ كَوَاحِدٍ مِنْهُمْ».

الشرح: يشير الإمام في طيات هذا الكلام إلى التواضع، وبنية تلميذه من الكبر، لذا كان من المهم بيانه في تعرضنا لشرح

هذه الوصية أن نجول في الحديث على هذين الأمرين: التكبر والتواضع.

(1) المستدرک، الحاكم، (174/2)، حديث (2676).

أولاً: الكبر لغة العظمة والتجبر. وأمّا اصطلاحاً فقد ورد في حديث النبي ﷺ بيان معناه حيث قال أصدق الخلق:

«الْكِبْرُ بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَمَطُ النَّاسِ»⁽¹⁾.

قال الزبيدي⁽²⁾: «الكبر حالة يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه وأن يرى نفسه أكبر من غيره».

وقيل: الكبر هو استعظام الإنسان نفسه واستحسان ما فيه من الفضائل، والاستهانة بالناس، واستصغارهم، والترفع

عليهم.

ثالثاً: الكبر داءٌ ومرضٌ ووسخٌ قلبي، فهو شعورٌ خادعٌ بالاستعلاء مصحوبٌ باحتقار الناس والترفع عليهم، وهو

انفعالات داخلية أساساً. قال الله تعالى: {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ} [غافر: 56]. وما يظهر من تصرفات المتكبر ما هي إلا ترجمة لهذه الانفعالات.

وقد قسم العلماء التكبر على قسمين:

1- رد الحق على قائله مع العلم بأن الصواب مع القائل لنحو كون القائل صغير السن، فيستعظم أن يرجع إلى الحق من

أجل أن قائله صغير السن أو لأنه من الخاملين والمردود عليه من المشهورين البارزين ونحو ذلك.

2- استحقار الناس أي ازدراؤهم كأن يتكبر على فقيرٍ وينظر إليه نظر احتقار، أو يعرض عنه، أو يترفع عليه في الخطاب.

ثالثاً: التواضع مأخوذٌ من مادة (و ض ع) التي تدل على الخفض للشيء وحطه، يقال وضعته بالأرض وضعاً ووضع

المرأة ولدها. وأمّا اصطلاحاً فقد قال الجنيد رضي الله عنه: «التواضع هو خفض الجناح ولين الجانب». وقد سئل الفضيل بن

عياض رحمه الله عن التواضع فقال: «يخضع للحق وينقاد له ويقبله ممن قاله ولو سمعه من صبي قبله».

وفي الإحياء⁽³⁾: «روي أنه خرج يونس وأيوب والحسن يتذاكرون التواضع فقال لهم الحسن: أتدرون ما التواضع؟ التواضع

أن تخرج من منزلك ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً».

رابعاً: الأمر به:

قال تعالى: {وَاحْفَظْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 88].

(1) صحيح مسلم، مسلم، (93/1)، حديث (147).

(2) تاج العروس، الزبيدي، (9/14).

(3) إحياء علوم الدين، الغزالي، (342).

وقال عز شأنه: {وَاحْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الشعراء: 215].

وفي صحيح مسلم قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَنْبَغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ»⁽¹⁾.

خامساً ثمراته:

أ- أن الله يحب أهل التواضع المسلمين. قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة: 54]، وفي كتاب الله قد مدح الذلَّ في موضعين: الذل للمؤمنين والذل للوالدين، قال تعالى: {وَاحْفِضْهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} [الإسراء: 24].

ب- الرفعة: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ»⁽²⁾.

ج- الجنة: قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصص: 83]. قال ابن جريج: {لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ} تعظماً وتجبراً، {وَلَا فَسَادًا} عملاً بالمعاصي.

وفي الصحيحين⁽³⁾ قول نبينا ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبْرَهُ». قال

النووي⁽⁴⁾: «ضبطوا قوله «مُتَضَعِّفٍ» بفتح العين وكسرها، والمشهور الفتح؟ ولم يذكر الأكثرون غيره، ومعناه يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله في الدنيا. يقال: تضعفه واستضعفه. وأما رواية الكسر فمعناها: متواضع مُتَذَلِّلٌ خامل واطع من نفسه».

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ بَرِيءٌ مِنْ ثَلَاثٍ: الْكِبْرِ وَالْعُلُوِّ وَالذُّنُوبِ دَخَلَ

الْجَنَّةَ»⁽⁵⁾، أي أن لا يقترض من الناس لغير حاجة وهو عاجز عن رد هذا المال لأصحابه فإن فعل ذلك وهو يعرف من نفسه أنه

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (274/4)، حديث (4895).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (2001/4)، حديث (2588).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (159/6)، حديث (4918). صحيح مسلم، مسلم، (2190/4)، حديث (2853).

(4) شرح صحيح مسلم، النووي، (186/17)، (187).

(5) سنن الترمذي، الترمذي، (138/04)، حديث (1572).

لن يرد ولم يعلم دأته بذلك وليس له جهة يرد منها والمقرض لا يرضى، يكون قد عصى الله وارتكب مُحَرَّمًا، وليس مراده ذم الدَّين مطلقًا.

سادسًا: صور من تواضع الأنبياء والصالحين:

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال في خطبة له: «إنا والله قد صحبنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، فكان يعود مرضانا، ويتبع جنازتنا، ويغزو معنا، ويواسينا بالليل والكثير»⁽¹⁾.

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سمع عمر رضي الله عنه يقول: قال ﷺ: «لَا تُطْرُونِي⁽²⁾ كَمَا أُطِرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ»⁽³⁾.

وعندما كان النبي ﷺ في حاجة أهله كان يرفع ثوبه ويخسف نعله، وثبت في صحيح مسلم أنه جاءت إليه امرأة في عقلها شيء فقالت: يا رسول الله إن لي إليك حاجة، فقال: «يَا أُمَّ فَلَانٍ انْظُرِي أَيَّ السَّكِّ شِئْتِ حَتَّى أَقْضِيَ لَكَ حَاجَتَكَ»، فخلا معها في بعض الطرق حتى فرغت من حاجتها.

وعن طارق بن شهاب قال: خرج عمر بن الخطاب إلى الشام ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فأتوا على مخاضة وعمر على ناقه له فتزل عنها وخلص خفية فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين أنت تفعل هذا، تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟ ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك، فقال عمر: «أوه لو يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالا لأمة محمد ﷺ إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله»⁽⁴⁾.

وفي الختام نود إنهاء الكلام على هذه الوصية بذكر بعض أنواع العلاج من الكبر:

1- العلاج الإيماني: إذا يأمر الإيمان بالحرص على مصلحة المسلمين والتواضع لهم وخفض الجناح، قال تعالى: ﴿وَاحْفَظْ

جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: 88]، قال ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْأَرْضِ الدُّلُولِ».

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (532/1)، حديث (504).

(2) احتجت المشبهة بهذا الحديث للإنكار على أهل السنة بتوسلهم بالذوات الصالحة، ولا حجة لهم لأن المتوسل برسول الله ﷺ لم يفعل ذلك إلا طاعة لمن سيدنا محمد ﷺ عبده.

(3) صحيح البخاري، البخاري، (167/4)، حديث (3445).

(4) المستدرک، الحاكم، (130/1)، حديث (207).

2- العلاج العِلْمِيّ: وهو الوعي بهذا الخلق وتعديله ومعرفة ضرر هذا المرض الخبيث، والاستعاذة بالله سبحانه من الكبر، قال سبحانه: {إِنْ فِي ضُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ} [غافر: 56]. فإذا تغيرت نظرتَه لهذا المرض واتضح له حقيقته وأصبحت موازينه في الحكم عليه هي الضوابط الشرعية اجتهد للتخلص منه. وليكن على ذُكْر لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]. قال الغزالي: «أن يعرف نفسه ويعرف ربه ويكفيه ذلك في إزالة الكبر»⁽¹⁾.

نسأل الله أن يحفظنا من الكبر والتكبر والخيلاء كما نسأله أن يجعلنا من عباده المتواضعين.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَارِضَ مِنْهُمْ مَا تَرْضَى لِنَفْسِكَ.

وَعَامِلِ النَّاسِ مُعَامَلَتَكَ لِنَفْسِكَ».

الشرح: يشير الإمام رضي الله عنه بهذه النفائس إلى ما وضع لنا الإسلام من مجموعة من القواعد والمبادئ التي تنظم

علاقة المسلمين مع بعضهم وتحكم تعاملهم فيما بينهم حتى لا يبغي أحدٌ على أحد، وحتى تسود المودة والوفاء والتفاهم فيما بينهم ويتعدوا عن الخصام والشجار والقطيعة.

ومن هذه القواعد قاعدةٌ إسلاميةٌ عظيمةٌ وأصيلةٌ تقوم على مبدأ: عامل الناس كما تحب أن يعاملوك به، ومصدر هذه

القاعدة مأخوذة من حديث للنبي ﷺ يقول فيه: «فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزْحَرَ عَنِ النَّارِ وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَاتٍ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»⁽²⁾.

وهذه القاعدة لها صلة وثيقة بقاعدةٍ أخرى تقوم على مبدأ: «أحب لأخيك المسلم ما تبه لنفسك»، وقد أكد النبي ﷺ

على هذا المبدأ وجعله شرطاً في كمال الإيمان حين قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»⁽³⁾.

وهذه القاعدة عبارة عن ميزانٍ يرجع إليه الإنسان كلما اشتبه عليه الأمر عليه واحتار في تصرف أو شك في سلوك،

فبالرجوع إلى هذه القاعدة وتطبيقها وتحكيمها يسهل الأمر عليه في كيفية التعاطي مع الناس.

(1) إحياء علوم الدين، الغزالي، (358/3).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (1482/3)، حديث (1844).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (12/1)، حديث (13).

عزيزي القارئ، إذا أردت الجواب الشافي عما قد يدور في ذهنك من أسئلة عن سلوك معين أو تصرف محدد: هل هو سلوك جيد أم رديء؟ سل نفسك سؤالاً، ما الذي أريد من الناس في مثل هذه الحالة؟ وما الذي أنتظره ممن أعامل؟ وعلى ضوء الإجابة تكون الصورة واضحة أمامك، وتبني ذلك على ما ورد في الشرع.

وسنعرض فيما يلي بعض الأمثلة من التصرفات والأخلاق التي نعيشها في حياتنا اليومية ونشاهدها في تعاملنا مع من حولنا مع ربطها بهذه القاعدة:

1- لا تحب أن يفتابك أحدٌ أو يذكرك بسوءٍ فلا تعتب أحداً أو تذكر سوء أخيك المسلم تُفكُّها.

2- لا تحب أن يتكبر عليك أحدٌ أو يعاملك باحتقارٍ أو ازدراءٍ فيوجه لك ألفاظاً بذيئةً، ولا تحب من غيرك أن يخونك، ولا أن يكذب عليك، ولا أن يفضحك إن أسأت؛ بل الذي تحبه م غيرك أن يعاملك بالصدق والأمانة والنصيحة، فعامله أنت بذلك كذلك، فتواضع له وعامله باحترام، وأسمعه الكلام الطيب والألفاظ الجميلة.

فهذا ما يرشد إليه الإمام تلميذه أن يتحلى بالأخلاق السامية الفاضلة، وأفهمنا الإمام أن تعامل الإنسان مع غيره وفق هذه القاعدة يعني أنهم لن يجدوا منه إلا الأخلاق الرفيعة ولن يشاهدوا منه إلا الأخلاق الراقية ولن يسمعوا منه إلا الألفاظ الكريمة لسببٍ هينٍ وهو أن هذه الأمور هي التي يريد أن يعاملوه بها، وهي التي يريد أن يراها ويسمعها منهم فيجد نفسه مندفعاً إلى التزامها والعمل بها.

فإذا كنت تريد من الناس معاملةً طيبةً وأخلاقاً فاضلةً وسلوكاً حسناً فابدأ بنفسك أولاً، وأقنعها بأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك بها.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واستعن على نفسك بالصيانة لها، والمراقبة لأحوالها».

الشرح: بعد أن عرفنا الإمام على بعض أمراض القلوب، وعرفنا بعض العقبات الكؤود التي تحول دون تهذيب النفس، وعرفنا أهمية التقوى ومدى حث الإسلام عليها، وربط الأحكام بها، قدم الإمام لنا بعض المراحل العملية في تربية وتهذيب النفس وهي المراقبة والمحاسبة، وتبرز أهميتها بأنها من الأسباب الأساسية للوصول إلى التقوى وتركية النفس.

بيان المراقبة والمحاسبة:

المراقبة هي أن يلاحظ الإنسان نفسه عند الخوض في الأعمال في كل حركة وسكون، لذلك تكون المراقبة عامل وقاية من الذنوب والأمراض.

والحاسبة هي أن يعيّن الإنسان وقتًا في كلِّ يومٍ يحاسب نفسه بموازنة طاعاته وحسناته، لذلك تكون الحاسبة عامل علاجٍ من الذنوب والأمراض.

أهمية المراقبة والمحاسبة:

لندرك أهمية المراقبة والمحاسبة ينبغي لنا أن نلاحظَ الأمور الآتية:

أ- تسجيل الأعمال حيثُ يستفادُ من القرآن الكريم أنَّ أعمالنا محفوظة في صحيفة أعمالنا، وإذا كان الأمر كذلك فكيف

يمكننا الغفلة عن عواقب هذه الأعمال وعدم المبادرة إلى مراقبة أنفسنا والانتباه إلى أقوالنا وأعمالنا ونوايانا. يقول تعالى:

{يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ* فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 6]

— [8]، وفي آية أخرى: {يَوْمَ نَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا

بَعِيدًا} [آل عمران: 30]، وفي آية أخرى: {مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [ق: 18].

ب- الحساب على الأعمال يوم القيامة، والحساب نوعان: عرضٌ ومناقشةٌ، فمن نوقش الحساب عذب.

قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا

حَاسِبِينَ} [الأنبياء: 47]، وفي آية أخرى: {وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهَا يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} [البقرة: 284]، ويقول تعالى:

{وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا

مَا عَمِلُوا حَاضِرًا⁽¹⁾ وَلَا يَظْلِمُ رُبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: 49].

ثمرة المحاسبة:

إنَّ لمحاسبة النفس ومراقبتها نتائج وثمرات متعددة، نشير إلى بعضها:

أ- الشعور بالندم والبدء بالاستغفار.

ب- التعويض: وذلك من خلال تدارك ما فاته بأمرٍ خيرٍ كثيرة، قال تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114].

(1) وهذا ردُّ على بعض الجهال الذين لا يصلُّون ويقولون: غداً نصلي في جهنم: فالدنيا هي دار التكليف والعمل، والآخرة هي دار الجزاء والحساب على العمل. وقوله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا}، أي: وجدوا جزء ما عملوه في الدنيا. قال سيدنا علي: «اليوم العمل ولا حساب، وغداً الحساب ولا عمل».

ج- التزود: وهو الدخول في كثيرٍ من المستحبات والأعمال الفاضلة لتثقيل الميزان يوم القيامة. قال سيدنا عمر: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا.

كيف نحاسب أنفسنا؟

1- العهد⁽¹⁾: فيخلو الإنسان إلى نفسه فيعظها ويطلب منها أن تغتتم عمرها، وبالتالي يأخذ منها العهد بأن لا ترتكب المعصية ولا تترك الطاعة.

2- المراقبة: راقب نفسك من أجل أن تردعها عن محاولة التخلي عن الالتزام بالعهد.

3- حث النفس وعتابها: فليحدد كلُّ منا ساعة كلِّ يومٍ من أجل أن يحاسب نفسه فيجلس ليرى ما فعله في نهاره ساعة بساعة، فإن فعل خيرًا حمد الله تعالى على توفيقه لفعل الطاعة، وإن فعل المعصية ونَحَّ نفسه وانتهرها وتاب إلى الله تعالى.

اللَّهُمَّ اجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، اللَّهُمَّ اجعلنا من التوابين المراقبين لأنفسهم الصائنين لها عن المحظورات.

قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تضجر لمن لا يضجر عليك».

الشرح: قد سبق قول الإمام رضي الله عنه: «ولا تُبد لأحدٍ منهم ضيق صدرٍ أو ضجرًا»، ثم جاءت هذه الوصية هنا تأكيدًا وتثبيتًا وترسيخًا لمعنى حسن الخلق في نفس يوسف بن خالد السمي تلميذ الإمام، كيف لا وعدم إبداء الضجر والمَلال من الناس هو مظهر عظيم من مظاهر النفس المهذبة، وهي رياضة لها.

وكما فهمَ مما مرَّ الحثُّ من الإمام على ترك التضايق من الناس وترك إظهار الملل منهم، وأن يخفي الإنسان الضجر وإن حصل وشعر به، نتكلم إن شاء الله تعالى في هذه الوصية على ما هو أعم وأشدن وهو كيف نتعامل مع أذى الآخرين.

مما لا بدَّ منه في هذه الحياة في الغالب حصول الأذى للمرء من غيره، ووقوع الظلم عليه من الآخرين وتعديهم عليه في نفسه أو ماله أو عرضهن وهو الأمر الذي لا يسلم منه أحد في الغالب مهما بلغ من قوة في دينه أو أعطي من رجاحة العقل أو حسن الخلق، غير أنَّ تحمل الناس لهذا الأمر واختلاف ردود أفعالهم تجاهه هو الذي يحدد من كان منهم ذا حظٍّ عظيمٍ ممن هو

(1) أي: أن يتعهد ذلك على محاسبة نفسه بحيث لا يتركها ولا يهملها إلى أن تقع في معصية أو غفلة.

دون ذلك، ألا وإن من أعظم الناس في هذا الشأن حظاً وأعلاماً قدرًا وأكثرهم أجرًا هم الموفقون الذين يدفعون السيئ بالحسن ويردون الظلم بالعمو ويقابلون الخطأ بالصفح ولا يُبدون أيّ ضجرٍ أو ضيقٍ جاعلين نبراسهم في ذلك قول الحق سبحانه وتعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: 34، 35].

إن المؤمن الذي وفقه الله وأعظمَ حظَّهُ وأعلى نصيبه ليُجعل من هذه الآيات نورًا يسير عليه في حياه وقاعدةً ينطلق منها في تعامله مع المسيئين إليه، فيتحمل الأذى ويصبر على الخطأ، ويتجاوز عن كلِّ تجاوزٍ في حقه، ويُقصر نظره على كلِّ تقصيرٍ تجاهه من غير إبداءٍ أي مللٍ أو ضجرٍ أو ضيقٍ أو تعنيفٍ على المخطئ متدرِّجًا بالصبر متجرِّعًا للغيب مستعينًا بالله تعالى، مستعيدًا من الشيطان، إذ إنَّ الله تبارك وتعالى يسمع ويعلم ويرى، وهو خالق أفعال العباد خيرا وشرها، وما يكون من تسلُّط أحد على أحد فإنما هو بقضائه وقدره سبحانه، ولو شاء سبحانه ألا يقع أمرٌ لما وقع، ولولا تقديره عزَّ وجلَّ أن يؤذي العبد من آذاه لما حصل له ذلك الأذى، وإنه متى نظر العبد بهذا المنظار ولم يلقِ بالأل لأفعال أولئك المخطئين استراح من الهم والغم، وحمد الله على الضراء كما يحمده على السراء، وأورثه ذلك لذة يجدها في قلبه وراحة تملأ نفسه.

وأمرٌ آخر يقع في نفس المؤمن بعد كلِّ أذى يحصل له أو ظلم يقع عليه ألا وهو يقينه أنه لم يُسلط عليه من سلط أحيانا إلا بذنبٍ منه وتقصيرٍ، وإذا رأيت المرء يقع في الناس إذا آذوه ولا يفكر ولو قليلاً أن إيذاءهم قد يكون بسببٍ منه فيلوم نفسه على خطئها ويحاول تطهيرها بالتوبة وكثرة الاستغفار، فاعلم أن مصيبتك كبيرة، إذ اجتمع عليه مع أذى الناس له غفلته عن نفسه. وأما إذا أكثر الاستغفار واتهم نفسه فإنه يصقل بهذا نفسه ويطهرها ويرجع إلى ربه وينيب إليه.

وقد يقول قائلٌ: إنَّ هذا الأمر ليس على إطلاقه وعمومه، وليس كلُّ من حصل له من الناس أذى فهو بسببٍ تقصيره أو بما اكتسب من الذنوب، كيف وقد حصل الأذى لخير الخلق من الأنبياء والرسل وخير الورى وأفضلهم محمد بن عبد الله ﷺ، فقد أؤذي في الله ولم يؤذ غيره، وهو الذي قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر.

فيقال: نعم، إنه حين لا يكون أذى الناس لعبدٍ ماحيًا لذنوبه طارحًا لسيئاته، فإنه في المقابل رافع لدرجاته زائد في حسناته.

وقد وعد الله من عفا وصبر أن يكون أجره على الله، قال سبحانه: {وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَح فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ} [الشورى: 40].

فمن عفا وأصلح فقد سلك سبيل العزة، قال ﷺ: «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»⁽¹⁾. رواه مسلم وغيره، وقال: «ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزاً»⁽²⁾.

فمن كانت هذه صفته فإن له شيئاً عظيماً ونظراً أدق وتفكيراً أعمق من غيره، وإنه يُفَرِّغ قلبه وجسمه لمصلحه التي هي أهم عنده من الانتقامِ سواء في ذلك مصلحه الدنيوية من طلبِ معاش وتربية أبناء ورعاية حرث وزرع وتنمية تجارة أو مصلحه الأخروية وهي الأهم من تزكيةٍ للنفس بالطاعاتِ وطلبٍ للمنازل العالية.

لقد أضع الانتقام على كثيرٍ من الناس أوقاتهم وأذهب أعمارهم وفوّت عليهم مصلحتهم، ومما قد يكون فيه ضياع للدين وذهاب للعقلِ وفساد للصحة وخسارة للراحة.

فرحم الله أمراً جعل طلب الأجر بين عينيه والتمسَ عظم الثوابِ ورفيع الدرجة عند ربه وابقن بقرب الموتِ وسرعة انقضاءِ العمر.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَدَعَ الشَّعْبَ».

الشرح: لفهم هذه الوصية على وجهها نحتاج لشرح مفردات هذه الجملة النافعة حتى نتوصل بإذن الله لبيان المقصود منها على التمام.

قال في لسان العرب: الشعب بسكون الغين تهييج الشر والفتنة والخصام، فإذا بعد هذا النص من ابن منظور صاحب لسان العرب يظهر لك أيها القارئ تصوّر أوّلٍ لفحوى هذه الوصية.

وأقدم لك أيها القارئ بمقدمة لطيفة تكون مدخلاً لنا إلى الموضوع، فأقول لك: من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ولا يضر إلا نفسه ولن يضر الله شيئاً.

فيا أيها الناس اتقوا الله تعالى في السرِّ والعلن وسيروا على خير منهاجٍ وسنن، واحذروا الفتن ما ظهر منها وما بطن، ثم

اعلموا أنّ نبيكم ﷺ قد حدركم من جملة فتنٍ تكون بين يدي الساعة، وذلكم على أسباب النجاة منها والعصمة من شؤمها

فاتبعوه ﷺ على سنته ولا تخالفوا أمره، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 132]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَخْذِرِ الَّذِينَ

(1) صحيح مسلم، مسلم، (2001/4)، حديث (2588).

(2) سنن الترمذي، الترمذي، (562/4)، حديث (2325). نعم ثمة أناس لا شك أنهم يتتلون بأنواع البلايا في أجسادهم، ويسلط السفهاء عليهم من غير أن يسبق لهم ذنب، وهذا حال الأنبياء والأولياء والأخير من عباد الله، وهو رفعة لهم في مقاماتهم ودرجاتهم لا لأنهم أذنبوا، ولا لأن الله ينتقم منهم؛ بل لأن الله يحب لهم المقام الأرفع والأعلى.

يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النور: 63]. وقال ﷺ: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي»⁽¹⁾، وقال: «فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِسُنَّتِي (2) فَلَيْسَ مِنِّي»⁽³⁾.

فقد حذرنا رسول الله ﷺ من الفتن فقال: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتْنًا كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، فَكَسَرُوا قِسِيَكُمْ، وَقَطَعُوا أَوْتَارَكُمْ، وَاضْرِبُوا سُيُوفَكُمْ بِالْحِجَارَةِ، فَإِنْ دَخَلَ عَلَى أَحَدٍ مِنْكُمْ، فَلْيَكُنْ كَخَيْرِ ابْنِي آدَمَ»⁽⁴⁾.

قال الحسن رحمه الله: «والله لقد رأيناهم صورًا ولا عقولَ أجسامًا ولا أحلامَ فراش نار وذبابان يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين يبيع أحدهما دينه بثمن العنز».

وعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لَا يَدْرِكُنِي زَمَانٌ، أَوْ لَا تُدْرِكُوا زَمَانًا لَا يُتَّبَعُ فِيهِ الْعَلِيمُ وَلَا يُسْتَحَى فِيهِ مِنَ الْحَلِيمِ، قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الْأَعَاجِمِ، وَأَلْسِنَتُهُمْ أَلْسِنَةُ الْعَرَبِ»⁽⁵⁾.

ولقد اشتملت أحاديث النبي ﷺ في الإخبار عن الفتن على ذكر صفاتها وصفات أهلها، وبيان شؤم آثارها على العباد والبلاد، فمن ذلك قوله ﷺ لابن حوالة رضي الله عنه: «يَا ابْنَ حَوَالَةَ، كَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةٍ تَثُورُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ كَأَنَّهَا صِيَاصِي (6) بَقَرٍ»⁽⁷⁾.

وخرج نعيم بن حماد في الفتن عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «تَكُونُ فِتْنَةٌ، ثُمَّ تَكُونُ جَمَاعَةٌ، ثُمَّ فِتْنَةٌ، ثُمَّ تَكُونُ جَمَاعَةٌ، ثُمَّ فِتْنَةٌ تَعُوجُ فِيهَا عُقُولُ الرِّجَالِ»⁽⁸⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «تَأْتِيكُمْ مِنْ بَعْدِي أَرْبَعُ فِتْنٍ، فَالرَّابِعَةُ مِنْهَا الصَّمَاءُ الْعَمِيَاءُ الْمُطْبِقَةُ، تُعْرِكُ الْأُمَّةَ فِيهَا بِالْبَلَاءِ عَزَكَ الْأَدِيمِ، حَتَّى يُنْكَرَ فِيهَا الْمَعْرُوفُ، وَيُعْرَفَ فِيهَا الْمُنْكَرُ، تَمُوتُ فِيهَا قُلُوبُهُمْ كَمَا تَمُوتُ أَبْدَانُهُمْ»⁽⁹⁾.

(1) سنن أبي داود، أبو داود، (200/4)، حديث (4607).

(2) أي: طريقي، أي ما جئت به عقيدةً وأحكامًا.

(3) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (592/1)، حديث (1846).

(4) سنن أبي داود، أبو داود، (100/4)، حديث (4259).

(5) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (518/37)، حديث (22879).

(6) أي: قرون.

(7) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (464/33)، حديث (20354).

(8) الفتن، نعيم بن حماد، (539/1)، حديث (81).

تذكروا أيها الناس أن نبيكم ﷺ لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، وأنه ﷺ كما أخبركم عن الفتن ووصفها لكم وصفاً جلياً يُزيل اللبس ويجعلكم على بينة، قد بين لكم شؤمها على البلاد وأحوال المؤمنين، ففي المعجم الكبير⁽¹⁾ عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْفِتْنَةَ تُرْسَلُ، وَرُسُلُ مَعَهَا الْهُوَى وَالصَّبْرُ، فَمَنْ اتَّبَعَ الْهُوَى كَانَتْ فِتْنَتُهُ سَوْدَاءً، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّبْرَ كَانَتْ فِتْنَتُهُ بَيْضَاءً».

وفي الصحيحين⁽²⁾ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ».

أمة الإيمان، وما يُنجي الله به من الفتن الدعاء والضراعة إلى الله بطلب السلامة منها ومن شرها وشر أهلها، قال عليه الصلاة والسلام: «لَا يَخْلُصُ مِنْ شَرِّهَا إِلَّا أَخْلَصَ الدُّعَاءَ كَدُعَاءِ الْغَرَقِ فِي الْبَحْرِ»⁽³⁾.

وما يسلم به الله من شر الفتن: ما أرشد إليه ﷺ بقوله: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ⁽⁴⁾ وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ»⁽⁵⁾. وفي حديث حذيفة بيان أنه إن لم يكن للمسلمين جماعة ولا إماماً فليعتزل المرء تلك الفرق كلها، ولم يقل النبي ﷺ لحذيفة: إذا تموت ميتة جاهلية خلافاً لحزب التحرير⁽⁶⁾.

وفي الحديث⁽⁷⁾: «دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَدَفُوهُ فِيهَا»، قال حذيفة: يا رسول الله صفهم لنا، قال: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا».

فاتقوا الله واحذروا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وخذوا للنجاة منها بخير سنن، فإن نبيكم قد تقدم لكم بالإندار فأبلغ في الإعدار وترككم على محجة بيضاء ليلها كنهارها، فاقبلوا نذارته والزموا سنته ولا تخالفوا عن أمره.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاسْتَمِعْ مَنْ يَسْتَمِعُ مِنْكَ».

(9) الفتن، نعيم بن حماد، (67/1)، حديث (128).

(1) المعجم الكبير، الطبراني، (294/3)، حديث (3446).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (51/9)، حديث (7081). صحيح مسلم، (2211/4)، حديث (2886).

(3) الفتن، نعيم بن حماد، (255/1)، حديث (720).

(4) والمراد بالجماعة هنا السواد الأعظم، جمهور أمة النبي ﷺ، وليس معناها جماعة الصلوات الخمس مع التأكيد على أهميتها وأهمية الجمعة، إلا أن الحديث (هنا هو تأكيد على البقاء والثبات مع أهل السنة والجماعة الأشعرية الماتريدية).

(5) سنن الترمذي، الترمذي، (465/4)، حديث (2165).

(6) جماعة يسمون «حزب التحرير» يجرفون دين الله وينشرون الأباطيل ويثيرون الخلافات التي لا معنى لها. وقد أسس هذا الحزب رجل يسمى تقي الدين النبهاني ادعى الاجتهاد وخاض في الدين بجهل، فوقع في التحريف والتكذيب لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وخرق الإجماع في مسائل من أصول الدين وفروعه.

(7) صحيح البخاري، البخاري، (51/9)، حديث (7084).

الشرح: يجدد لنا الإمام رضي الله عنه التأكيد على اتخاذ حسن الخلق وسيلةً لقلوب الناس ومفتاحًا لها، كيف لا والوصية تندرج تحت عنوان علاقة العالم بغيره. وقد وصل في الإرشاد إلى الكلام على أمرٍ يجهل أهميته كثيرٌ من الناس وهو: حسن الإصغاء والاستماع، أو بما يسميه البعض: إتقان الإنصات.

ليعلم أن الإصغاء له تأثيرٌ عظيمٌ في مجال العلاقات الدينية والاجتماعية والعملية. ومن هنا كان للإنصات دوره في كسب ثقة الناس، فإنَّ من آداب الاستماع الإنصات ومتابعة المتحدث وعدم مقاطعته طالما لم يكن ثمة ما يخالف الشرع؛ بل وأحيانًا قد ينتظر الشيخ حتى ينتهي المخالفون عن مفاسدهم لحكمة ثم يردّها وبين الصواب كما حصل مع أحد أئمة أهل السنَّة والجماعة وأحد زعماء المعتزلة حتى ءال الأمر في النهاية أن فرَّ المعتزلة من المجلس ولم يعودوا، فقال الإمام لأحدهم اكتب: هربوا.

فإذًا يلوح لك أيها القارئ أن حسن الإصغاء هو وسيلةٌ فعَّالةٌ في كسب القلوب وترك الأثر الجيد والحسن، فإنَّ المتحدث في الغالب يشعر بالإيناس والطمأنينة إذا بدا على مستمعه الإنصات والرغبة في الاستماع، فكم من شخصيةٍ لا يرغب الكثير في مجالستها لأن صاحبها لا ينصت لهم فيشعرون أنه لا يقدر حديثهم ولا يعبأ بكلامهم.

وكان العلماء يقولون: أول أبواب العلم الاستماع، وطالما حث على ذلك أئمتنا وعلى رأسهم في هذا العصر الحافظ المعلم المريبي الشيخ عبد الله الهرري رحمت الله عليه.

وقد وجه القرآن المسلمين إلى الأمر بالإنصات لتلاوة القرآن للتفكير والتدبر وغيرهما من الفوائد. قال تعالى: ﴿وَأِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204].

والقارئ لسورة يوسف يتضح له من خلالها عظيم هذا الخلق واتصاف الأنبياء به.

1- من ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: 4].

فيظهر هذا الأدب حينما قص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب صلى الله عليهما وسلم، وأخذ نبي الله يعقوب يستمع له. ثم انظر أيها القارئ إلى روعة الجواب أثناء هذا الحوار، إذ قال عزَّ وجلَّ حكايةً عن يعقوب: ﴿قَالَ يَا بُيِّىَ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ *وكذلك يجتنبك ربُّك ويُعلِّمك من تأويل الأحاديثِ وبيِّمُ نعمته عليك وعلى آلِ يعقوب كما أتممها على أبوتك من قبل إبراهيم وإسحق إن ربك عليمٌ حكيمٌ﴾ [يوسف: 5، 6].

2- قوله تعالى: { قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } *وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } [يوسف: 17، 18].

3- قوله تعالى: { وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [يوسف: 36]؛ فيوسف عليه الصلاة والسلام مع ما هو فيه من أمر السجن وغيره استمع إليهما. وانظر إلى حكمته ﷺ بعد الاستماع إليهما، فقد أفصح عن عقيدته ودعوته فكلمهما في ما هو أهم وهو الإسلام، توحيد الله، عبادة الله، صفات الله، تنزيه الله، وكشف عن فساد اعتقادهما، وما هما عليه من الشرك. وهنا نتعلم من أفضل مخلوقات الله وهم أنبياء الله أن البدء بالتعليم يكون بالأولى فالأولى، وأفضل الأعمال إيمان بالله ورسوله.

4- الآية: { يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ } [يوسف: 46]؛ ففي هذه الآية يذكر مجيء الساقى الذي نجا من القتل وهو الذي أوصاه يوسف عليه الصلاة والسلام أن يذكره عند الملك، فنسي بعدما عبر له رؤياه، فبدأ حواراً مع يوسف عليه الصلاة والسلام بذكر رؤيا الملك فأخذ يسأله عن تعبيرها ولم يعنفه يوسف عليه الصلاة والسلام على نسيانه بل استمع إليه وأجابته عن الرؤيا.

5- قوله تعالى: { وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ } [يوسف: 54].
وهنا فائدتان:

- تجنب الاستماع إلى الغيبة والكلام القبيح: فكما حرم الشرع أن يغتاب المسلم أخاه حرم كذلك أن يستمع الواحد منا إلى غيبة أخيه دون الإنكار على قائلها. قال تعالى: { وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّعْنِ مُعْرِضُونَ } [المؤمنون: 3]، وقال تعالى: { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء: 36]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ رَدَّ عَنْ عَرَضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽¹⁾.

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (327/4)، حديث (1931).

- البشاشة والوجه الطلق: من آداب الاستماع تحلي المستمع بالبشاشة والوجه الطلق وتجنب العبوس والكآبة. قال رسول الله ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»⁽¹⁾، وقال ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ صَدَقَةٌ»⁽²⁾.

فحسن الاستماع مما ينبغي أن يلتزم في الحوارات لأنه مما يقوى الألفة والمحبة دون انفعالٍ أو توترٍ، وكم من حوارات كانت نتيجتها الفشل بسبب ترك هذا الأدب.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تُكَلِّفِ النَّاسَ مَا لَا يَكْلِفُوكَ، وَارْضَ لَهُمْ مَا رَضُوا لِنَفْسِهِمْ».

الشرح: وهنا يؤكد الإمام على خلقٍ عظيمٍ وهو من أسباب دوام الصداقة والصحة والأخوة لأنك إن كلفت الناس ومن حولك من الأحبة والطلاب بما لا يطبقونه من الأعمال الصعاب والخدمات الشاقّة عليهم قد يكون ذلك سببًا ليتفرقوا عنك، ففي البداية قد يطيعونك في ذلك خجلًا واستحياءً للمودة التي بينك وبينهم فإن استرسلت في ذلك معهم قد يحملهم هذا على أن يعرضوا وينصرفوا عنك وبهذا تبقى وحدك بعد أن كنت مع إخوانك كثيرًا، فبالكثرة والجماعة يتحقق من مصالح الدين والدعوة ما لا يتحقق بحسب العادة على يد الفرد، ولذلك كان من وصية رسول الله ﷺ: «وَلَا تَدَابِرُوا»⁽³⁾. وأما إن خفت عمن معك وعن الذين يحبونك كان ذلك أدوم لملازمتهم لك وثباتهم معك وعدم الإعراض عنك. وقد سبق ما يشبه هذا المعنى في وصايا مرت بألفاظٍ أخرى ولكن توصل إلى نفس المعنى.

وفي حديث⁽⁴⁾ رسول الله ﷺ: «إِخْوَانُكُمْ حَوْلُكُمْ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

وقد قال الإمام الهري رحمه الله: «من يخدم الدعوة نخدمه»، وكان مرة على مائدة الطعام فقام وذهب إلى المطبخ وجلب الملاعق ووزعها على من معه ولم يطلب ذلك من أحد منهم مع أنهم تلامذته وخدامه، وقال رضي الله عنه: «كان شيخنا يفعل هذا معنا».

(1) صحيح مسلم، مسلم، (2026/4)، حديث (2626).

(2) صحيح ابن حبان، ابن حبان، (221/2)، حديث (474).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (19/8)، حديث (6064).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (15/1)، حديث (30).

تنبه: ما سبق بيانه من عدم تكليفك لمن معك بما يتعبهم هذا يكونُ على حسب حال الناس، فمنهم من لو أشغلته بخدمة الدين والدعوة وقضاء حوائج المسلمين والتفريح عنهم والسعي لتحقيق مصالحهم أو تعليم الناس فإنه يفرح بذلك ويسر ويزداد همّة وفرحاً، وربما إن تركته من غير إشغالٍ له لبعض الوقت يسألك هو ويطلب منك ما يقوم به من العمل لعلّ همته وعظيم صدقه وإخلاصه. فمن كان بهذه الصفة فلا حرج في طلب ذلك منه ولا مانع، فالأمرُ على حسب المصلحة وعلى حسب ما تعرف من أحوال الناس، فمع بعضهم تخفّف ومع بعضهم تُكثّر ومع بعضهم لا تشغله إلا بأن يستمع إلى مجالس العلم لئلاّ يتعد فيخسر ويهلك.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَدِّمَ حُسْنَ النِّيَّةِ».

الشرح: قد شارف الإمام على إنهاء وصيته لتلميذه، ولم ينس رضي الله عنه أن ينبهه أن يراقب نيته وينظر فيها وأن لا ينساها قبل القيام بالأعمال الصالحة التي يقوم بها.

ولأمر النية اعتباراً في الشرع، وفيما يلي سيظهر لك أيها القارئ ذلك بإذن الله سبحانه.

فقد ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»⁽¹⁾.

وهذا الحديث أحد الأحاديث التي يدور عليها معظم أمور الدين، فقد روي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال عن هذا الحديث: ثلث العلم، ويدخل في سبعين باباً من الفقه⁽²⁾.

وقال أبو عمر القرطبي في «المفهم»: «وهذا الحديث بحكم عمومته يتناول جميع الطاعات».

وقال أبو داود: «كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب يعني كتاب السنن جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثمانمائة حديث. ذكرت الصحيح وما يشبهه ويقاربه⁽³⁾ وبكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، أحدها: قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

(1) صحيح البخاري، البخاري، (6/1)، حديث (1).

(2) السنن الكبرى، البيهقي، (23/2). شرح صحيح مسلم، النووي، (53/13).

(3) وفيه ما ضَعَفَهُ بعض الحفاظ.

وقال الحافظ ابن حجر⁽¹⁾ في شرح هذا الحديث: «وصاهم بالإخلاص في عبادته. وعن أبي عبد الملك البوني قال: مناسبة الحديث للترجمة أن بدء الوحي كان بالنية لأن الله تعالى فطر محمداً على التوحيد وبغض إليه الأوثان، ووهب له أول أسباب النبوة وهي الرؤيا الصالحة. فلما رأى ذلك أخلص إلى الله في ذلك فكان يتعبد بغار حراء فقبل الله عمله وأتم له النعمة. وقال المهلب ما محصله: قصد البخاري الإخبار عن حال النبي ﷺ في حال منشئه وأن الله بغض إليه الأوثان وحبب إليه الخير ولزوم الوحدة فراراً من قرناء السوء⁽²⁾. فلما لزم ذلك أعطاه الله على قدر نيته ووهب له النبوة كما يقال الفواتح عنوان الخواتم».

ولا يعني ذلك أن الإنسان المسلم إذا كانت نيته حسنة في أعماله الصالحة واعتزل الناس وأكثر من الطاعات والعبادات يصير نبياً لأن النبوة اصطفاء من الله وليست مكتسبة من العباد بطاعتهم. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ يَصِيرَ نَبِيًّا لِأَنَّ النَّبُوَّةَ اصْطِفَاءٌ مِنَ اللَّهِ وَلَيْسَتْ مَكْتَسَبَةً مِنَ الْعِبَادِ بِطَاعَتِهِمْ﴾. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ يَصِيرَ نَبِيًّا لِأَنَّ النَّبُوَّةَ اصْطِفَاءٌ مِنَ اللَّهِ وَلَيْسَتْ مَكْتَسَبَةً مِنَ الْعِبَادِ بِطَاعَتِهِمْ﴾.

النَّاسِ { [الحج: 75].

فمن ذلك كله يتضح أهمية هذا الحديث وأهمية النية في الإسلام.

وأما في الكلام على تعريف النية، فقد قال الجوهرى في الصحاح: «النية العزم». وقال الخطابي: «هي قصدك الشيء بقلبك وتحري الطلب منك له». وقال البيضاوي: «هي انبعاث القلب نحو ما يراه موافقاً لغرض من جلب نفع أو دفع ضرر حالاً أو مآلاً». وقال: «والشرع خصها بالإرادة المتوجهة نحو الفعل ابتغاءً لوجه الله وامتنالاً لحكمه».

وقال العراقي في «شرح التقريب»⁽³⁾: «اختلف في حقيقة النية فقيل: هي الطلب وقيل: الجد في الطلب. ومنه قول ابن مسعود رضي الله عنه: من ينو الدنيا تعجزه أي من يجد في طلبها».

وقال الزركشي في قواعد⁽⁴⁾: «حقيقتها ربط القصد بمقصود معين، والمشهور أنها مطلوب القصد إلى الفعل. وقال الماوردي: هي قصد الشيء مقترناً بفعله، فإن قصده وتراخى عنه فهو عزم».

النية في القرآن الكريم:

(1) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، (11/1).

(2) ليعلم أن نبينا المصطفى ﷺ كان من طفولته تحيط بتصرفاته العناية الربانية، فكان محفوظاً من الشِّرك والكبائر وكل ما فيه خسة ودناءة، وكان من طفولته ينفر من الرذالات ومن قرناء السوء، ولم يكن يتأثر بعبادات المشركين ولا أخذ شيئاً من تصرفاتهم وأعمالهم وأقوالهم الخبيثة من شرك وغيره، فالأنبياء جميعاً من طفولتهم إلى الممات لا تمرُّ عليهم لحظة واحدة يكونون فيها كافرين أو فاسقين، بل هم معصومون قبل النبوة وبعدها.

(3) طرح الشريب، العراقي، (7/2).

(4) المنتور في القواعد الفقهية، الزركشي، (284/3).

قد ورد التعبير عن هذه النية المشروطة في القرءان بتعابير مختلفة مثل: إرادة الآخرة أو إرادة وجه الله أو ابتغاء وجهه أو ابتغاء مرضاته.

يقول تعالى: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّوهُم بِأُذُنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 152].

وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَدْمُومًا مَّدْخُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا * كَلَّا مَتَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا} [الإسراء: 18 - 21].

النية في الأحاديث الشريفة:

أما السُّنَّة فقد ورد فيها الكثير من فضل النية والإخلاص، نذكر منها بعض ما انتقيناها مما ذكره الإمام المنذري في كتابه «الترغيب والترهيب». وقد بدأها وبدأ كتابه كله بحديث الثلاثة أصحاب الغار وهو حديث متفق عليه الذي فيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ أَحَدَهُمُ الْمَطَرُ فَمَالُوا إِلَى غَارٍ فِي الْجَبَلِ فَأَتَتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَأُطْبِقَتْ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ انظُرُوا أَعْمَالًا عَمِلْتُمُوهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صَالِحَةً، فَادْعُوا اللَّهَ بِهَا لَعَلَّهُ يَفْرُجُهَا» الحديث⁽¹⁾. وفيه دليل على جواز التوسل بالأنبياء والأولياء. قال العلماء: «الأنبياء والأولياء أفضل من أعمالهم»، فإذا جاز التوسل بالمفضول وهو العمل الصالح كما في الحديث فكيف بالفاضل.

وثني بحديث أبي أمامة الباهلي قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»، فاعادها ثلاث مرات يقول له الرسول ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا وَابْتِغَى بِهِ وَجْهَهُ»⁽²⁾.

ثم ثلث بحديث عمر المشهور: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ».

والأحاديث الثلاثة تؤكد على أهمية النية وتصفية النية لرب البرية فذلك من الأساس لصحة العبادات وسبيل إلى قبولها.

(1) الترغيب والترهيب، المنذري، (220/3)، حديث (3764).

(2) الترغيب والترهيب، المنذري، (194/2)، حديث (2073).

وعن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يَغْزُوا جَيْشُ الْكَعْبَةِ، فَإِذَا كَانُوا بَيْدَاءَ مِنَ الْأَرْضِ يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَعَاخِرِهِمْ». قالت: قلت يا رسول الله: كيف يخسف بأولهم وعآخرهم وفيهم أسواقهم⁽¹⁾ ومن ليس منهم، قال: «يُخَسَفُ بِأَوْلِهِمْ وَعَاخِرِهِمْ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»⁽²⁾.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَقَدْ تَرَكْتُمْ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا وَلَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ وَلَا قَطَعْتُمْ مِنْ وَادٍ، إِلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ فِيهِ»، قالوا: يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ فقال: «حَبَسَهُمُ الْعُدْرُ»⁽³⁾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ⁽⁴⁾ إِلَى أَجْسَادِكُمْ وَلَا إِلَى صُورِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ».

وتصحيح⁽⁵⁾ النية شرط لقبول العمل، فلا بد قبل العمل الصالح من استحضار النية وتجردها من كل الشوائب وإخلاصها لله تعالى في كل عملٍ من أعمال الآخرة حتى يجوز القبول عند الله، ذلك أن لكل عملٍ صالحٍ ركنين زيادة على الإسلام والإيمان والتميز لا تقبل الطاعات عند الله إلا بهما:

أولهما: الإخلاص وتصحيح النية.

وثانيهما: موافقة السُّنَّة ومنهاج الشرع.

وقد جمع الركنان في أكثر من آية في كتاب الله، قال تعالى: {وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ} [لقمان: 22]، وقال سبحانه: {بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة: 112].

وإسلام الوجه لله: إخلاص القصد والعمل له وحده، والإحسان فيه: أدائه على الصورة المرضية شرعًا ومتابعة رسول الله ﷺ وسُنَّته. قال ابن مفلح الحنبلي: «طلب العلم أفضل الأعمال لم صحت نيته».

(1) أي: أهل أسواقهم الذين يبيعون ويشتررون ولم يقصدوا الغزو.

(2) صحيح البخاري، البخاري، (65/3)، حديث (2118).

(3) سنن أبي داود، أبو داود، (12/3)، حديث (2508).

(4) ليس معناه لا يراها لأن الله تعالى يرى كل المرئيات والمبصرات بلا استثناء، لكن في الحديث (حث على الأعمال الصالحة والنية الحسنة وموافقة الشريعة لا على المظاهر والصور).

(5) تنبيه: فرق بين شروط الصحة والقبول، فشروط الصحة هي الأمور التي لا تصح الصلاة بدونها كالوضوء للصلاة. وشروط القبول هي الأمور التي لا بد منها لنيل الثواب، فمن تركها صحت صلاته بلا ثواب كالخشوع والإخلاص.

وقال الفضيل بن عياض: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا وصوابًا.

والخالص أن يكون لله وحده، والصواب أن يكون على السنّة ثم قرأ الفضيل قوله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} [الكهف: 110].

وقال سفيان الثوري: «ما عاجلت شيئًا أشد علي من نيتي لأنها تنقلب علي». فالمسلم بالنية يحول العادة إلى عبادة والعمل إلى صدقة يؤجر عليها.

قال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

وانظر إلى قصة هذا الرجل الذي صدقت نيته، فعن شداد بن الهاد أنّ رجلاً من الأعراب جاء النبي ﷺ فأمن به واتبعه ثم قال: أهاجر معك، فأوصى به النبي ﷺ بعض أصحابه، فلما كانت غزوة، غنم النبي ﷺ سببًا «فقسم وقسم له» فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهرهم فلما جاء دفعوه إليه فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك النبي ﷺ، فأخذه فجاء به النبي ﷺ فقال: ما هذا؟ فقال: «قَسَمْتُهُ لَكَ»، قال: ما على هذا أتبعتك، ولكن أتبعتك على أن أرمى هاهنا وأشار إلى حلقه بسهم، فأموت فأدخل الجنة، قال: «إِنْ تَصَدَّقَ اللَّهُ يَصْدُقْكَ» فَلَبِثُوا قَلِيلًا ثُمَّ نَحَضُوا فِي قِتَالِ الْعَدُوِّ فَأَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ يَحْمِلُ قَدِ أَصَابَهُ سَهْمٌ حَيْثُ أَشَارَ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَهُوَ هُوَ»، فقالوا: نعم، قال: «صَدَقَ اللَّهُ فَصَدَقَهُ»، ثم كَفَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَبْتِهِ ﷺ (1)، ثم قدّمه فصلى عليه (2) فكان مما ظهر من صلاته عليه: «اللَّهُمَّ هَذَا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهَاجِرًا فِي سَبِيلِكَ فَقَتِلْ شَهِيدًا أَنَا شَهِيدٌ عَلَيْهِ» (3).

فانظر حماك الله إلى النية الصادقة الخالصة كيف تنفع صاحبها وكيف تؤتي أكلها بإذن ربها، وكُنْ على ذكر من قول ابن رسلان:

وأخلص النية قبل العمل وائتت بها مقرونّة بالأول

(1) هذا فيه دليل لأهل السنّة والجماعة على جواز التبرك.

(2) الصلاة لغة الدعاء كما في قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى». وكما في قوله تعالى: {وَصَلِّ عَلَيْهِمْ} [التوبة: 103]، أي: ادع لهم. فالشافعية عندهم شهيد المعركة لا يصلى عليه إنما يدعى له بخلاف الحنفية.

(3) السنن الكبرى، النسائي، (433/2)، حديث (2091).

وأما الرياء فهو أن يقصد الإنسان بأعمال البر كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والحج والزكاة والصدقات والإحسان إلى الناس مدح الناس وإجلالهم له، فإذا زاد على ذلك قصد ميرة الناس له بالهدايا والعطايا كان أسوأ حالاً لأن ذلك من أكل أموال الناس بالباطل.

والرياء يجبط ثواب العمل الذي قارنه، فإن رجع عن ريائه وتاب أثناء العمل فما فعله بعد التوبة منه له ثوابه. فأبي عملٍ من أعمال البر دخله الرياء فلا ثواب فيه سواء كان جرّد قصده للرياء أو قرن به قصد طلب الأجر من الله تعالى، فلا يجتمع في العمل الثواب والرياء لحديث أبي داود والنسائي بالإسناد إلى أبي أمامة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: رأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ»، الحديث وقد تقدم.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاسْتَعْمِلِ الصِّدْقَ».

الشرح: يخرج لنا الإمام من جعبته الخيرة وصيبةً لألاءةً جديدةً واضحٌ نورها، وظاهرٌ نفعها، ألا وهي صدق اللسان. فالصدق من الأخلاق الكريمة التي أجمع على مر العصور والأزمان على اعتباره وفضله، وهو خلق من أخلاق الإسلام الرفيعة وصفة من صفات عباد الله المتقين، ولذلك فقد وصف الله نبيه ﷺ بأنه جاء بالصدق، قال تعالى: {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: 33]. كما أن التحلي بالصدق كان مما عرف به النبي ﷺ كما جاء في قصة أبي سفيان مع هرقل، وفيها أن هرقل قال لأبي سفيان: فماذا يأمركم؟ يعني النبي ﷺ، قال أبو سفيان: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول ءاباؤكم وبأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة⁽¹⁾.

كما أن الصدق سمة من سمات الأنبياء والمرسلين وجميع عباد الله الصالحين، قال تعالى عن خليله إبراهيم على نبينا وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا} [مريم: 41]. وقال عن إسحاق ويعقوب: {وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [مريم: 50]. وقال عن إسماعيل: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: 54]. وقال عن موسى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: 51]. وقال عن صحابة رسول الله الأخيار: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

(1) صحيح البخاري، البخاري، (8/1)، حديث (7).

فقد أنزل الله في شأن الصادقين معه آيات تتلى آثناء الليل وأطراف النهار. فقد ثبت عن أنس أنه قال: عمي الذي سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ بدرًا، قال: فشق عليه، قال: أول مشهدٍ شهده رسول الله ﷺ غيبت عنه، وإن أراي الله مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليراني الله ما أصنع، قال: فهاب أن يقول غيرها، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحدٍ، فاستقبل سعد بن معاذٍ، فقال له أنس: يا أبا عمرو، أين؟ فقال: واهًا لريح الجنة أجده دون أحدٍ، قال: فقاتلهم حتى قتل، فوجد في جسده بضعةً وثمانون من بين ضربةٍ وطعنةٍ ورميةٍ، فقالت أخته - عممي الربيع بنت النضر -: فما عرفت أخي إلا بينانه، ونزلت هذه الآية: {رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23]، قال: فكانوا يرون أنها نزلت فيه وفي أصحابه⁽¹⁾.

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بأن نتحلى بهذا الخلق العظيم وأن نكون مع الصادقين فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: 119]. وجاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»⁽²⁾.

وقد أمرنا المولى تبارك وتعالى بالتحلي والتخلُّق بالصدق لحكمٍ جمَّةٍ، ففيه الثمرات الفريدة وفيه الفوائد العديدة التي تعود على الصادقين في الدنيا والآخرة بالخير والنفع العظيم.

ومن فوائد وبركات ونتائج الصدق:

أولاً: الصدق طريقٌ إلى البر، والكذب طريقٌ إلى الفجور كما يشهد لذلك الحديث المتقدم.

ثانياً: انتفاء صفة النفاق عن الصادقين، ففي الصحيحين⁽³⁾ عن أنس ابن مالك رضي الله عنه: «إِيَّاهُ الْمُنَافِقُ⁽⁴⁾

ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِنَ خَانَ».

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1512/3)، حديث (1903).

(2) صحيح مسلم، مسلم، (21013/4)، حديث (2607).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (16/1)، حديث (33). صحيح مسلم، مسلم، (78/1)، حديث (107).

(4) أي: في العمل وليس معناه أنه كافرٌ خارجٌ من الإسلام.

ثالثًا: تفریح الكربات وإجابة الدعوات والنجاة من المهلكات كما يدل على ذلك قصة أصحاب الغار التي أخرجها البخاري⁽¹⁾، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةٌ نَفَرٍ مِّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَّأُوا إِلَى غَارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرْزٍ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَيُّ عَمَدَتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقْرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ فَسُقِّهَا، فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرْزٍ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقْرِ، فَإِنَّمَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ فَسَاقَهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ حَشِيَّتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ، فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبْوَانٍ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ ءَاتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَفَدَا وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغُونَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبُوَايَ فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِطَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدْعُهُمَا، فَيَسْتَكِنَا لِشَرِّبَتِيهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ حَشِيَّتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمْ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةٌ عَمٍّ، مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَيُّ رَاوَدْتَهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبْتُ، إِلَّا أَنْ ءَاتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمَكَّنْتَنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رَجُلَيْهَا، فَقَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفُضَّ الْحَاتِمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ حَشِيَّتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرِّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا».

وقال الربيع بن سليمان:

صَبْرٌ جَمِيلٌ مَا أَسْرَعَ الْفَرْجَا مَن صَدَّقَ اللَّهُ فِي الْأُمُورِ نَجَا

ونرى في سيرة السلف الصالح حرصهم الشديد على الصدق، فهذا الشيخ عبد القادر الجيلاني يقول: عقدت أمري منذ طفولتي على الصدق فخرجت من مكة إلى بغداد لطلب العلم، فأعطتني أمي أربعين دينارًا لأستعين بها على معيشتي وعاهدتني على الصدق، فلما وصلنا أرض همدان خرج علينا جماعة من اللصوص فأخذوا القافلة، وقال لي واحد منهم: ما معك؟ قلت: أربعون دينارًا، فظنَّ أنني أهزأ فتركني، وسألني ءاخر فقلت: أربعون دينارًا فأخذها مني كبيرهم، فقال لي: ما حملك على الصدق؟ فقلت: عاهدتني أمي على الصدق فأخاف أن أخون عهدها، فأخذت الخشية رئيس اللصوص فصاح وقال: أنت تخاف أن تخون

(1) صحيح البخاري، البخاري، (172/4)، حديث (3465).

أمك وأنا لا أخاف أن أخون عهد الله. ثم أمر برد ما أخذوه من القافلة وقال: أنا تائب على يدك، فقال من معه: أنت كبيرنا في قطع الطريق وأنت اليوم كبيرنا في التوبة فتابوا جميعاً بسبب الصدق.

رابعا: حسن العاقبة لأهله في الدنيا والآخرة، قال ﷺ: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا»⁽¹⁾.

خامسا: ثقة الناس بالصادقين وثناؤهم الحسن عليهم كما ذكر الله عز وجل ذلك عن أنبيائه الكرام: {وَجَعَلْنَا هُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا} [مریم: 50].

سادسا: البركة في الكسب والزيادة في الخير، فعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الْبَيْعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَنْفَرَقَا، فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَّا بُورِكَ لُهُمَا فِي بَيْعِهِمَا، وَإِنْ كَذَبَا وَكْتَمَا مُحِقَّتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا»⁽²⁾.

سابعا: راحة القلب وطمأنينة النفس، قال ﷺ: «دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيْبَةٌ»⁽³⁾.

ثامنا: التوفيق بإذن الله للخاتمة الحسنة وعليه قصة شداد بن الهاد التي مر ذكرها آنفاً.

تاسعا: الثناء في الملأ الأعلى، لقوله ﷺ: «حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا». وكلمة «عند» للتشريف، وليست لإثبات تحيز الله فوق العرش، لأن «عند» تستعمل لغير المكان، قال الله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَحَابٍ مَّنضُودٍ *مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ} [هود: 82، 83]، إما تدل «عند» هنا أن ذلك بعلم الله. وليس المعنى أن تلك الحجارة مجاورة لله تعالى في المكان. فمن يحتج بمجرد كلمة «عند» لإثبات المكان والتقارب بين الله وبين خلقه فهو من أجهل الجاهلين. وهل يقول عاقل إن تلك الحجارة التي أنزلها الله على أولئك الكفرة نزلت من العرش إليهم وكانت مكومة بمكان في جنب الله فوق العرش؟ حاشا لله، وتنزه عن قول الكافرين، فهو سبحانه موجودٌ أزلاً وأبداً بلا جهة ولا مكان، لا يتصف بالجسمية ولا بصفاتهما.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (25/6)، حديث (6094).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (64/3)، حديث (2110).

(3) سنن الترمذي، الترمذي، (668/4)، حديث (2518).

عاشراً: الفوز بالجنة والنجاة من النار، قال تعالى: { هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [المائدة: 119].

الحادي عشر: يفوز بمنزلة الشهادة إن طلبها بصدق، قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»⁽¹⁾.

وغير ذلك من فوائد وثمرات الصدق. اسأل الله أن يجعلنا من الصادقين في جميع أحوالنا وأقوالنا وأفعالنا، وأن يصر عنا الكذب ويجعلنا من الملتزمين بوصايا هذا الإمام.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاطْرَحِ الْكِبْرَ جَانِبًا».

الشرح: أمرٌ بالتواضع وحملٌ على حسن الخلق، ونهيٌ عن الأخلاق الرذيلة وأمراض القلوب. هذا ما تحمله لنا هذه الوصية التي سنخوض في استيفاء معناها وبيان مفادها وشرح مفرداتها ككشف مضمونها.

إنَّ الكبر شعورٌ خادع بالاستعلاء مصحوبٌ باحتقار أشخاصٍ والترفع عليهم، فهو مرضٌ قلبيٌّ وداءٌ نفسانيٌّ، قال تعالى: { إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ } [غافر: 56]. وما يظهر من أفعال المتكبر ترجمةٌ لهذه الانفعالات، وعليه فهو ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن خلق في النفس، والظاهر أعمال تصدر عن الجوارح، فالأصل هو الخلق الذي في النفس في رؤية فوق المتكبر عليه. وبه ينفصل الكبر عن العجب، فإنَّ العجب لا يستدعي غير المعجب بنفسه.

ثم إن التكبر سمة تظهر في أعمال المتكبر حتى تعلو كلامه وحركاته وسكناته، فيمنعه كثيراً نيل العلم وقبول الحق والانقياد له.

قال تعالى: { سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِعِزِّ الْحَقِّ } [الأعراف: 146]، وقال سبحانه: { كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ } [غافر: 35]، وقال سبحانه: { إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ } [النحل: 23].

وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ (2) مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةٌ مِنْ كِبْرٍ»⁽³⁾. والعبد الكامل يرى في طاعة الله سكينته وترتاض لعبادته سبحانه نفسه إذا علمها الخضوع والذل له سبحانه، قال تعالى: { إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُورُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا

(1) صحيح مسلم، مسلم، (1517/3)، حديث (1909).

(2) أي: مع الأولين.

(3) المستدرک، الحاكم، (78/1)، حديث (69).

بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} [السجدة: 15]، ووصف الله الصالحين في القرآن فقال سبحانه وتعالى: {فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ} [فصلت: 38]، وقال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} [الأعراف: 206]، وقال عز من قائل: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا} [الفرقان: 63]، وقال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ} [الحجر: 88].

وقد كان ﷺ مثلاً يُحْتَدَى به في تواضعه وسمته، أليس قد وصفته عائشة رضي الله عنها بأنَّ خُلُقَهُ القِرَاءَن؟ فهذا هو يخبر عن نفسه فيقول: «لَا أَكُلُ مُتَكَبِّرًا»⁽¹⁾ وكان يجلس ﷺ حيث انتهى به المجلس. وقال ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»⁽²⁾. وعن أنس رضي الله عنه قال: «كانت الأمة⁽³⁾ من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنتقل به حيث شاءت»⁽⁴⁾. وكان الرجل إذا دخل على أصحاب النبي ﷺ يسأل: أيكم محمد؟ وقد كان من تواضع النبي ﷺ أنه يبيت وقد ربط الحجر على بطنه من الجوع، وكان ينام على الحصر الحشن حتى يؤثر في جنبه ﷺ. وكان عليه الصلاة والسلام يقعد مع العبيد والأرقاء ويأكل معهم ويدعوهم إلى بيته، فيطعمهم ويشهد جنازتهم، ويعود مرضاهم، ويسلم على الصبيان في الطريق، ويخرج في قضاء حاجات الفقراء.

وهذا الصديق رضي الله عنه يودع جيش أسامة، وأسامة رضي الله عنه على فرسه وهو يسير على قدميه فيقول أسامة: لتركب أو لأنزل فيقول الصديق رضي الله عنه: وما لي لا أغرّ قدمي ساعة في سبيل الله. ثم يستأذن الخليفة أبو بكر رضي الله عنه أسامة في عمر فيقول: أتأذن لي بعمر أستعين به على أمور المسلمين.

وهذا عمر رضي الله عنه لبس ثيابه يوم الجمعة، وكان قد ذُبح للعباس فرخان، وكان للعباس ميزاب على طريق عمر، فلما وافى عمر الميزاب صبَّ ماء بدم الفرخين فأصاب عمر، فأمر عمر بقلعه - أي: الميزاب - ثم رجع فطرح ثيابه ولبس ثياباً غيرها ثم جاء وصلى بالناس ثم أتاه العباس فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ، فقال عمر للعباس: وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ ففعل ذلك.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (72/7)، حديث (5398).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (167/4)، حديث (3445).

(3) معناه الصغيرة التي لا تشتت.

(4) صحيح البخاري، البخاري، (20/8)، حديث (6072).

ويأخذنا الكلام إلى ذكرِ بعض أنواع الانحرافات الناتجة عن الكبر، فكثيراً ما يوصل الكبر إلى رفض الحقِّ وازدراء الآخرين وسوء الظنِّ بهم والكذب في مدح النفس وذكرها بما فيها وما ليس فيها، وسرعة الغضب، والانتقام وحب السيطرة والافتخار والرياء والمِرِّ ورَدِّ النصيحة.

وفي الختام نذكر العلاج منه: علاج الكبر يبدأ أولاً بالوعي بهذا الخلق المذموم وضرورة تعديله، ولهذا من المهم معرفة ضرر هذا المرض الخبيث ثم الاستعاذة بالله سبحانه منه. قال سبحانه: {إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ} [غافر: 56].

فإذا تغيرت نظرته للمرضي واتضح له حقيقته ووضع في موازين الإسلام للحكم عليه اجتهد بإذن الله للتخلص منه، وليكن على ذكرٍ من قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} [فاطر: 15]. ومن حديث النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْأَرْضِ لِلذُّلُولِ».

قال الغزالي⁽¹⁾: «فَهُوَ أَنْ يَعْرِفَ نَفْسَهُ وَيَعْرِفَ⁽²⁾ رَبَّهُ تَعَالَى وَيَكْفِيهِ ذَلِكَ فِي إِزَالَةِ الْكِبْرِ».

ومأً ينفع لتجنب الكبر أن يستحضر أن أوله نطفة مستقدرة وءاخره جيفة منتنة إلا ما حرم ربي، وأنه خرج من محل البول مرتين، مرةً من أبيه عندما كان نطفةً واستقرت في الرحم، ومرةً من أمه عندما وضعته من الموضع المحاذي لمخرج البول. ويتذكر أنه ضعيف عاجز تنتنه العرقه وتقتله الشرقة وتقلقه البقة، فلا يسيء شيئاً يتكبر بعد كلِّ هذا. وليذكر الموت والبلوى، وليتفكر في حاله بعد دفنه، كيف أن البطن ينفجر، والعيون تسيل على الخدود، ويخرج منه القيح والدم والصدید، وتأكله الأفاعي والديدان والحشرات مع الظلمة الشديدة في القبر والرائحة النتنة والتنام الأرض وهو في بيت الوحشة والوحدة في رعبٍ وقلقٍ. وخوفٍ وضعفٍ وعجزٍ لا يستطيع أن يدفع شيئاً من ذلك عن نفسه إلا من نجاه الله وسلمه وحفظه من ذلك.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وإِيَّاكَ وَالْغَدْرَ، وَإِنْ غَدَرُوا بِكَ».

الشرح: شارف الإمام على إنهاء وصاياه ولم ينسَ تذكير تلميذه بأمرٍ عظيمٍ يقبح الاتصاف به ويحسن التخلُّق بضده، ألا وهو الغدر.

جاءنا الإسلام الحنيف بمدح الأخلاق الحسنة ودعوة الناس إلى التخلُّق بما وذمَّ الأخلاق القبيحة، وتحذير الناس منها.

(1) الإحياء، الغزالي، (358).

(2) معرفة الله تكون معرفة ما يجب له من كونه سبحانه ليس جسماً ولا يتصف بصفات الجسمية وأنه أزلي أبدي موجود بلا جهة ولا مكان، منزه عن الجلوس والقعود وكل صفات المخلوقين ومعاني المحدثين، مع تنزيهه عن كلِّ ما لا يليق به سبحانه.

ومن أخطر الأخلاق الفاسدة ما كان ناتجاً عن فساد القلب، لأنَّ صاحبه يكون سيئ النية، خبيث الطوية، ولذا حدَّ القراء من المنافقين ومن الاتصاف بصفاتهم لأنهم أهل غدرٍ وخيانة، قال تعالى: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} [المنافقون: 4].

والغدر صفة ذميمة خسيصة يتصف بها من هو عاجزٌ عن مواجهة خصومه، فيغدر بهم في الخفاء ويخونهم وهم يأمنونه، وقد عدَّد النبي ﷺ بعض صفات المنافق في العلم فقال: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا أَوْ كَانَتْ فِيهِ خَصَلَةٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فِيهِ خَصَلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»⁽¹⁾.

والغدر أخو الخيانة، وقد نهي الله عنهما فقال تعالى: {وَإِنَّمَا تَخَافَنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ} [الأنفال: 58]، وفي آيةٍ أخرى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ حَوَآنًا أَيْمًا} [النساء: 107].

وفي الحديث القدسي قال ﷺ: «قَالَ اللَّهُ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: رَجُلٌ أُعْطِيَ بِي (2) ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ خُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَمَنْ يُعْطِ أَجْرَهُ»⁽³⁾.

وفي الحديث الشريف: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَعْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا»، الحديث⁽⁴⁾.

وحين زكى النبي أصحاب القرون الثلاثة الأولى بيَّن ما يقع بعدهم من انتشار الغدر والخيانة فقال: «ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَجُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ»⁽⁵⁾.

وأهل الغدر مفضوحون يوم القيامة كما قال النبي ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ عَادِرٍ لَوَاءٌ، فَيَقِيلُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بِنِ فُلَانٍ»⁽⁶⁾.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (131/3)، حديث (2459). قال النووي: الصحيح المختار أن معناه أن هذه الخصال خصال نفاقٍ وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصالٍ ومتخلفٌ بأخلاقهم، فإنَّ النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه، وهذا المعنى موجودٌ في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدَّته ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافقٌ في الإسلام فيظهره ويبطن الكفر، ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنه منافقٌ نفاق الكفار المخدئين في الدرك الأسفل من النار.

(2) وفي رواية: «أُعْطِيَ بِي الْعَهْدُ».

(3) صحيح البخاري، البخاري، (82/3)، حديث (2227).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1357/3)، حديث (1731).

(5) صحيح البخاري، البخاري، (91/8)، حديث (6428).

(6) صحيح مسلم، مسلم، (1359/3)، حديث (1735).

ومهما ظنَّ الخائن الغدار أنه يدرك بالعدر والخيانة غايته ويحقق هدفه فهو مخطئٌ، إذ يرتدُّ عليه سوء عمله، وقد يخونه من خان لأجلهم، وقد يغدرون به كما غدرَ هو بغيره لهم، وشواهد ذلك من التاريخ، ومن الواقع المشاهد كثيرةٌ جداً.

والأصل في أهل الكفر أنهم يخونون ولا يؤمنون، ويغدرون ولا يفون، ولذا انتشر في مذاهبهم بزعمهم أن الغاية تسوغ الوسيلة، وانظر إلى تحذير القران من الكفار الغدارين الخونة، قال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} *الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ} [الأنفال: 55، 56]، وفي آيةٍ أخرى: {وإن يُريدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الأنفال: 71].

وقد روي عن عمر رضي الله عنه قال: لا تأمنوهم إذ خوَّهم الله عزَّ وجلَّ.

وانظر إلى مثالين ضربهما القران في امرأتين عاشتا عند نبيين فقال الله تعالى: {ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا} [التحریم: 10]، فكانتا تتجسسانِ على النبيين الكريمين، ولم تكن خيانتهمما بالزنا، ولذا قال ابن عباس رضي الله عنه: «ما زنت امرأة نبي قط».

ونذكر كيف أن اليهود خانت النبي ﷺ ولم يفوا بعهدهم، وكذا كفار مكة لما عقدوا الصلح مع النبي ﷺ في الحديبية لم يمكنوا على عهدهم إلا يسيراً حتى نقضوه، فجاء الفتح والله الحمد. نسأل الله السلامة.

وفي الحديث: «وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِنَسْتِ الْبِطَانَةِ»⁽¹⁾.

قال المناوي: «فَإِنَّهَا بِنَسْتِ الْبِطَانَةِ: بالكسر، أي: بئس الشيء الذي يستبطن من أمره ويجعله بطانة».

فيا أيها القارئ أنت ترى حين تنحرف بعض النفوس عن هدى مولاها، وتعمى عن الحق بصائرهما كيف يستमित أصحابها في نشر باطلهم ويركبون سبلاً لتحقيق أهدافهم، نسأل الله السلامة.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَدِّ الْأَمَانَةَ وَإِنْ خَانُوكَ».

الشرح: قارن الإمام بين الأمانة والخيانة وقابل بينهما مرعياً بالأولى ومنقراً من الثانية وقد تقدم الكلام على الغدر وهو والخيانة في وادٍ واحدٍ.

لقد وصف الله تعالى المؤمنين الصالحين الذين كتب الله سبحانه لهم الفلاح والرشاد في الدنيا والآخرة بأنهم يرعون أماناتهم ويؤدونها حق الأداء. قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: 8].

(1) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (1113/2)، حديث (3354).

يقول القرطبي: «والأمانة تعمُّ جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال».

والأمانة هي أداء الحقوق والمحافظة عليها، فالمسلم الكامل يعطي كلَّ ذي حقِّ حَقَّهُ، يؤدِّي حقَّ الله ويحفظ جوارحه عن الحرام ويؤدِّي ما عليه تجاه الخلق.

والأمانة حُلُقٌ جليلٌ من أخلاق الإسلام، وأساسٌ من أسسه، وانظر إلى قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا} [الأحزاب: 72].

ولقد أمرنا الله تعالى بأداء الأمانات فقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا} [النساء: 58].

والأمانة صفةٌ مميزةٌ لأصحاب الرسالة، فقد كان كلُّ منهم يقول لقومه: إني لكم رسولٌ أمين. ولقد اتصف النبي ﷺ منذ صغره ولُقِّبَ بين قومه بالصادق الأمين، هذا ومع عداوة الكفار له لم ينفوا عنه هذه الصفة كما جاء في حوار أبي سفيان وهرقل حيث قال هرقل: سألتك هل يغدر؟ فزعمت أنه لا يغدر، وكذلك الرسل لا تغدر.

ولقد جعل الرسول ﷺ الأمانة من أسباب كمال الإيمان، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه أن النبي قال: «لا إيمان — أي كامل — لمن لا أمانة له».

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعٌ إِذَا كُنَّ فِيكَ فَلَا عَلَيْكَ مَا فَاتَكَ مِنَ الدُّنْيَا: حِفْظُ أَمَانَةٍ، وَصِدْقُ حَدِيثٍ، وَحُسْنُ خَلِيقَةٍ، وَعِفَّةٌ فِي طُعْمَةٍ»⁽¹⁾.

وكانت من أواخر وصايا النبي ﷺ في حجة الوداع الوصية بالأمانة، فقال: «وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَىٰ مَنْ انْتَمَنَتْ عَلَيْهَا»، وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟»، ثُمَّ قَالَ: «لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْعَائِبَ، فَإِنَّهُ رُبُّ مُبَلِّغٍ أَسْعَدُ مِنْ سَامِعٍ»⁽²⁾.

وقد جعل النبي ﷺ من علامات الساعة عند فساد الزمان نزع الأمانة من قلوب الرجال، فعن حذيفة قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ثم نزل القرآن فعملوا من القرآن وعلموا من السنة، ثم حدثنا عن رفع الأمانة قال: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةَ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَطْلُ أَثَرَهَا مِثْلَ

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (233/11)، حديث (6652).

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (300/34، 301)، حديث (20695).

أَثَرَ الْوَكْتِ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ فَيَبْقَى فِيهَا أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَرِ الْمَجْلِ، كَجَمْرِ دَخَرْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِراً وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبِعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ قَلْبٍ مَثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ»، ولقد أتى عليّ زمان، ولا أبالي أيكم بايعت، لئن كان مسلماً رده علي الإسلام، وإن كان نصرانياً رده علي ساعيه، وأما اليوم: فما كنت أبايع إلا فلاناً وفلاناً⁽¹⁾.

والأمانة أنواع:

1- الأمانة في العبادة: فمن الأمانة أن يلتزم المسلم بالتكاليف فيؤدي فروض الدين كما ينبغي ويحافظ على الصلاة والصيام والزكاة وير الوالدين وغير ذلك.

2- الأمانة في حفظ الجوارح: فعلى المسلم أن يحافظ على جوارحه بأن لا يستعملها فيما يغضب الله سبحانه. فالعين عليه أن يعضها عن الحرام، والأذن يجنبها سماع الحرام، فعنه ﷺ: «الْعَيْنُ تَزِينُ⁽²⁾، وَالْقَلْبُ يَزِينُ، فَرْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَرْنَا الْقَلْبَ التَّمْيِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَالِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ»⁽³⁾.

3- الأمانة في الودائع: ومن الأمانة حفظ الودائع وأداؤها لأصحابها عندما يطلبونها كما هي مثل ما فعل الرسول ﷺ مع المشركين، فقد كانوا يتركون ودائعهم عند الرسول ﷺ ليحفظها لهم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»⁽⁴⁾.

4- الأمانة في العمل: ومن الأمانة أن يؤدي المرء ما عليه على خير وجه، والعامل التقى يتقن عمله ويؤديه بإجادته وأمانته.

5- الأمانة في البيع والشراء: فالمسلم الكامل لا يغش ولا يغدر ولا يخون، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ برجلٍ يبيع طعاماً فأعجبه فأدخل يده فيه فإذا هو طعامٌ مبلول فقال النبي ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ عَشَّ»⁽⁵⁾، أي: ليس على طريقتنا الكاملة.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (52/9)، حديث (7086).

(2) أي: أغلب العيون، ولا يدخل في هذا الحديث (عيون الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فهم معصومون من الكفر والكبائر وصغائر الحسة كالنظرة المحرمة قبل النبوة وبعدها).

(3) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (96/14)، حديث (8356).

(4) صحيح البخاري، البخاري، (115/3)، حديث (2387).

(5) سنن ابن ماجه، ابن ماجه، (749/2)، حديث (2224).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: اتيني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيداً، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلاً، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركباً يركبها يقدّم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركباً، فأخذ خشباً فنقرها، فأدخل فيها ألف دينارٍ وصحيفةً منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر⁽¹⁾، فقال: اللهم إنك تعلم أنني كنت تسأل فلاناً ألف دينارٍ، فسألني كفيلاً، فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بك، وسألني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأتني شهيداً، فقلت: كفى بالله شهيداً، فرضي بك، وأتني جاهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتبس مركباً يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشب التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار⁽²⁾، فقال: والله ما زلت جاهدت في طلب مركب لاتيك بمالك، فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلى بشي؟ قال: أخبرك أنني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشب فأنصرف بالألف الدينار راشداً⁽³⁾.

6- الأمانة في حفظ الأسرار: فالمسلم الأمين يحفظ سرّ أخيه ولا يخونه ولا يفشي أسراره، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»⁽⁴⁾.

7- الأمانة في الكلام: ومن الأمانة أن يلتزم المسلم بالكلمة الجادة فيعرف قدر الكلمة وأهميتها، فالكلمة قد تدخل صاحبها الجنة، وقد تدخله النار، وأخص بكلامي هؤلاء المدرسين فقلّ من يفتي بعلم، قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * نُؤْتِي أَسْفَلَ كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ } [إبراهيم: 24 - 26].

(1) وهنا تنبيه أن الرجل غلب على ظنّه سلامة المال وعدم تلفه.

(2) هذا لأنه لم يتحقق أن تلك الألف وصلته.

(3) صحيح البخاري، البخاري، (95/3)، حديث (2291).

(4) صحيح مسلم، مسلم، (1061/2)، حديث (1437).

وعن معاذ بن جبل قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يوماً قريباً منه ونحن نسير، فقلت يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار، قال: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَيَّ مَنْ يَسِرَّهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْحَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثُمَّ قَرَأَ: {تَتَجَافَى جُنُوهُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ حَتَّى بَلَغَ {يَعْمَلُونَ} [السجدة: 16، 17] ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرُوعِ سَنَامِهِ؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرُوعُهُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» فقلت له: بلى يا نبي الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ فَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا رسول الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخِدُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال: «تَكَلَّمْتَ أُمَّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِمْ» أَوْ قَالَ: «عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا خَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»⁽¹⁾.

اللَّهُمَّ طَهِّرْ قُلُوبَنَا مِنَ النِّفَاقِ وَعَمَلْنَا مِنَ الرِّيَاءِ وَأَلْسِنَتَنَا مِنَ الْكُذْبِ وَأَعْيِينَا مِنَ الْخِيَانَةِ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَمَسَّكَ بِالْوَفَاءِ».

الشرح: قال بنا الحديث في هذا الكتاب القيم إلى الكلام على خلق زان صاحبه وشان فاقده، خلق إذا انتشر بين الأجابة ملاً حياتهم صفاءً ونقاءً، وظللهم بالمودة والإخاء والمحبة والألفة. وقد فهم مما تقدم الأمر به إذ نحى الإمام عن ضده. إنه الوفاء! ما أجمله من خلقٍ وما أرقها من خصلة، وما أسماها من صفة. الوفاء خلقٌ جميل وكنزٌ ثمين. والوفاء لغةً ضد الغدر، يقال: وفي بعهدته وأوفى إذا أتمه ولم ينقض حفظه. وفي الاصطلاح هو حفظ للعهد والوعد وأداء للأمانات، واعتراف بالجميل، وصيانة للمودة والمحبة. روي عن الأصمعي قال: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخوانه وبكائه على ما مضى من زمانه.

والوفاء خلقٌ قلٌّ من يتخلَّق به في زماننا، ولقلة وجود ذلك في الناس قال تعالى: {وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ}

[الأعراف: 102].

(1) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (344/36، 345)، حديث (22016).

وقد ضرب به المثل في العزة والندرة فقالت العرب: هو أعزُّ من الوفاء.

يقول الله سبحانه وتعالى ءامراً به: {وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام: 152]، وانظر إلى ما ورد في القرآن في حقه سبحانه، يقول أصدق القائلين: {وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ} [التوبة: 111]، ويقول سبحانه: {وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 6]، وقال عزَّ شأنه: {لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ} [الزمر: 20]، وقال عزَّ وجلَّ: {إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: 9].

والوفاء من صفات المرسلين، فقد قال تعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَىٰ} [النجم: 36 - 41]، وقال تعالى: {وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا * وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا} [مریم: 54، 55].

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: أخبرني أبو سفيان أن هرقل قال له: سألتك ماذا يأمركم - أي: النبي ﷺ -، فزعمت أنه أمركم بالصلاة والصدق والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، قال: وهذه صفة نبي.

تنبيه مهم: ظاهر هذه الآية: أنَّ الإنسان لا ينتفع بعمل غيره، وهذا الظاهر غير مراد بالآية قطعاً، إذ المسلم ينتفع بدعاء غيره مطلقاً. وقد ثبت في «الصحيح» الحج عن الميت، وعن المريض الذي لا يمكنه السفر إلى الحج ولا يرجى شفاؤه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع، قالت: يا رسول الله إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على الراحلة فهل يقضي عنه أن أحج عنه؟ قال: «نَعَمْ»⁽¹⁾.

وفي صحيح البخاري⁽²⁾ ومسلم⁽³⁾ أن رسول الله قال: «مَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ صِيَامٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ».

وصلاة الجنازة على الميت ينتفع بها الميت.

وهناك الكثير من الأحاديث الصحيحة تفيد أن المسلم ينتفع بعمل غيره، والله أعلم.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (18/3)، حديث (1854).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (359/3)، حديث (1952).

(3) صحيح مسلم، مسلم، (803/2)، حديث (1147).

تنمة: والوفاء من سمات المؤمنين المتقين، فقد قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ بَعْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 177]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ} [المؤمنون: 8].

وفي رأس ذلك كله أن تقضي الله حقه، فإنه سبحانه أحق بالوفاء، وذلك يكون بطاعته وعبادته وتوحيده⁽¹⁾ وتمجيده وتنزيهه وتقديسه عن سمات المحدثين وصفات المخلوقين.

وورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنّ امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إنّ أُمّي نذرت أن تحجّ فلم تحجّ حتى ماتت، أفأحجّ عنها؟ قال: «نعم حُجّي عنها، أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَيَّ أَمْرٌ أَنْ أَكُنْتُ قَاضِيَةً؟ اقضُوا اللهَ فاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ»⁽²⁾.

فإنّ الله سبحانه قد أخذ على ذرية آدم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، قال الله في كتابه العزيز: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} [الأعراف: 173].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: لَأَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ كُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَقَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»⁽³⁾. قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} [يس: 60، 61].

(1) اعلم أنّ أعظم حقوق الله تعالى على عباده هو توحيدُه تعالى وأن لا يُشرك به شيءٌ، لأنّ الإِشْرَاقَ بالله هو أكبرُ ذنْبٍ يقترِفُه العبدُ وهو الذَّنْبُ الذي لا يغفرُه الله ويغفرُ ما دُونَ ذَلِكَ لمن يشاء. قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ} [النساء: 48]. وكذلك جميع أنواع الكُفْرِ لا يغفرها الله لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ} [محمد: 34]. وقد قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ عيسى عبد الله ورسوله وكلّمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حقّ والنار حقّ أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»، رواه البخاري ومسلم. وفي حديثٍ آخر: «فإنّ الله حَرَمَ على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله». رواه البخاري. ويحبّ قرن الإيمان برسالة محمدٍ بشهادة أن لا إله إلا الله وذلك أقلُّ شيءٍ يحصلُ به النجاة من الخلود الأبديّ في النار.

(2) صحيح البخاري، البخاري، (18/3)، حديث (1852).

(3) صحيح البخاري، البخاري، (133/4)، حديث (3334).

فمن أطاع ربّه والتزم بشرعه وامتثل أمره واجتنب نهيّه ووقف عند حدوده كان من أهل الوفاء مع الله سبحانه الذي أوجده من العدم وأحياه بالنعم وكرّمه وأمره أن يعبدّه وحده دون سواه، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56].

وقال تعالى: {مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا} [الأحزاب: 23].

فأين الوفاء مع الله ممن ينتهك الحرمات ويواقع المنكرات.

أين الوفاء مع الله ممن فرط في طاعة الله فضيّع فرائضه واعتدى على حدوده.

وفي سنام ذلك كلّ الوفاء لرسول الله ﷺ. هذا الرسول الذي بذل كلّ وسعٍ وتحمل كلّ عناء من أجل أن يبلغ للعالمين رسالته، ما من خيرٍ إلا ودلّ الأمة عليه، وما من شرٍّ إلا وحّدّر الأمة منه، بيّن لنا الطريق وأثار لنا السبيل وتركنا على المحجة البيضاء الناصعة الواضحة، لا يزيغ عنها إلا هالك.

فأين الوفاء منّا لرسول الله ﷺ؟ أين نحن من سنته وهديه وشريعته؟ فالوفاء مع الرسول ﷺ يكون باتباع سنته والتخليق بأخلاقه والافتداء به والدفاع عن دينه وعقيدته، والاحتفال بمولده ﷺ أليس داخلًا في هذا؟! بلى والله.

وقد كان الأنصار أوفياء مع الرسول ﷺ، فقد قال عوف بن مالك رضي الله عنه: كنّا مع النبيّ ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ فبسطنا أيدينا، فقلّت: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: «عَلَىٰ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَالصَّلَاةِ الْحَمْسِ، وَتُطْعَمُوا - وَأَسْرَ كَلِمَةً خَفِيَّةً - وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فلقد رأيت بعض أولئك نفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا يناوله إياه⁽¹⁾.

وقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه وفيًا، فعن جابر رضي الله عنه قال: «لَوْ جَاءَ مَالُ الْبَحْرَيْنِ أُعْطِيْتُكَ هَكَذَا» ثلاثًا، فلم يقدّم - أي لم يجيء - حتى توفي النبي ﷺ، فأمر أبو بكر منادياً فنادى من كان له عند النبي ﷺ عدةً أو دينٌ، فليأتنا، فأتيته، فقلت: إن النبي ﷺ وعدني فحسب - أي: أبو بكر رضي الله عنه - لي ثلاثًا⁽²⁾.

(1) صحيح مسلم، مسلم، (721/2)، حديث (1043).

(2) صحيح البخاري، البخاري، (96/3)، حديث (2297).

وكذلك فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع سراقه بن مالك رضي الله عنه، ففي حادثة الهجرة تبع سراقه النبي ﷺ وأبا بكر فقال له النبي ﷺ: «عُدْ يا سراقه ولك سوارًا كسرى»، فقبض النبي ﷺ، وفي خلافة عمر رضي الله عنه بعد فتح المدائن جاء سوارًا كسرى لعمر فنادى سراقه وكان قد أسلم وألبسه إياهما وقال: هذا ما وعدك به رسول الله ﷺ.

وهناك أنواعٌ من الوفاء، منها الوفاء مع العلماء وذلك باحترامهم وتوقيرهم والتواضع لهم والدعاء لهم والافتداء بهم والتعلم على أيديهم، {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43، والأنبياء: 7].

ومن أجهل الأمثلة للوفاء مع العلماء وفاء أبي حنيفة لشيوخه، فقد كان رضي الله عنه يدعو لشيخه حماد بن أبي سليمان مع أبيه في كل صلاة يصلبها، وكان يحفظ له ودّه، ويذكره دائماً ويترحم عليه ولا ينسى له فضله، يذكره بالخير ويثني على فضله وينوّه بأثره فيه ويدعو له حتى قال رضي الله عنه: ما صليت قط إلا ودعوت لشيخي حماد ولكل من تعلمت منه علماً أو علمته. وكان الإمام أحمد رضي الله عنه يكثر من الدعاء للشافعي رضي الله عنه، فسأله ابنه عبد الله قائلاً: يا أبت، أي شيء كان الشافعي؟ فإني يمعنتك تكثر من الدعاء له، فقال: يا بني، كان الشافعي رضي الله عنه كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فهل لهدين من خلف أو منهما عوض؟

والوفاء مع الوالدين أمرٌ عظيم، فإنّ لهما فضلاً عظيماً وحقاً كبيراً على أبنائهم، إذ لا يخفى ما يبذله الوالدان من غالٍ ونفيسٍ، وما يتحملانه من نصيبٍ وتعيبٍ في سبيل نشأة أبنائهم وتربيتهم ورعايتهم.

فإن كان الوالدان على غير الإسلام فأحسن معاملتك معهما على الله يشرح صدرهما للإسلام بما يرون من فع حسنٍ منك.

وإن كانا على الإسلام فأطعهما في غير معصية الله، وتواضع لهما وأحسن إليهما، وادع لهما في حياتهما وبعد موتهما، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} [لقمان: 14].

ولا يفوتنا ذكر الوفاء بين الأزواج، فوفاء الزوج لزوجته يكون باحترامها وتقديرها والوفاء بما اشترطه على نفسه لها، ففي الحديث: «أَحَقُّ الشُّرُوطِ (1) أَنْ تُوفُوا بِهِ مَا اسْتَحْلَلْتُمْ بِهِ الْفُرُوجَ» (2). ووفاء الزوجة لزوجها يكون بطاعته في غير معصية الله واحترامه وتقديره والوقوف إلى جانبه في عسره ويسره وعدم نكران فضله وجحود عطائه.

(1) أي: من أحقها.

تنبيه: ليس من خيانة الزوج لزوجته أن يتزوج غيرها بعد موتها أو في حياتها كما يقول السفهاء الجهلاء، فهذا علي رضي الله عنه تزوج بعد موت السيدة فاطمة رضي الله عنها وهي بنت رسول الله ﷺ وأم السبطين وجدة الأقطاب والأولياء وحببية الله وحببية أبيها رسول الله ﷺ، الذي كان من حبه لها كان إذا دخلت عليه يقوم لها، فهذه ليست خيانة من سيدنا علي رضي الله عنه لسيدتنا فاطمة رضي الله عنها.

وليس من خيانة الزوجة لزوجا أن تتزوج غيره بعده إذا مات ومضت عدتها، فليتنبه لذلك.

فبسبب تأثر بعض الناس اليوم بعبادات الكفار وبأعمال المخنثين الفاسقة الفاجرين وبسبب الأفلام والتمثيليات والمسلسلات والتلفزيونات صار البعض يقول لمن تزوج مرة ثانية: هذه خيانة، أو يقولون: جهلة الأربعين، أو يقولون: لا يحق له، وهذا معارض للدين، مخالف للقرآن، والذي أوقعهم في هذا الهلاك والفساد الكبير هو تركهم للتعاليم الإسلامية واتباعهم لعادات غير المسلمين.

وللوفاء فوائد منها:

1- محبة الله تعالى: قال عز وجل: {بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 76].

2- الأجر العظيم: قال الله تعالى: {وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: 10].

وانظر رحمك الله إلى صفة المؤمنين الكمل، قال تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد: 19].

فليعلم العبد أنه سيسأل عن وفائه يوم القيامة، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: 34]، فماذا يكون جواب العبد إذا سئل عن وعوده وعهوده وعقوده التي أمر الله بالوفاء بها وأدائها، قال سبحانه: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اللَّهَ إِذَا عَاهَدْتُمْ} [النحل: 91]، وقال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: 1].

فماذا يكون جواب العبد إن أخلف وعده وضيع عهده وخان أمانته؟

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاعْتَصِمِ بِالتَّقْوَى».

الشرح: ودَّع الإمام تلميذه بما وصَّى به النبي ﷺ معاذًا حين قال له: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ»⁽¹⁾. وقد أحبَّ الإمام أن

يذكر في خواتيم وصاياه الاعتصام بالتقوى ليركِّز في نفس تلميذه أهميتها.

وقد خاض العلماء سابقًا في الكلام على التقوى حتَّى أُلِّفوا فيها التآليف، لذا سيكون كلامنا نحن عن التقوى من

ناحيتين:

الأولى: أهميتها. والثانية: ثمراتها.

وقبل الشروع في ذلك فلنقدِّم بتعريف التقوى ثمَّ بأقوال وردت فيها: أما عن تعريفها فهي أداء الواجبات واجتناب

المحرمات. وقد روي عن سيدنا عمر رضي الله عنه أنه فسَّر التقوى بالاستقامة، فقال: أن لا تروغ روغان الثعلب، ومعناه أن

تستقيم ظاهرًا وباطنًا على تقوى الله.

وورد عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: التقوى هي الخوف من الجليل والعمل بالتنزيل والقناعة بالقليل والاستعداد

ليوم الرحيل.

وروي عن ابن مسعود في تفسير قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ }

[إعال عمران: 102] قال: «أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى وأن يشكر فلا يكفر».

وقيل: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تخاف

عقاب الله.

وقيل: المتقون تنزهوا عن أشياء من الحلال مخافة أن يقعوا في الحرام فسامهم الله متقين، أي زيادة على تجنب الحرام

يبتعدون عن الشبهات ويتورعون مع التزام الواجبات.

وكبيرها	فهل الذنوب	صغيرها
ض الشوك	يحد ما يرى	لا تحقِّرنَّ
إِنَّ الجبال	مِن الحصى	صغيرة

أهمية التقوى:

قد تكاثرت الأدلة في بيان أهمية التقوى وكيفي في بيان أهميتها:

(1) سنن الترمذي، الترمذي، (355/4)، حديث (1987).

1- أمر الله بها عباده حيث قال تعالى: { يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا

أَنَا فَاتَّقُونِ } [النحل: 2]، وقال تعالى: { وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [المؤمنون: 52].

وقال تعالى: { لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ } [الزمر: 16].

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } [آل عمران: 102].

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } [النساء: 1].

وقال تعالى: { وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ } [النساء: 131].

2- ووصية الأنبياء لقومهم:

قال تعالى: { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ⁽¹⁾ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 106].

وقال تعالى: { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 124].

وقال تعالى: { إِذْ قَالَ لَهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 142].

وقال تعالى: { إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 161].

وقال تعالى: { إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ } [الشعراء: 177].

وقال تعالى: { وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [العنكبوت: 16].

من ثمرات التقوى:

1- محبة الله تعالى: قال الله تعالى: { إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ

عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ مُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: 4]، وقال تعالى: { بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 76].

2- رحمة الله في الدنيا والآخرة: قال تعالى: { وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأنعام: 155].

(1) هذه الأخوة هي الأخوة القومية أي الذين هو من قومهم وهم قومه الذي أرسل إليهم، وليس أخوة الدين، فهؤلاء أنبياء وأقوامهم كفار. وأما أخوة

الدين فهي ما جاء في قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } [الحجرات: 10].

3- سبب لعون الله ونصرته وتأبيده: قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ } [النحل: 128]، وقال تعالى: { وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ } [التوبة: 36].

4- الأمان والنجاة: قال تعالى: { يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [الأعراف: 35]، وقال تعالى: { وَيُتَجِّى اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } [الزمر: 61].

5- تبعث في القلب النور: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرُسُولِهِ ⁽¹⁾ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [الحديد: 28].

6- القوة على الشيطان: قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ } [الأعراف: 201].

7- وسيلة لنيل الأجر العظيم: قال تعالى: { وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ } [آل عمران: 179].

8- الرزق: قال تعالى: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ } [الأعراف: 96].

9- تفريغ الكرب وتيسير الأمور: قال تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ } [الطلاق: 2]، وقال تعالى: { وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا } [الطلاق: 4]، وقال تعالى: { فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى * وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى } [الليل: 5 - 6].

10- النصر على الأعداء وردّ كيدهم والنجاة من شرهم: قال تعالى: { إِنْ تَسْتَشْكُمُ حَسَنَةً تَشْكُمُهَا وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ } [آل عمران: 120]، وقال تعالى: { تَبَىٰ إِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ } [آل عمران: 125]، وقال تعالى: { وَوَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ } [فصلت: 18].

11- العاقبة للمتقين: قال تعالى: { قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [الأعراف: 128]، وقال تعالى: { تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعِيبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ

(1) معناه: اثبتوا على الإيمان بالله ورسوله.

قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ { [هود: 49]، وقال تعالى: { تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } [القصص: 83]، وقال تعالى: { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ } [الرعد: 35]، وقال تعالى: { زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [البقرة: 212].

12- انتفاعهم بالموعظة وتأثرهم بالذكر وتفكرهم بالآيات واهتدائهم بها: قال تعالى: { وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [المائدة: 46]، وقال تعالى: { فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيَّنَّ يَدِيهَا وَمَا خَلَفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 66]، وقال تعالى: { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ } [آل عمران: 138]، وقال تعالى: { وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ } [النور: 34]، وقال تعالى: { ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ } [البقرة: 2]، وقال تعالى: { وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ } [الحاقة: 48].

13- صفة لأولياء الله وطريق لولايته سبحانه: قال تعالى: { أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * هُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [يونس: 62 - 64].

14- العبرة عند الله بما: قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: 13].

15- أفضل ما يتزود به: قال تعالى: { وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ } [البقرة: 197].

16- القراءة بشرى للمتقين: قال تعالى: { فَإِنَّمَا يَسْتَرْزَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا } [مريم: 97].

17- الأتقياء لا يتعادون يوم القيامة: { الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ } [الزخرف: 67].

18- صفة الأنبياء ومن اتبعهم اتباعًا كاملاً: قال تعالى: { وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } [الزمر: 33].

19- سبب لنجاة العبد يوم القيامة: قال تعالى: { ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا } [مريم: 72].

20- النعيم الخاص في الجنة الذي لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل: قال ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي

الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ دُخْرًا بَلْهَ مَا أَطْلَعْتُمْ عَلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: {فَلَا

تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [السجدة: 17] (1).

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَعَاشِرُ أَهْلِ الْأَدْيَانِ حَسَبَ مَعَاشِرَتِهِمْ لَكَ».

الشرح: في هذه الوصية من الإمام لتلميذه الذي أعدّه وتعب عليه إلى أن خرّجه داعيةً يعتمد عليه في نشر الدين

والإسلام ومكافحة المنكرات بأنواعها يؤكّد عليه أن يحاط غير المسلمين وأن يعاملهم إن كان يرجو منفعةً ومصلحةً للمسلمين

وللدين، إما بتقريبهم من الدين لفوائد عديدة، منها أنهم قد يسلمون إذا رأوا حسن معاملة المسلمين من الصدق والأمانة وحفظ

العهود والوعود ومحبة الخير للغير وبذل المعروف للناس والصبر على تحمّل أذاهم، وبهذه المعاملة الراقية والأخلاق الحميدة التي جاء

الإسلام بها وحضّ عليها أسلم كثيرٌ من اليهود والنصارى والمشركين من غير أهل الكتاب ومن جميع فرق الكافرين. فهذه بلاد

أندونيسيا وماليزيا الشاسعة الواسعة دخلها الإسلام بسبب أخلاق وصدق وأمانة التجار المسلمين، حيث رأى أهلها من المسلمين

ما يحبّهم ويرغبهم بالإسلام فأسلموا. وكثير من البلاد دخلها الإسلام بسبب أخلاق الأولياء والصالحين والتجار وعامة المسلمين.

ومن فوائد وثمرات نصيحة الإمام لتلميذه «وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم لك» أنّ من كان من غير المسلمين

ورأى هذه الأخلاق التي تكلمنا عنها إن لم يُسلم فقد يحجم عن الإضرار بالمسلمين وإلحاق الأذى بهم، فيخفّف من شرّه وضرره لما

يرى من حسن معاملتهم.

فالإسلام لا ينهانا عن الإحسان لغير المسلمين، ولا ينهانا عن معاشرتهم ومخالطتهم مع التزامنا بأحكام ديننا.

ثم إنّ مخالطة العالم والداعية وشيخ العلم لغير المسلمين هو باتّ من أبواب نشر العلم وكشف الحقائق ورد الشبهات

والزيف والأباطيل التي تفتري على المسلمين، ولا يكون في معاشرته لهم مدهناً مضيقاً للحقّ خانعاً متلوّناً، بل يقول الحقّ ويدعو

إليه بكلّ صدقٍ وجرأةٍ وثبات مع مراعاة الحكمة والمصلحة العامة، فلا يُحسّن لهم باطلاً، ولا يشجعهم على كفر ولا يثنى على

محرمّ، ولا يشجّع على فساد، ولا يسكت عن ظلم.

وكم من أمثلة رائعة نأخذها من سيرة الأنبياء والأولياء في مخالطتهم ومعاشرتهم لغير المسلمين.

(1) صحيح البخاري، البخاري، (116/6)، حديث (4780).

فقد روى البخاري⁽¹⁾ عن أنس رضي الله عنه أن غلاماً يهود كان يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقال:

«أَسْلَمَ»، فأسلم.

وقد حصل مع سهل التستري أن كان له جار مجوسي، وكان في نفس البيت في الطابق الأعلى، فانفتحت فتحة في كنيف المجوسي، فكان يقع منها الأذى في دار سهل، فكان يضع كل يوم الجفنة تحت الفتحة، فينزل فيها الأذى، ثم يأخذ ذلك بالليل ثم يطرحه بعيداً، فمكث رحمه الله على هذا الحال زماناً طويلاً إلى أن أتى سهلاً المَرَضُ، فاستدعى سهل جاره المجوسي، وقال له: ادخل ذلك البيت وانظر ما فيه فرأى الفتحة والقدر، فقال: ما هذا؟ قال سهل: هذا منذ زمن طويل يسقط من دارك، وأنا أتلقاه بالنهار وألقيه بالليل، ولولا أنه حضرني أجلي ما أخبرتك، وأنا أخاف أن لا تتسع أخلاق غيري لذلك، فافعل ما ترى، فقال المجوسي: أيها الشيخ، أنت تعاملني بهذه المعاملة منذ زمن طويل، وأنا مقيم على كفري، أيها الشيخ، مد يدك، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم مات سهل رحمة الله عليه.

وروى أحمد⁽²⁾ في مسنده عن عبد الله بن عباس قال: حدّثني سلمان الفارسي حديثه من فيه، قال: قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من أهل قرية منها يقال لها جحي، وكان أبي دهقان قريته، وكنت أحبّ خلق الله إليه، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيته كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها لا يتركها تحبو ساعة، قال: وكانت لأبي ضيعة عظيمة، قال: فشغل في بنيان له يوماً، فقال لي: يا بني، إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي، فاذهب فاطلعها، وأمرني فيها ببعض ما يريد، فخرجت أريد ضيعتي، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما مررت بهم، وسمعت أصواتهم، دخلت عليهم أنظر ما يصنعون، قال: فلما رأيتهم أعجبني صلاتهم، ورغبت في أمرهم، وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس، وتركت ضيعة أبي ولم آتها، فقلت لهم: أين أصل هذا الدين؟ قالوا: بالشام قال: ثم رجعت إلى أبي، وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، قال: فلما جئته، قال: أي بني، أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قال: قلت: يا أبت، مررت بناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بني، ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آباءك خير منه، قال: قلت: كلا والله إنه لخير من ديننا، قال: فخافني، فجعل في رجلي قيداً، ثم حبسني

(1) صحيح البخاري، البخاري، (117/7)، حديث (5657).

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (140/39)، حديث (23737).

في بيته، قال: وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، قال: فقدم عليهم ركب من الشام تجار من النصارى، قال: فأخبروني بهم، قال: فقلت لهم: إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة إلى بلادهم فأذنوني بهم، قال: فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم، فألقيت الحديد من رجلي، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام، فلما قدمتها، قلت: من أفضل أهل هذا الدين؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، قال: فجننته، فقلت: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك وأصلي معك، قال: فادخل فدخلت معه، قال: فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه منها أشياء، اكتنزه لنفسه، ولم يعطه المساكين، حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، قال: وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع، ثم ماتن فاجتمعت إليه النصارى ليدفونه، فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها فإذا جئتموه بما اكتنزه لنفسه، ولم يعط المساكين منها شيئاً، قالوا: وما علمك بذلك؟ قال: قلت أنا أدلكم على كنزه، قالوا: فدلنا عليه، قال: فأريتهم موضعه، قال: فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً، قال: فلما رأوها قالوا: والله لا ندفعه أبداً فصلبوه، ثم رموه بالحجارة، ثم جاءوا برجل آخر، فجعلوه بمكانه، قال: يقول سلمان: فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس، أرى أنه أفضل منه، أزهدي الدنيا، ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، قال: فأحببته حباً لم أحبه من قبله، فأقمت معه زماناً، ثم حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه من قبلك وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فيلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلاً بالموصل، وهو فلان، فهو على ما كنت عليه، فالحق به، قال: فلما مات وغيب، لحقت بصاحب الموصل فقلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك، وأخبرني أنك على أمره، قال: فقال لي: أقم عندي فأقمت عنده، فوجدته خير رجل على أمر صاحبه، فلم يلبث أن مات، فلما حضرته الوفاة، قلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إليك، وأمرني باللحوق بك، وقد حضرتك من الله عز وجل ما ترى، فيلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا بنصيبين، وهو فلان، فالحق به، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فجننته فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، قال: فأقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما حضر، قلت له: يا فلان، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فيلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما نعلم أحداً بقي على أمرنا ءامرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية، فإنه على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فأته، قال: فإنه على أمرنا، قال: فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت مع رجل

على هدي أصحابه وأمرهم، قال: واكتسبت حتى كان لي بقرات وغنيمة، قال: ثم نزل به أمر الله، فلما حضر قلت له: يا فلان، إني كنت مع فلان، فأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فألى من توصي بي، وما تأمري؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه أصبح على ما كنا عليه أحد من الناس أمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظلك زمان نبي هو مبعوث بدين إبراهيم يخرج بأرض العرب، مهاجرًا إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل، قال: ثم مات وغيب، فمكثت بعمورية ما شاء الله أن أمكث، ثم مر بي نفر من كلب تجارًا، فقلت لهم: تحملوني إلى أرض العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنماتي هذه؟ قالوا: نعم فأعطينموها وحملوني، حتى إذا قدموا بي وادي القرى ظلموني فباعوني من رجل من يهود عبداً، فكنت عنده، ورأيت النخل، ورجوت أن تكون البلد الذي وصف لي صاحبي، ولم يحق لي في نفس، فبينما أنا عنده، قدم عليه ابن عم له من المدينة من بني قريظة فابتاعني منه، فاحتملني إلى المدينة، فوالله ا هو إلا أن رأيتها فعرفتُها بصفة صاحبي، فأقمت بها وبعث الله رسوله، فأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل الرق، ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عدق لسيدي أعمل فيه بعض العمل، وسيدي جالس، إذ أقبل ابن عم له حتى وقف عليه، فقال: فلان، قاتل الله بني قيلة، والله إنهم الآن مجتمعون بقاء على رجل قدم عليهم من مكة اليوم، يزعمون أنه نبي، قال: فلما سمعتها أخذتني العُروءاء، حتى ظننت سأسقط على سيدي، قال: ونزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه ذلك: ماذا تقول؟ ماذا تقول؟ قال: فغضب سيدي فلكني لكمة شديدة، ثم قال: ما لك ولهذا أقبل على عمك، قال: قلت: لا شيء، إنما أردت أن أستثبته عما قال: وقد كان عندي شيء قد جمعته، فلما أمسيت أخذته ثم ذهبت إلى رسول الله ﷺ وهو بقاء، فدخلت عليه، فقلت له: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة، وهذا شيء كان عندي للصدقة، فأريتكم أحق به من غيركم قال: فقربته إليه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «كلوا» وأمسك يده فلم يأكل، قال: فقلت في نفسي: هذه واحدة، ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً، وتحول رسول الله ﷺ إلى المدينة، ثم جئته به، فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية أكرمتك بها، قال: فأكل رسول الله ﷺ منها وأمر أصحابه فأكلوا معه، قال: فقلت في نفسي: هاتان اثنتان، قال: ثم جئت رسول الله ﷺ وهو ببيع الغرقد، قال: وقد تبع جنازة من أصحابه، عليه شملتان له، وهو جالس في أصحابه، فسلمت عليهن ثم استدرت أنظر إلى ظهره، هل أرى الخاتم الذي وصف لي صاحبي؟ فلما رأني رسول الله ﷺ استدرته، عرف أنني أستثبت في شيء وصف لي، قال: فألقى رداءه عن ظهره، فنظرت إلى الخاتم فعرفته، فانكبت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله ﷺ: «تحول» فتحولت، فقصصت عليه حديثي كما حدثتك يا ابن عباس، قال:

فأعجب رسول الله ﷺ أن يسمع ذلك أصحابه، ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله ﷺ بدر، وأحد، قال: ثم قال لي رسول الله ﷺ: «**كاتب يا سلمان**»، فكاتبته صاحبي على ثلاث مائة نخلة أحبيها له بالفقير⁽¹⁾، وأربعين أوقية، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أعينوا أخاكم**» فأعانوني بالنخل: الرجل بثلاثين ودية، والرجل بعشرين، والرجل بخمس عشرة، والرجل بعشر، يعني: الرجل بقدر ما عنده، حتى اجتمعت لي ثلاث مائة ودية، فقال لي رسول الله ﷺ: «**اذهب يا سلمان فققر لها، فإذا فرغت فأنتي أكون أنا أضعها بيدي**» قال: فققرت لها، وأعاني أصحابي، حتى إذا فرغت منها جئته فأخبرته، فخرج رسول الله ﷺ معي إليها فجعلنا نقرب له الودي ويضعه رسول الله ﷺ بيده، فوالذي نفس سلمان بيده، ما ماتت منها ودية واحدة، فأديت النخل، وبقي علي المال، فأتي رسول الله ﷺ بمثل بيضة الدجاجة من ذهب من بعض المغازي، فقال: «**ما فعل الفارسي المكاتب؟**»، قال: فدعيت له، فقال: «**خذ هذه فأدِّ بها ما عليك يا سلمان**»، فقلت: وأين تقع هذه يا رسول الله ﷺ مما علي؟ قال: «**خذها، فإن الله سيؤدي بها عنك**»، قال: فأخذتها فوزنت لهم منها، والذي نفس سلمان بيده، أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم، وعتقت، فشهدت مع رسول الله ﷺ الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد⁽²⁾.

وقد سبق البيان أن المسلم لا يكون في معاشرته لغير المسلمين مدهاناً مضيقاً للحقّ خانعاً متلوثاً، فانظر رحمك الله ما جرى بين الباقلائي وملك الروم، فقد روي أن ملك الروم طلب من الخليفة أن يرسل إليه أحد علمائه ليسأله، فبعث له القاضي أبا بكر الباقلائي وكان أدكى علماء الإسلام في عصره. وعندما سمع ملك الروم بقدم أبي بكر الباقلائي وهو الملقب بسيف السنتّة ولسان الأمة، أمر حاشيته أن يُقَصِّروا من طول الباب، بحيث لو دخل عليه الباقلائي يضطر إلى خفض رأسه وأعلى جسمه كهيئة الركوع، فيذلّ أمام ملك الروم وأمام حاشيته.

ولما حضر أبو بكر، عرف الحيلة فدار جسمه ودخل من الباب وهو يمشي للوراء بحيث دخل وقفاه موجه لملك الروم بدلاً من رأسه.

فلما دخل المجلس وكان مع الملك حاشيته من الرهبانية ورجال الكنيسة بادر العالم أبو بكر الباقلائي الرهبانية بالسؤال:

كيف حالكم وكيف حال أهلكم وأولادكم؟

(1) أي: بالحفر والغرس، يقال: فقرت الأرض إذا حفرتها، وفي النهاية: حفرة تحفر للفسيلة إذا حولت لتغرس فيها.

(2) مسند أحمد، أحمد بن حنبل، (140/39 - 147)، حديث (23737).

فأرعدوا وأزبدوا وغضب ملك الروم وقال: هؤلاء رهبان يتنزهون عن الزوجة والولد، فهم أشرف من أن يتخذوا زوجة

وأطفالاً.

فقال أبو بكر: الله أكبر، تُنَزّه هؤلاء عن الزواج والإنجاب ثم تتهمون ربكم بمرم، ولا تنزهونه عن الولد؟! فزاد غضب

الملك.

قال الملك وبكل وقاحة: فما قولك في عائشة التي زنت؟

قال أبو بكر: أما والله إنَّ عائشة تزوجت ولم تنجب، وأما مريم فلم تتزوج وأنجبت. فأيهما أولى⁽¹⁾. وكيف تتهم بالزنى

التي لم تأت بولد وتنزه التي أتت بولد؟ أما نحن ففي القرآن نبرئهما الاثنتين.

فبهت الذي كفر.

وفي الختام، نوّد التحذير من التشبه بعبادات وأعمال الكفار والفسقة الفجار، يقول الله تعالى: {لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ

بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: 22]، ويقول النبي ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم».

ثم إن التشبه بالكفار نوعان: تشبهٌ يوصل إلى الكفر، وتشبه دون ذلك.

وإن من البلاء اليوم تشبه بعض المسلمين بعبادات الكفار في اللباس والأعمال والحركات والأسماء، فليحذر من ذلك.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد طه الأمين. تم شرح وصية الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه

لتلميذه يوسف السمطي والله الحمد والمنة.

(1) أي: بزعمك، وهذا في معرض التهكم والتبكيث.

فهرست الموضوعات

- 1 مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ
- 5 شَرْحُ وَصِيَّةِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ
- 5 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِذَا دَخَلْتَ الْبَصْرَةَ وَاسْتَقْبَلَكَ النَّاسُ، وَزَارُوكَ وَعَرَفُوا حَقَّكَ، فَأَنْزِلْ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَنْزِلَتَهُ»
- 7 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَكْرَمُ أَهْلِ الشَّرَفِ، وَعَظَمُ أَهْلِ الْعِلْمِ»
- 11 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَوَقِّرِ الشُّبُوحَ»
- 13 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَطْفِ الْأَحْدَاثَ»
- 17 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَتَقَرَّبْ مِنَ الْعَامَّةِ»
- 18 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَدَارِ الْفَجَارِ»
- 20 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاصْحَبِ الْأَخْيَارَ»
- 22 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَهَاوَنَ بِالسُّلْطَانِ»
- 26 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَحْقِرَنَّ أَحَدًا يَقْصِدُكَ»
- 28 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَقْصِرَنَّ فِي إِقَامَةِ مَوَدَّتِكَ إِيَاهُمْ»
- 31 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَخْرُجَنَّ سِرَّكَ إِلَى أَحَدٍ»
- 32 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَتَقَنَّ بِصَحْبَةِ أَحَدٍ حَتَّى تَمْتَحِنَهُ»
- 35 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تُخَادِمِ حَسْبِسًا، وَلَا وَضِيْعًا»
- 37 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَقُولَنَّ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُنْكَرُ عَلَيْكَ فِي ظَاهِرِهِ»
- 39 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِيَاكَ وَالْإِنْسَاطَ إِلَى السُّفَهَاءِ»
- 40 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَجِيئَنَّ دَعْوَةً، وَلَا تَقْبَلَنَّ هَدِيَّةً»
- 42 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَعَلَيْكَ بِالْمَدَارَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَسَعَةِ الصَّدْرِ»
- 44 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاسْتَجِدَّ ثِيَابَكَ»
- 46 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَأَكْثِرِ اسْتِعْمَالَ الطَّيِّبِ»
- 48 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَرِّبْ مَجْلِسَكَ، وَلِيَكُنْ ذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ»
- 49 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاجْعَلْ لِنَفْسِكَ حَلْوَةً تَرْمُ بِهَا حَوَائِجَكَ»
- 51 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاجْحَثْ عَنْ أَخْبَارِ حَشَمِكَ، وَتَقَدَّمْ فِي تَقْوِيمِهِمْ وَتَأْدِيهِمْ»
- 52 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاسْتَعْمَلْ فِي ذَلِكَ الرَّفْقَ»
- 54 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تُكْثِرِ الْعَتَبَ فِيهِوَ الْعَدْلُ»
- 55 قَالَ الْإِمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَلَا تَلِ تَأْدِيهِمْ بِنَفْسِكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لِمَائِكَ، وَأَهْيَبُ لَكَ»

- 57 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وحافظ على صلواتك».
- 61 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وابذل طعامك، فإنه ما ساد بخيل قط».
- 65 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولیکن لك بطانة تُعْرِفُكَ أخبارَ الناسِ، فمتى عَرَفْتَ بفسادِ بادرَتِ إلى صلاحٍ، ومتى عَرَفْتَ بصلاحٍ فازدادَ رغبةً وعنايةً في ذلك».
- 67 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واعمَدَ في زيارةٍ مَنْ يَزُورُكَ ومن لا يَزُورُكَ، والإحسانِ إلى من أحسنَ إليك، أو أساء».
- 70 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وخذِ العفوَ وأمرَ بالمعروفِ».
- 72 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وتغافلَ عما لا يعينك».
- 73 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واتركَ كلَّ من يؤذيك».
- 76 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وبادر في إقامةِ الحقوقِ».
- 79 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن مَرَضَ من إخوانِكَ فَعُدَّهُ بنفسِكَ، وتعاهدَهُ برُسلِكَ».
- 85 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن غابَ منهم فتنفَقْ أحواله. ومن قعدَ منهم عنكَ، فلا تقعدُ أنتَ عنه».
- 87 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وَصِلْ مَنْ جفاكَ».
- 89 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وأكرمَ مَنْ أتاك».
- 92 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واعفُ عمن أساءَ إليك».
- 98 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن تكلمَ منهم بالقبيحِ فيك فتكلمَ فيه بالحسنِ الجميلِ».
- 102 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن مات قضيتَ له حقُّه».
- 105 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن كانتَ له فرحةٌ هنيئةٌ بها».
- 107 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن كانتَ له مصيبةٌ عزيزةٌ عنها».
- 111 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن أصابَهُ همٌّ فتوجَّعَ له به».
- 112 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن استنهضَكَ لأمرٍ من أمورهِ نهضتَ له».
- 115 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن استغاثَكَ فأغثه».
- 117 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومن استنصرَكَ فانصره».
- 119 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وأظهرِ التودُّدَ إلى الناسِ ما استطعتَ».
- 121 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وأفشِ السلامَ، ولو على قومٍ لئامٍ».
- 127 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ومتى جمعَكَ وغيرَكَ مجلساً، أو ضمَّمَ وإياهم مسجدًا، وجرتِ المسائلُ، وحاضوا فيها بخلافٍ ما عندَكَ لم تُبدِ لهم منك خلافاً».
- 128 فَإِن سئِلتَ عنها! أجبتَ بما يَعْرِفُهُ القومُ، ثم تقولُ: وفيها قولٌ آخرُ كذا، وحجَّتَه كذا، فإذا سَمِعوا مِنْكَ عَرَفُوا قَدْرَكَ ومقدارَكَ، وإن قالوا: هذا قول مَنْ؟ فقل: قولُ بعضِ الفقهاءِ.....
- 128 وإن استقرُّوا على ذلك، وألفوه، وعرفوا مقدارَكَ وعظِّموا محلَّكَ، فأعطِ كلَّ مَنْ يَحْتَلِفُ إليك نوعًا من العلمِ ينظرونَ فيه، ويأخذُ كلُّ منهم بحظِّ شيءٍ مِنْ ذلك».
- 140 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وخذهم بجليِّ العلمِ دونَ دَقِيَقِهِ».
- 144 قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وإِنسَهُمْ ومازحَهُمْ أحياناً».

- 149..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وحدّثهم، فإنّها تجلبُ المودّة وتستدِيمُ به مواظبة العلم».
- 150..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وأطعمهم أحياناً».
- 154..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واقض حوائجهم».
- 156..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واعرف مقدارهم».
- 157..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وتعافل عن زلاتهم».
- 160..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وارفق بهم».
- 162..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وسأخهم».
- 164..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تُبدِ لأحدٍ منهم ضيقَ صدر أو ضجرًا».
- 166..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وكن كواحدٍ منهم».
- 170..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وارض منهُم ما ترضى لنفسك».
- 170..... وعامل الناس معاملةً لنفسك».
- 171..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واستعن على نفسك بالصيانة لها، والمراقبة لأحوالها».
- 173..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تضجر لمن لا يضجر عليك».
- 175..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ودع الشعب».
- 177..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واستمع لمن يستمع منك».
- 180..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «ولا تكلف الناس ما لا يكلفوك، وارض لهم ما رضوا لنفسهم».
- 181..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وقدم حسن النية».
- 186..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واستعمل الصدق».
- 190..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واطرح الكثير جانباً».
- 192..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وإياك والغدر، وإن غدروا بك».
- 194..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وأد الأمانة وإن خانوك».
- 198..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وتمسك بالوفاء».
- 203..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «واعصم بالتقوى».
- 208..... قَالَ الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «وعاشر أهل الأديان حسب معاشرتهم لك».
- 214..... فهرست الموضوعات